دراسات
لاهوتيّة

دَواعي الإيمان في عصْرنا

الجزء الثاني

الأبّ جيوڤانّي
مارتِنتّي

نقله من الفرنسيَّة

الدكتور جورج مصري

دار المشرق
بيروت

لا مانع من طبعه

بولس باسيم
النائب الرسوليّ للّاتين
بيروت، ٣١/ ٣/ ١٩٩٣

 طبعة أولى ١٩٩٧
دار المشرق ش م م – ص.ب. ٩٤٦، بيروت – لبنان

ISBN 2-7214-4811-0

التوزيع: المكتبة الشرقيّة
ص.ب. ١٩٨٦، بيروت – لبنان

فهرس المحتويات

الجزء الثاني

هل الله يكلّمنا؟

١٠ - النقد التاريخيّ والأناجيل

لا وجه لله بدون المسيح

ضرورة الوحي الإلهيّ للبشريَّة

يقول پسكال إنّ أقصى ما يمكن أن يبلغه العقل هو الإقرار بأنّ ثمّة حقائق أسمى منه لا يمكن أن يُدركها.

فالمنطاد يقرّبنا من القمر، ولكنّه لا ينقلنا إليه. وكذلك العقل، إذ يتّحد مع الحدْس، يجعلنا نكتشف وجود الله فيقرّبنا منه، إلّا أنّه لا يمكّننا من فهم نواياه. فلِمَ الإصرار على الصعود إلى القمر بالمنطاد؟ ولِمَ التخلّي عن القمر إن كان سرّ حياتنا يكمن فيه؟

إن لم يكن هناك وحي إلهيّ، فترانا، نحن البشر، تائهين في صحراء الشكّ والجهل في ما يختصّ بأهمّ الحقائق، أي: الألم ومعنى الحياة والآخرة.

كتب ڤان دِر مِير قبل أن يهتدي إلى الإيمان، قال: «ماذا تَرَيْنا نمثّل هنا، يا آن ماري، سوى كائنَين مسكينَين وحيدَين، ضائعَين في الكون الفسيح؟ أنظري هذه الزهور: ألا يستعصي علينا فهم إزهارها؟ وانظري أيدينا: إنّها حيّة، ونحن أحياء، ولكنّنا لا نستطيع أن ندرك كنه هذه الكلمة العميق: الحياة... إنّني أشعر بالظلام الدامس يحيط بي، ومع ذلك أريد أن أرى. فلِمَ لا أكتفي بما هو

أمامي؟ ولِمَ تسعى روحي إلى اللامتناهي، إلى ما هو خالد؟»[1]

حتّى ولو صحّ ما بيّنّاه في الجزء الأوّل من الكتاب، وهو أنّ العقل قادر على إدراك وجود الله، فإنّ هذا العقل يبقى في حيرة يساوره الكثير من الشكوك حول وجوده، ما لم يقبل بالوحي ويستند إلى براهينه. ولا شكّ أنّ القارئ قد أدرك من خلال تجربته أنّ العقل - وإن ترافق مع الحدْس - لا يقدر على تبديد الضباب الكثيف ليرى بوضوحٍ الغاية التي من أجلها خلقنا الله ووضعنا في هذه الدنيا الغريبة.

فلنحاول أن نتوجّه إلى عشرة أشخاص يمرّون بالشارع وبينهم سبعة لا يعرفون شيئًا عن الوحي الإلهيّ الحقيقيّ، ونسألهم عن سبب وجودنا في العالم. في نظر الناس العاديّين الذين لا يستطيعون الخوض في أبحاث طويلة ومضنية، لا يسلّط العقل ضوءًا كافيًا على تلك المسألة التي تفوق جميع المسائل في إثارة الاهتمام، وحتّى عند معظم المفكّرين. فالعقل كالشمعة التي لا يمكنها أن تضيء مشهدًا بأكمله.

أمّا بيرانديلّو Pirandello، فيقدّم الحقيقة على شكلِ وجه امرأة تستحيل معرفتُه، ويثير مناقشات لا نهاية لها وتفسيرات متعارضة. وإذ تَمْثُلُ هذه المرأة أمام العدالة، تَظهر وقد أسدلت الحجاب على وجهها، وتقول: «أمّا أنا، فإنّي مَن يعتقد الناس أنّي هو» («ما أنا سوى الصورة التي تبدو لكم») (مسرحيّة لكلّ امرئ حقيقته). وفي مسرحيّة **المرحوم ماتّيا بسكال**، يظهر الناس هائمين في الظلام، ويحمل كلّ منهم مصباحه الصغير (أي أفكاره الخاصّة به). «منهم

---

(١) P. Van der Meer de Walcheren, *La mia conversione*, dans *Uomini incontra a Cristo*, Cittadella Ed., Assisi, 1956, p. 317.

مَن يذهب من هنا أو من هناك، ومنهم مَن يرجع إلى الخلف، ومنهم مَن يخبط خبط عشواء... فإلى مَن ينبغي أن نتوجَّه؟»[٢]

أفليس من التناقض أن نؤمن بإله أصمّ أبكم لا يستجيب لسعي الإنسان إلى النور أو لا يُفْلِح في الاستجابة إليه أو لا يريد ذلك؟ أو بإله خلقنا لهدف أوّليّ ويحول الآن دون معرفتنا بهذا الهدف والسبل التي ينبغي اتّباعها من أجل بلوغه؟

ويستسهل الكثير من الناس اليوم اللجوء إلى منطاد العقل الوضيع، ويخشون ركوب صاروخ المسيح الفضائيّ.

إنّهم ضدّ «عقائديّة» الإيمان، ولكن إن كان عندي من المبرِّرات ما يكفي لإيماني بأقوالٍ معيّنة أوحى بها الله، فإنّها بمثابة عقائد، أي حقائق أكيدة. أمن العقائديّة أن نقبل الوقائع التي أثبتها العلم أو أكّدها التاريخ أو أفضت إليها محاكمة عادلة على أنّها حقائق غير قابلة للجدل؟

وبعد أن نرى طابع الله في العالم وفي وجدان البشر، نتساءل قائلين: لعلّ الله تجلّى للناس بصورة أوضح. وهنا نحتاج إلى جلاء وإلى براهين على أنّ الله قد تكلّم حقًّا. فالشعور وحده ليس دليلًا أكيدًا، والله لا يتجلّى داخل الإنسان إلّا إذا عَرف هذا الإنسان صوت الربّ من خلال صوت مُعَلِّمٍ روحيّ كبير.

نحتاج، نحن البشر، إلى وحي موضوعيّ خارجٍ عنّا، أي إلى شيء يدركه حتّى الإنسان الذي ليس له ميول صوفيّة والذي يعاني ضرورات الحياة العمليّة المُلِحّة.

---

(٢) L. Pirandello, *Il fu Mattia Pascal, Tutti i romanzi*, Mondadori, Milano, 1944, p. 169.

وممّا يجدر ذكره وإبرازه أنّ أيًّا من العباقرة الدينيّين الكبار ومؤسّسي الأديان – ما عدا المسيح – لم يؤكّد أنّه ابن الله ومُساوٍ لأبيه، ولا أنّه يحمل إلى الإنسان وحيًا يأتي من الله مباشرة.

ولم يَدَّعِ بوذا ورامانوجا وماهافيرا وكونفوشيوس ولاو–تسي أنّهم ينقلون رسالة من الخالق، وإنّما يقدّمون مجرّد استنارة شخصيّة. أمّا موسى، فكان نبيًّا وبشّر بعقيدة تُعَدُّ تمهيدًا لعقيدة المشيح النهائيّة.

وتنبّأ كبار أنبياء اليهود بالمسيح، وتبعه القدّيسون المسيحيّون. وتفرّد يسوع من بين كبار عباقرة الأديان بأنّه بَشّر برسالة جديدة تمامًا في عمقها وَصَفَها بأنّها وحي نهائيّ صادر عن أبيه. وتفرّد كذلك باعتبار نفسه ابن الله المساوي للآب.

وبدون المسيح، يمكننا أن نصل إلى ما يسمّيه العديد من الناس «الإيمان بالله»، ولكن، كما يقول مورافيا Moravia، هذا رأي لا يغيّر شيئًا في الحياة. إنّه أبو هول أو لغز أو إله بلا وجه.

أمّا المسيح، فيكشف لنا وجه الله في صورة تسمو نُبلًا وجلالًا وتَرقى على سائر الصور التي رسمها له الفلاسفة والمفكّرون في جميع العصور.

حتّى أولئك الذين يشكّون في ألوهيّة المسيح يشيدون كلّ الإشادة بإنسانيّته وحكمته وعمق عقيدته وسموّ حياته الأخلاقيّة. كما يُقِرّ معظم هؤلاء المشكّكين بأنّ المسيح يرقى على سائر المعلّمين الروحيّين العظام، وبأنّه قدّم للبشريّة أكبر عدد من القدّيسين. إذن، إن كان هناك وحي إلهيّ، فإلى المسيح ينبغي أن نتوجّه.

والأمر الذي يسمح لنا بألّا نقتصر على الوحي في إيماننا هو

أنّه أصبح من الممكن اليوم أن نقدِّم برهانًا حقيقيًا، بالاستناد إلى علم التاريخ، على أنّ شخصيّة المسيح **لم تكن وليدة الإيمان**. وثمّة العديد من الشهادات المعاصرة والجديرة بالثقة تجعلنا على يقين بوجود وجه الله، كما نحن على يقين بوجود المحيط القُطبيّ الجنوبيّ أو الملك شارلْمان Charlemagne أو الإلِكترونات.

وسوف يبدو هذا الفصل شاقًّا بعض الشيء وخاليًا من الألوان، ولكن اكتشاف كنز هو أمر يستحقّ العناء. فأُسُس الأبنية تكون من الأسمنت الرمادي وغير الجميل، ولكنّها هي التي تحمل الشقق التي يسكنها الأطفال والشرفات المزيّنة بالزهور.

فرصة العيش بعد بولتمان Bultmann بخمسين سنة

كتب جان غيتّون يقول: «كان أندريه موروا André Maurois يأخذني في بعض الأحيان ليقول لي: «أنا متّفق في الرأي مع ألان Alain، أي أنّني معجب بكلّ ما قيل في الإنجيل، إذ أجد فيه حقيقة بشريَّة وإلهيَّة، ولكن لا يُجبرُنّي أحد على الاعتقاد بأنّ ما قيل قد حصل فعلًا». وأذكر كذلك ما كان يقوله لي صديقي القديم كُوشُو Couchoud، الذي قضى كلّ حياته يدرس الإنجيل فلسفيًا: «إنّي أقبل بكلّ ما في قانون الإيمان المسيحيّ، ما عدا عبارة **على عهد بُنطيوس بيلاطُس**». وكان مستعدًّا لقبول جميع العقائد، شرط أن تكون عقائد مُنزَلة ليس لها أيّ علاقة بالتاريخ». «فَلِمَ لا نحفظ من الإنجيل دلالته الروحيّة فحسب؟» لعلّ هذه فكرة يقبل بها معظم معاصرينا، بل لعلّها فكرة يُقرّ بها سرًّا بعض المؤمنين». . . . «إلّا أنّني أعتقد بأنّ هذه النظرة إلى الأمور. . . خاطئة».

«هذه النظرة تخيف بولس ويوحنّا والرسل الأوائل وآباء

الكنيسة وعلماء اللاهوت وجميع القدّيسين، لأنّها تستبدل بيسوع فكرة أو صورة أو أسطورة. لا يموت المرء مراعاةً للمظاهر...».

«وقد أكسبني البحث قناعة بأنّ هذه الحكمة صائبة: فإن كان القليل من النقد يُبعدنا عن تاريخيَّة حياة المسيح، فإنّ نقد النقد، أي كمال النقد، يعيدنا إليه»(٣).

والأمر كذلك فعلًا، فكما أتاح فويرباخ وماركس وفرُويد وسارتر وغيرهم من المفكّرين الملحدين للمؤمنين فرصة كشف الإيمان المزيَّف واللاعقلانيّ بالله، وترسيخ الإيمان العقلانيّ والأصيل، كذلك حثّ النقد العالي الذي قدّمه بولتمان وكتاب **تاريخ الصِيَغ** المؤرّخين اللاحقين على نقد النقد العالي. ممّا أدّى إلى نشوء المدارس المختلفة التي تُفضي بنا اليوم إلى المسيح التاريخيّ وإلى رسالته الأصيلة وإلى أهمّ وقائع حياته على الأرض.

حتّى عام ١٩٥٠، كان حلّ مشكلة تأريخ الأناجيل يعتمد أساسًا على النقد الخارجيّ، أمّا الدراسات الأحدث عهدًا (**تاريخ التقاليد وتاريخ الصِيَغ وتاريخ التحرير**، إلخ). التي كانت ردودًا على نقد بولتمان، فقد طرحت المشكلة بشكلٍ مختلف وعلى نحو أكمل. ينبغي لنا أن نلجأ إلى النقد الداخليّ لكي نكشف - استنادًا إلى معايير علميّة راسخة ومُثْبتة - مختلف طبقات الرواية الإنجيليَّة، ونصل بذلك إلى المسيح التاريخيّ(٤).

يمكن **النقد التاريخيّ** أن يكون **خارجيًّا** عندما نسعى إلى تحديد

---

(٣) J. Guitton, *Ce que je crois*, Bernard Grasset, Paris, 1971, pp. 94-96.

(٤) إرجع مثلًا إلى: F. Lambiani, *L'autenticità storica dei Vangeli*, Ed. Dehoniane, Bologna, 1978; R. Latourelle, *Accès à Jésus par les Evangiles*, Desclée et Cie, Tournai - Edit. Bellarmin, Montréal, 1981.

المؤلِّف والزمان وطريقة كتابة النصّ، وبالتالي إلى حلّ مشكلة تأريخ المعطيات والتحقّق من أنّ المؤلِّف قد عرف الوقائع بدقّة كشاهد عيان، أو أنّه علم بها من أناس قد شهدوها، والتأكّد من أنّه جدير بالثقة ومن أنّ كتاباته لم تُحَرَّف.

ويكون النقد داخليًّا إذا ما سعينا إلى التحقّق من القيمة التاريخيّة التي تملكها المعطيات، انطلاقًا من تحليل النصّ شكلًا ومضمونًا ومن مقارنته بسائر وثائق العصر الذي يُنسب إليه.

سكُوتلاند يارد والنقد التاريخيّ

في الروايات البوليسيَّة، يتساءل المحقّق في البدء قائلًا: أمن الممكن إيجاد أحدٍ شهد الوقائع أو سمعها؟ ثمّ يتابع تساؤلاته على النحو التالي: هل يزيد عدد الشهود على الواحد؟ وهل تتوافق شهاداتهم؟ وهل يقعون في تناقضات جوهريّة؟ وبأيّ قدر من المصداقيّة يتّسم كلّ منهم؟ هل لأحدهم مصلحة في أن يُخفي أو يشوّه أمرًا ما؟ وإن كنّا بصدد شهادات مكتوبة، فهل هي أصليّة، أي هل هي من صنع الشخص الذي تُنسب إليه؟ وهل هي سليمة أم مُحَرَّفة؟.

هذه التساؤلات نفسها يطرحها كذلك المؤرِّخون عامَّةً، وبالتالي المؤرِّخون الذين يدرسون بعين الناقد الأناجيل وسائر وثائق العهد الجديد بحثًا عمّا يمكن أن يقوله التاريخ في المسيح. أمّا الإجابة على هذه التساؤلات، فتقتضي دراسات طويلة جدًّا وشاقّة تزخر بعمليّات التدقيق والمقارنات بجميع كتابات ذلك العصر ومكتشفاته الأثريّة.

روّاد ما قبل البُولْتمانيّة

إنّ مؤرّخي المسيح (الذين هم أشبه بالمحقّقين البوليسيّين من أمثال شيرلوك هولمز Sherlock Holmes ومِيغْرِي Maigret وكوجاك Kojak وكولومبو Colombo وديريك Derrick) كانوا في الغالب أساتذة جامعيّين ألمان، ثمّ فرنسيّين وإنكليز وإيطاليّين وأمريكان وسويديّين.

فقد أثار هـ.س. رَيْمارُس H.S. Reimarus نحو عام ١٧٥٠ قضيّة المسيح التاريخيّ للمرّة الأولى. وفي عام ١٨٣٥، طرح داڤيد فريديريك شتراوس David Frédéric Strauss في كتابه **حياة يسوع** الفكرة القائلة بأنّه ليس من المهمّ ولا من الممكن أن نعرف مَن هو المسيح تاريخيًّا، إذ لا يهمّ، في نظرنا، سوى رسالة المسيحيّة العميقة.

وبعد نشر مؤلَّف شتراوس بثلاث سنوات، أي عام ١٨٣٨، توصّل ك.هـ. ڤايسِه C.H. Weiss وك.هـ. ڤِيلْكِه C.G. Wilke إلى اكتشاف وثيقتين كانتا أساسًا للتقليد الإنجيليّ، وهما: وثيقة مرقس والوثيقة المشتركة (ومن هنا نشأت نظريّة المَصْدَرَين). وعندما درس ڤايس مصادر مرقس، استشَفَّ تبشير بطرس. ثمّ اكتشف ڤِيلْهاوْسن Wellhausen التقاليد الآراميّة التي نهل منها مرقس ومتّى ولوقا. ولم يعد كُتّاب الإنجيل يُعتبرون «محقّقين صحفيّين» ومؤلِّفين معزولين، وإنّما نَقَلَةَ العديد من التقاليد التي ترجع إلى الرُّسل والتي تكوّنت خلال الثلاثين أو الأربعين سنة الفاصلة بين وفاة المسيح وكتابة الأناجيل الثلاثة الأولى.

وخلافًا لآراء شتراوس، فإنّ المدرسة الليبراليّة التي يُطلَق عليها اسم «دراسة عن حياة يسوع» (Leben - Jesu - Forschung)

والتي يمثّلها هـ. ي. هولتزمان H.J. Holtzmann وك. هـ. ڤايسِكِر K.H. Weisäcker وك. هازِه K. Hase، وب. ڤايس B. Weiss ود. شِنْكِل D. Schenkel وأ. هارناك A. Harnack وغيرهم، ترى أنّه من الممكن كتابة حياة يسوع التاريخيّة وتحديد معالم نفسيّته.

وفي بداية العقد الأوّل من هذا القرن، دعا أ. شڤايتسر A. Schweitzer وم. كِيهلر M. Kähler وڤ. ڤريدِه W. Wrede وإ. رونان E. Renan وك. ف. باور C.F. Baur وأ. لوازي A. Loisy وم. غوغيل M. Goguel وپ. ل. كُوشُو P.L. Couchoud إلى الفكرة القائلة بأنّ المسيح الوحيد الذي نعرفه تاريخيًّا هو مسيح التبشير ومسيح المؤمنين الأوائل. وأثارت هذه المقولة عددًا من مؤلّفي النصف الأوّل من القرن العشرين، وأتاحت لهم فرصة البرهنة على عكسها، أي على الصفة التاريخيّة الأساسيّة التي تتّسم بها شخصيّة المسيح.

ويؤكّد أ. هارناك في واحد من أشهر مؤلّفاته (**جوهر المسيحيّة**) على تلك الصفة التاريخيّة الجوهريّة التي تتّسم بها الأناجيل. ويتجلّى ذلك في طابعها القديم الذي يميّزها عن سائر الكتابات اللاحقة، ولا سيّما في ما يختصّ بالشكل الروائيّ البسيط والفعّال واللغة الآراميّة التي تُسْتَشَفُّ دون عناء من النصّ اليونانيّ(٥).

---

(٥) إليكم ما يقوله في كتاب *L'essenza del cristianesimo* «تنتمي الأناجيل من حيث مضمونها الجوهريّ إلى الحقبة البدائيّة واليهوديّة من المسيحيّة، أي إلى تلك الحقبة القصيرة التي تكاد تنطبق عليها صفة الإحائيّة... أمّا اليوم، فيُجمع النقّاد على أنّ الأناجيل أصيلة. وممّا لا شكّ فيه أنّها، بالدرجة الأولى، تنتمي إلى التقاليد من حيث الجوهر». (مذكور في: D. Grandi, A. Galli, *Ragione e fede*, Ed. Paoline, Modena, 1958, p. 168.

أمّا هـ. فِيلْدِر H. Felder وم.ج. لَغرانج M.J. Lagrange ول. ده غرانْمِيزُون L.de Grandmaison وج. لوبروتون J. Lebreton وك. آدم K. Adam ول. فيليون L. Fillion وف. پْرا F. Prat ول. فونك L. Funek وهـ. دِكمَن H. Dickmann وإ. هِتِّنغر E. Hettinger وج. هُوبي L. Huby وج. بونسرفِن J. Bonsirven وغيرهم من ممثّلي المنهج التاريخيّ التبريريّ، فإنّهم يطبّقون على الأناجيل معايير البحث التاريخيّ التقليديّة، ويلحظون أنّ مؤلّفي الأناجيل يستوفون الشروط العامّة الضروريّة لاكتساب الصفة التاريخيّة، إذ إنّهم معاصرون وشهود عيان، وقد أثبتوا صدقهم وموضوعيّتهم في رواية الوقائع. فعلى الرغم من كونهم تلاميذ المسيح، تراهم يروون حتّى بعض التفاصيل التي تتعارض في الظواهر مع صورة المسيح والرسل، إذ لا يمنحون أنفسهم الحقّ في تشويه الوقائع. أمّا الدليل على صحّة ما يروون، فيكمن في أنّهم نشروا كتاباتهم في عصر قريب جدًّا من الوقائع، بحيث إنّهم لو كذّبوا لانكشفت أكاذيبهم بسهولة. والدليل الأهمّ الذي قدّموه هو أنّهم ضحّوا بحياتهم في سبيل ما يروون. وتظهر معقوليّة الأحداث التاريخيّة من خلال مقارنة الأناجيل بالأناجيل المزيّفة وبمعطيات علم الآثار والتاريخ وأعراف العصر التي وصلت إلينا عبر كتابات غيرهم من المؤلّفين. وتدخل كلّ أحداث الأناجيل ضمن المعقول، وحتّى معجزات، التي لا يمكن بدونها تفسير حماسة الجمهور وإيمان تلاميذ المسيح.

ولا تزال طرق البحث التاريخيّ المذكورة أعلاه، والتي تُسمّى النقد الخارجيّ، تحتفظ بقيمتها حتّى يومنا هذا. فإنّها تمثّل، كما في تحقيقٍ تقوم به شرطة سكوتلاند يارد، رصد عادات الضحيّة وأصدقائها رصدًا دقيقًا، ودرس الآثار التي خلّفها المجرم، ووضع

الشهود وجهًا لوجه. ولكن منذ العقود الأولى من هذا القرن، وضع خبراء التاريخ تقنيّات أدقّ من هذه، تُعرف باسم النقد الداخليّ.

الإيمان العقلانيّ اليوم أسهل منه في السابق

كتب جان غيتون يقول: «أمام هذا العدد الكبير من مناقشات المؤرِّخين واللغويّين، لا يزال سَواد الشعب يعتقد بأنّ هذه مسألة لا حلّ لها، وبأنّها خلاف بين العلماء واللاهوتيّين يتجاوز كفاءة عامّة الناس، ويمثِّل مسرحًا لصراع السلطات. وإنّ ما يدعو الفرد إلى صرف تفكيره عن تلك المسألة ليس نقص الوثائق، بل صعوبة التوصّل إلى رأي شخصيّ عن الموضوع: فالمؤمن يلتفت إلى الحياة بالإيمان، وغير المؤمن يُعْرِض عن القضيّة من أجل الاحتفاظ بِشَكِّه في تأريخ يسوع الإنجيل»[٦].

«ولكن لكي نكون عادلين، يجب أن نرى كلّ شيء وأن نُبرز تَمَيُّزَ ذلك العصر عن سائر العصور. فللمرّة الأولى، منذ العصر المميّز الأوّل الذي جُمع فيه كلام المسيح، أعتقد بأنّ الإنسان المثقّف والواعي يستطيع أن يُكوِّن بنفسه قناعةً عقلانيّة، ويمكنه حتّى في الغالب أن يضع نفسه في موقف الشهود الأوائل... ففي يومنا هذا، وبعد أعمال العديد من المفسِّرين من جميع الطوائف، توصّلنا إلى مجموعة من النتائج المتوافقة التي تقبل بها العقول المعتدلة، والتي تشكِّل مادّة صلبة ومقاوِمة يمكن للفكر أن يعتمد عليها»[٧].

ويمكن القارئ أن يرى أنّ جهود عدد كبير من النقّاد، منذ عام ١٧٠٠ وحتّى يومنا هذا، لم تنجح في البرهنة على أنّ يسوع

---

(٦) J. Guitton, *Jésus*, Bernard Grasset, Paris, 1956, p. 16.

(٧) المصدر نفسه، ص ٢٨.

أسطورة. بل إنّهم أجبروا المؤرِّخين المؤمنين على تعميق أبحاثهم، ممّا سمح لهم باكتشاف إثباتات تبلغ من القوّة ما يكفي لجعل عدد من أكبر خبراء هذا المجال يقبلون بها في عصرنا الحالي.

ويمثِّل هذا بمفرده حجّة قويّة ضدّ الإيمان بالوحي، وفي صالح الإيمان العقلانيّ.

أصل الأناجيل والتقليد الشفهيّ

ليس في استطاعتنا أن نغيِّر مجرى الريح، ولكنّنا نستطيع أن نتحكّم بأشرعتنا بحسب اتّجاه الريح. والشخصيّة التاريخيّة التي يصفها المؤرِّخون المعاصرون هي بمثابة الريح التي تدفع المراكب في اتّجاهات قد تختلف قليلًا في بعض الأحيان. فإذا ما قارنّا وضعيّة الأشرعة ورواية المؤرِّخين، استطعنا أن نستنتج اتّجاه الريح وأن نُكوِّن فكرة أدقّ عن الشخصيّة. وفي حالة يسوع، تُبحر مراكب بولس ومرقس ومتّى وبطرس ولوقا ويوحنّا في اتّجاه واحد تقريبًا، وإن كان كلٌّ منها يسلك طريقًا يختلف قليلًا عن طريق غيره.

أمّا من وجهة نظر الفنون الأدبيّة، فإنّ الأناجيل لا يمكن أن تُعتبر تاريخًا ليسوع، بل مجموعة من الأقوال والأحداث التي أُلِّفت لغرض تربويّ، أي من أجل تعليم المهتدين الجدد.

وإذا ما قارنّا الأناجيل بعضها ببعض، وجدنا أمانة جوهريّة في المعنى وفي مضمون الوقائع، مصحوبةً بشيء من الحرّيّة في ما يختصّ بالدقّة الحرفيّة المتعلّقة بالكلمات وتفاصيل الأحداث. فثمّة أحداث يذكرها أحد الإنجيليّين ويهملها غيره، كما تُنقل بعض الكلمات والأقوال بعبارات متماثلة في جميع الأناجيل... وعلى عكس ذلك، نجد تناقضات مختلفة حول بعض التفاصيل التي لا

أهمّيّة لها، كما هي الحال عندما يروي بعض الأشخاص، كلٌّ على حِدة، حدثًا ما بعد وقوعه بعدّة سنوات.

ولئن كان شهود حياة يسوع قادرين على أن يؤكّدوا - وهم محقّون في ذلك - على أنّ شهاداتهم سليمة بكلّ معنى الكلمة، فإنّهم لا يكتبون تاريخ المسيح كما نكتبه نحن اليوم، ولا يكتبونه حتّى بالطريقة التي يُروى بها تاريخ أعمال الرسل، ولا بالطريقة التي يعالج بها المؤرّخون المعاصرون موضوعاتهم.

وفي الغالب، لا تُروى الوقائع والأقوال بالترتيب الذي جرت به، بل بحسب الموضوع، كما هي الحال في التبشير الشفهيّ. فتبدو لنا أحاديث المسيح أحيانًا مؤلّفة من أقوال وجمل قالها في ظروف مختلفة.

لقد نُقِلت الأناجيل إلينا على نحو متقطّع. لذا فهي لا تشرح الوقائع شرحًا مترابطًا ومتسلسلًا. ويمكن أن تُعتبر تفسيرًا لحياة يسوع، إذ ينقل إلينا كلُّ إنجيل بعض الوقائع والأقوال ويهمل غيرها بما يتناسب مع الهدف الخاصّ الذي سعى إليه المؤلّف. وسبب كلّ هذا أنّ للأناجيل تاريخًا، أي أنّ أصولها ترجع إلى تبشير الكنيسة الأوّليّة الذي تحوّل إلى بعض الكتابات السابقة التي نَهَل منها مؤلّفو الأناجيل

فبحسب ما يرويه لوقا، سعى عدد من المؤلّفين إلى كتابة سَرْدٍ منظّمٍ يعرض الأحداث كما رواها الشهود العيان شفهيًّا.

ومن السهل أن نجد في الإنجيل آثارًا للتبشير الشفهيّ. فكل حدث يُشرح وتُضاف إليه غالبًا عناصر شبيهة.

وثمّة تقسيمات تُرسم حدودها باستخدام لازمات وكلمات

مفتاحيّة وحِكَم تُسَهِّلُ حفظ النصّ. فقد علَّم يسوع بهذه الطريقة، إلّا أنَّ حِفْظَ كلامه بهذا الشكل لم يكن ممكنًا بدون التقليد الشفهيّ.

فضلًا عن ذلك، تكشف عقيدة الأناجيل عن مرحلة عقيديّة أسبق بكثير من التطوّرات اللاهوتيّة التي نجدها في رسائل بولس وسائر الرسل، وتمتدّ هذه المرحلة من الخمسينات إلى السبعينات الأولى بعد المسيح، حيث كانت العقيدة تبدو متطوّرة ومُمنهجة(٨).

في ذلك العصر، كانت أقدم الأفكار تبدو في ثوب بدائيّ بسيط، ولم تكتسِ حلّتها المزركشة إلّا مع مرور الزمن.

حرّاس التقاليد المقدّسة منذ البداية

قد يشكّ الناس في أقوال حكيم ما، ولكنّهم يصدّقونه عندما يقرن القول بالفعل. ولا يُقْدِم الناس على تبجيل هذا الحكيم إلّا إذا اتّصف قوله وفعله بالسموّ. وعندئذ يحرصون كلّ الحرص على حفظ ذكراه ونقلها بكلّ تفاصيلها.

وقد نقل إلينا التقليد الشفهيّ أقوال المسيح في شكلها ومضمونها من خلال **أعمال الرسل** والرسائل. ولعلّ هاتين التسميتين نفسهما تعربان عن أمانة هذا النقل. وتضمّ هذه الوثائق عبارات مثل «البشارة» و«الشهادات» و«أورث» و«تَلَقّى» و«نقل»

---

(٨) إرجع مثلًا إلى: J.W. DOEVE, *La formation des Evangiles*, Bruges, 1957; R. SNACKENBURG, *Die Kirche in Neuen Testament*, Friburg, 1961; H. CONZELMANN, *Le origini del Cristianesimo*, Ed. Claudiana, Torino, 1976; W. EGGER, *Primo approccio al NT*, Marietti, Torino, 1980; R. FABRIS, *Problemi e prospettive di scienze bibliche*, Queriniana, Brescia, 1921; W. DOMMERHAUSEN, *L'ambiente di Gesù*, Marietti, Torino, 1980.

رسالة المسيح. ويُلحظ فيها أنّ التبشير بكلّ ما يختصّ بالمسيح نفسه يوكَل إلى الشهود العيان.

إنّ الذكريات المتعلّقة بالمسيح لم تحفظها جماعة مجهولة، بل مجموعة محكمة التنظيم تشرف عليها سلطةٌ (الرسل) تراقب كيفيّة تعليم العقيدة. وكانت الزيارات التي يقوم بها التلاميذ القادمون من فلسطين تقف حائلًا دون اختلاف أحداث جديدة عن المسيح.

ونلحظ كذلك أنّ الواعظين والمبشّرين بالمسيحيّة في العالم الإغريقيّ كانوا يعتمدون دائمًا على الشهود العيان، ويتجلّى هذا الأمر في **أعمال الرسل والرسائل**. لذا فإنّ أيّ اختلاف للأحداث لم يكن ليمرّ دون احتجاج، وقد حدث فعلًا احتجاج من هذا النوع (مثال: غل ١/ ٧).

لم تؤثّر حاجات الناس في نقل كلام المسيح بحيث تشوّه معناه، إذ كان الرسل يسعون أوّلًا إلى الأمانة في نقل تعاليم المسيح، وإلى أن يكونوا شهودًا على الأحداث.

وشعروا بالحاجة إلى تعليم الوثنيّين المهتدين. والأمر الوحيد الذي كان من شأنه أن يلبّي مطالب هؤلاء كان يتمثّل في الاهتمام التاريخيّ برواية الأحداث التي جرت فعلًا. ففي الحقيقة، كانت الوقائع التي جرت مع المسيح والأقوال التي نطق بها تُعتبر دون غيرها قادرة على تحقيق خلاص البشر.

وبالتالي، كان إيمان الناس تاريخيًّا في جوهره، ولولا الوقائع التي كان يعتمد عليها لَزالت أسباب وجوده[٩].

---

(٩) T.W. MANSON, *I detti di Gesù nei Vangeli di Matteo e di Luca*, Paideia, Brescia 1980; S.NEILL, *A Gesù attraverso mille occhi*. Elle di Ci, Leumann, 1985; Ch. PERROT, *Gesù e la storia*, Borla, Roma, 1981.

وإن كان من الثابت تاريخيًا أنّ إنسانًا قد سلك سلوكًا مختلفًا، عندئذ فقط يمكن أن يؤمن المرء بالإله المختلف الذي بشّر به.

سيّد الشكّ الأقرب إلى عصرنا: بُولتمان Bultmann وتاريخ الصِيَغ

سرعان ما تُحاكُ الأساطير حول إنسان يخرج عن المألوف، فهل من المحتمل أن تكون الأناجيل أسطورة؟

شهد نقد الأناجيل الداخليّ مرحلة عودة إلى الجذور مع رودولف بولتمان الذي أسّس منذ عام ١٩٢١، مع صدور كتابه *Die Geschichte der Synoptischen Tradition*، مدرسة التفسير المسمّاة بـ «تاريخ الصِيَغ» (بالألمانيّة: Form - Geschichte). وإذ يُبرز بولتمان القدرة الخلّاقة لدى المسيحيّين الأوائل إبرازًا واضحًا، يرى أنّ الأناجيل تمثّل صِيَغًا أدبيّة تعكس الظروف الحياتيّة التي كان يعيشها هؤلاء المسيحيّون. فكلّ ظرف من الظروف (الطقوس الدينيّة والدفاع عن الدين والتعليم الدينيّ...) كان له فنّ أدبيّ خاصّ به. وتابع نظريّة بولتمان أنصاره المقرّبون: ك.س. شميدت K.S. Schmidt وم. ديبيليوس M. Dibelius وم. ألبرتس M. Albertz وغ. بيرترام G. Bertram.

إنّ الإيمان المسيحيّ، في نظر بولتمان، لا ينطلق من المسيح التاريخيّ، بل من المسيح الذي بشّرت به الكنيسة الأوّليّة. لا يفترض هذا التصريح سوى الواقع المجرّد المتمثّل في وجود المسيح التاريخيّ، ويغفل بذلك طريقته والهدف من تبشيره.

تساعدنا الأناجيل، من حيث هي تبشير بالكنيسة، على معرفة تاريخ الجماعة المسيحيّة الأوّليّة، ولا على معرفة تاريخ يسوع

الناصرة. ما يُستخلَص من هذا الكلام هو أنّنا نكاد لا نعرف شيئًا عن المسيح التاريخيّ(١٠).

تجاوز بولتمان (تاريخ التحرير)

ومع تطوّر «تاريخ الصِيَغ»، أي مع الدراسات اللاحقة التي تناولت الفنون الأدبيّة التي أضفتها الجماعة المسيحيّة الأولى على أقوال يسوع ووقائعه من أجل تكييفها مع حاجاتها الروحيّة وبيئتها المعيشيّة، تمّ اليوم تجاوز التشاؤم البولتمانيّ. فعلى الصعيد الأدبيّ، ثمّة نتائج توصّل إليها اللاهوتيّ ماربورغ Marburgh مفادها أنّ الأناجيل ليست إلّا ثمرة فكر الجماعة المسيحيّة الأوّليّة، وصُوِّبَت هذه النتائج من خلال أعمال «تاريخ التحرير»، التي أثبتت أنّ كلًّا من الإنجيليّين كيَّف أقوال المسيح ووقائعه بما يتناسب والحاجات الروحيّة الخاصّة بالجماعة التي توجَّه إليها، مع المحافظة التامّة على الأمانة الجوهريّة في نقل الوقائع التاريخيّة (هـ. كونتسلمان H. Conzelmann وف. ماركسن W. Marxen وف. تريلينغ W. Trilling).

كما أنّ دراسات المدرسة الاسكندِنافيّة (ريزنفلد Riesenfeld وغِهراردسُن Gehrardsson وغيرهما) تنمّ عن موقف واثق بنقل الأناجيل شفهيًّا. وعلى صعيد أقرب إلى اللاهوت، تعترف «المدرسة الجديدة الرامية إلى تفسير الكتب المقدّسة» (فوكس Fucks وإيبلنغ Ebelling وروبنسُن Robinson) بقيمة المسيح التاريخيّ، وتبحث عن الاستمراريّة بين المسيح والجماعة المسيحيّة

---

(١٠) R. BULTMANN, *Die Geschichte der Synoptischen Tradition*, Göttingen, ulter. ediz., 1957; Id., *Gesu*, trad. it., Queriniana, Brescia; 1972.

الأوّليّة[١١].

هذه الروافد المتنوّعة التي تصبّ في التيّار الجديد، تيّار إعادة البناء القائمة على العودة إلى المسيح التاريخيّ، تنطلق في الحقيقة من داخل المدرسة البولتمانيّة كما أنّها بدأت مع نشوء هذه المدرسة. ففي السنة نفسها، أي عام ١٩٥٤، نشر هـ. كونتسلمان دراسته عن «تاريخ تحرير» إنجيل لوقا، وأصدر فوكس بحثه في تفسير الكتب المقدّسة، كما أرسى كيزمان Käsemann بطريقة جديدة أسس «علم اليقين» الذي يسعى إلى إثبات صحّة الأناجيل تاريخيًّا. ومن جهة أخرى، نشر ماركسن عام ١٩٥٦ دراسته عن مرقس، كما أصدر تريلينغ دراسته عن متّى عام ١٩٥٩.

لنستعرض هذا التيّار في خطوطه العريضة ساعين إلى استخلاص أهمّ ملامحه[١٢].

تحليل الأناجيل بالمجهر

ما مِن مشكلة بالغة التعقيد دُرِسَت بذكاء وصبر إلّا وازدادت تعقيدًا، وما من أمر سبرنا أغواره بالتركيب والحَدْس إلّا وبدا في النهاية طبيعيًّا وكاد أن يكون بديهيًّا.

كان كيزمان (١٩٥٣) أوّل بولتمانيّ يبرز بقوّة إمكانيّة التوصُّل - ولو بصعوبة بالغة - إلى نتائج أكيدة عن مسيح التاريخ.

ومع ن. داهل N. Dahl (١٩٥٥)، نضج البحث في «علم

---

(١١) R. LATOURELLE, *Accès à Jésus par les Evangiles*, Desclée & Cie, Tournai, Edit. Bellarmin, Montréal, 1981.

(١٢) F. LAMBIASI, *L'autenticità storica dei Vangeli*, Ed. Dehoniane, Bologna, 1976.

اليقين» في جوّ من الثقة المتنامية، إذ اعترف بدور جماعة المسيحيّين الأوائل ليس في «إعداد» البشر فحسب، بل في «المحافظة» على الدين كذلك.

واستفاد ف. موسّنر F. Mussner (١٩٥٧) من ملاحظات داهل، إلّا أنّه أولَى موضوع تبجيل أقوال المسيح في الكنيسة الأوّليّة وموضوع الأصالة الفريدة التي تتّصف بها هذه الأقوال المزيدَ من الأهمّيّة.

وعمق ب. ريغو B. Rigaux معيار صحّة الأناجيل من خلال عرض البيئة المحيطة والعقليّة السائدة والعادات والتقاليد المنتشرة في عصر المسيح، واهتمّ بمعيار الاختلاف بين تبشير المسيح والمفاهيم اليهوديّة السائدة في ذلك العصر(١٣).

وبحث هـ. شورمان H. Schürmann (١٩٥٨) في موضوع الخصائص اللغويّة التي تميّز كلام المسيح الذي لا يُقلَّد، وأنجز دراسة ممتازة (١٩٦٠) عن البيئة الحيويّة التي كان يعيش فيها مسيحيّو ما قبل الفصح. وأثبت أنّ كلام المسيح المنقول قد تشكّل منذ ذلك العصر، قبل أن يُثبَّتَ في الأناجيل الإزّائيّة(١٤).

واستغلّ ك. ليون - دوفور X. Léon - Dufour (١٩٦٥) موضوعات علم اليقين وعالجها معالجة شاملة بحيث تلتقي في طريق يُفضي إلى المسيح التاريخيّ(١٥).

---

(١٣) B. RIGAUX, «L'historicité de Jésus dans l'exégèse récente», *Revue biblique*, 68 (1958), pp. 481-522.

(١٤) H. SCHÜRMANN, *La tradizione dei detti di Gesù*, trad., it. Paideia, Brescia 1966.

(١٥) X. LEON-DUFOUR, *I Vangeli et la storia di Gesù*, Trad. it., Ed. Paoline, Milano, 1973.

ويرجع إلى هـ.ك. مَك آرثر H.K. Mc Arthur (١٩٥٤) الفضل في تقديم أوّل محاولة لمنهجة المعايير التي تسمح بالتوصُّل إلى المعطيات التاريخيّة المتعلّقة بالمسيح.

وتابع ن. پرّان N. Perrin (١٩٦٧) أعمال ماك آرثر في منهجة المعايير، واختصر هذه المعايير إلى ثلاثة: «التأكيد للتعدّد» و«الانقطاع» و«عدم الانقطاع»[١٦].

وأمعن ل. سيرفو L. Cerfaux (١٩٦٨) في فحص طرق النقل الشفهيّ لدى يهود عصر المسيح وأمانتها التي تربطنا بأقوال يسوع الأصيلة.

ثمّ تناول إ. دو لا پوتري I. de la Potterie (١٩٦٩) مرّة أخرى مسألة قيمة المعايير الخاصّة وتسلسلها في إطار منهجيّ، وسعى إلى تطويرها[١٧].

واعتمد ج. جيريمياس J. Jeremias على الدراسات السابقة (١٩٧١) وأبرز فعّاليّة خطّ البحث اللغويّ - الأسلوبيّ[١٨].

ويميل م.د. هوكر Hooker (١٩٦٧ و١٩٧٢) إلى إعادة الدراسة النقديّة التي تتناول بعض المواقف التي تُقبَل ببالغ السهولة، ويضيف المزيد من المرونة إلى تطبيق المعايير التي لا يمكنها دائمًا أن تَفْصُلَ فصلًا قاطعًا في قضيّة أصالة بعض مقاطع الإنجيل أو عدم أصالتها.

---

(١٦) N. PERRIN, *Rediscovering the Teaching of Jesus*, London, 1967.

(١٧) I. De La POTTERIE, «Come impostare oggi il problema del Gesù storico?» dans *La Civiltà Cattolica* 1969, q. 2885, pp. 447-463.

(١٨) J. JEREMIAS, *Teologia del NT*, vol 1, *La predicazione di Gesù*, trad. it., Paideia, Brescia 1976.

أمّا ر. لاتوريل R. Ratourelle (١٩٧٣ و١٩٧٤) فقد أغنى علم اليقين بمصطلحات دقيقة، إذ ميَّز بين المعايير الأساسيّة والمعايير الفرعيّة، وبين المعايير الداخليّة والمعايير الخارجيّة، ممّا سمح باستخدام الأدوات النقديّة بمزيد من الوضوح والغنى من أجل رسم ملامح المسيح التاريخيّ.

كما لاحظنا في ما تقدّم، ساعَد بولتمان في تطوّر قضيّة الإيمان العقلانيّ. كما أفضى نقد فويرباخ وماركس ونيتشه وفرويد وسارتر إلى تنقية الدين بالتمييز بين الإيمان العقلانيّ والإيمان المحض، وبين الدين الجامد والدين الديناميّ، وبين أقنعة الله وصوره الأكثر تناسبًا. وبذلك فإنّ الهدم الجذريّ الذي قام به بولتمان أفاد، على صعيد الأناجيل، في تمهيد الطريق وتنظيفه من المباني المتصدّعة والتي لا أساس لها، وفي اكتشاف متانة الصروح الأخرى وسلامة أساساتها.

معايير الأصالة التاريخيّة

إليكم الآن المعايير الأساسيّة التي تميّز الأصالة التاريخيّة كما دُرِسَت وطُبِّقت في نقد الأناجيل الداخليّ.

١ - معيار التأكيد المتعدّد

في الدرجة الأولى، يأتي معيار «التأكيد المتعدّد» الذي يمكن أن نُعَرِّفَهُ، مع لاتوريل، على النحو التالي: يمكن أن نعتبر المعطيات أصيلة عندما تؤكّدها عدّةُ مصادر مستقلّة تأكيدًا جازمًا.

عندما يقول امرؤٌ إنّه سمع صرخات وإطلاق نار في الساعة الثالثة ليلًا، قد يُعتقَد بأنّه كان يحلم. ولكن إن شهد عدد من

الأشخاص في منازل مختلفة، ودون سابق اتّفاقٍ بينهم، بأنّهم سمعوا الشيء نفسه، فعلى القاضي أن يعتبر هذا الكلام صحيحًا.

وفي ما يختصّ بالمعطيات المتعلّقة بالمسيح، لدينا عشرة مصادر: ١) مرقس، وهو المصدر الذي نهل منه متّى ولوقا؛ ٢) المصدر الذي أخذ منه متّى ولوقا المعطيات غير الموجودة لدى مرقس، والتي يسمّيها المفسِّرون «Quelle» (وتعني «المصدر» بالألمانيّة)؛ ٣) مصدر المعطيات الخاصّة بمتّى؛ ٤) مصدر المعطيات الخاصّة بلوقا؛ ٥) أعمال الرسل؛ ٦) إنجيل يوحنّا؛ ٧) رسائل بولس؛ ٨) رسائل بطرس؛ ٩) رسائل يوحنّا؛ ١٠) الرسالة الموجّهة إلى العبرانيّين.

إقترح هذا المعيار ف.ك. بوركيت F.C. Burkitt للمرّة الأولى، وكان ت.و. مانسُن T.W. Manon من أكثر المدافعين عنه حماسة[١٩]. وثمّة معيار شبيه بالتأكيد المتعدّد، وهو معيار «التطابق المتقاطع» («Cross Correspondence») الذي قدّمه دُودّ Dodd[٢٠]. واعترف بقيمة هذا المعيار كلٌّ من مَك آرثر Mc Arthur وبِرّان Perrin وداونينغ Downing ودو لا پوتري De la Potterie وكابا Caba ووُوكِر Walker وكالڤير Calvert ولاتُورِيل ودَلس Dulles. ويتحدّث ليون - دوفور عن «اتّفاق متباين»، ويقول إنّ «نقطة الالتقاء الأساسيّة هذه وسط نقاط الاختلاف الهامشيّة يمكن أن تعتبر حجّة بالغة الأهمّيّة»[٢١].

يعتمد هذا المعيار، كما يؤكّد غ.هـ. غرّغان G.J.

---

(١٩) T.W. MANSON, *The Teaching of Jesus*, Cambridge, 1935.

(٢٠) C.H. DODD, *Historical in the Fourth Gospel*, Cambridge, 1961.

(٢١) X. LEON-DUFOUR, *I Vangeli e la storia di Gesù*, cit.

Garraghan، على مبدأ من مبادئ علم النفس التجريبيّ يقول إنّ شخصين أو أكثر لا يمكن أن يبتكروا، كلٌّ على حدة، الحدث نفسه بتفاصيل متماثلة، كما أنّهم لا يشوّهونه بالطريقة نفسها[٢٢]. وبحسب ما لاحظه سينيوبس Seignobos، لا يمكن أن يخطئ عدد من المراقبين المستقلّين بالطريقة نفسها[٢٣].

تُطَبَّقُ هذه المحاكمة العقليّة تطبيقًا واسعًا في نقد النصوص وفي القضايا المدنيّة والجنائيّة وفي كتابة التاريخ.

ومع ذلك، يمكن لمصدر واحد أو لشاهد واحد يتمتّع بمصداقيّة عالية أن يؤدّي، في بعض الحالات، إلى ما يشبه اليقين التاريخيّ.

في ما يختصّ بالأناجيل، ينبغي أن ندرك أنّه من المؤكّد وجود عدد من الوثائق أو المصادر، وعدد من اتّجاهات التقليد الشفهيّ التي تتّخذ شكلًا لدى الجماعات المختلفة. ومن خلال نقاط الالتقاء التقليديّة هذه، نلحظ شيئًا من الاستقلاليّة الناتجة عن مختلف أوضاع الجماعات المسيحيّة الأولى، التي كانت تتميّز بظروف اجتماعيّة وعوامل ثقافيّة وحاجات رعويّة وعقليّات شديدة التنوّع، إذ يكفي أن نفكّر في الاختلاف الثقافيّ بين الجماعات المسيحيّة اليهوديّة الأصل والجماعات الهلينستيّة.

ومن الصحيح أنّ المصادر - وإن استقلّ بعضها عن بعض - تستمدّ كلّها محتوياتها من الجماعة المسيحيّة الأولى المتمثّلة في

---

(٢٢) G.H. GARRAGHAN, *A Guide in Historical Method*, Chicago, 1951, p. 308.

(٢٣) C.V. LANGLOIS-C.-SEIGNOBOS, *Introduction aux études historiques*, p. 168.

الرسل والتلاميذ الأوائل، والمتمثّلة كذلك في الشهود الذين - وإن كان يجمعهم تقدير المسيح وحبّهم إيّاه - يبدون مع ذلك كأشخاص يتمتّعون بخصوصيّات وصفات وعقليّات ووجهات نظر مختلفة كلّ الاختلاف. إذن، حتّى على صعيد الجماعة المسيحيّة الأولى، نجد تعدّديّة التأكيدات وكثرتها.

وإذ وصل معيار «التأكيد المتعدّد» إلى الجماعة المسيحيّة الأولى، تعلّق بسلسلة من الملامح التي تسمح بالوثوق بصدق الجماعة نفسها.

وتبدو هذه الجماعة بالتالي كجماعة من التلاميذ الذين يكنّون لذلك السيّد الخارج عن المألوف والمتمثّل في المسيح تقديرًا عميقًا وتبجيلًا، ويحفظون بِغَيْرَةٍ أقواله، وينقلونها كما كانت تُنْقَلُ الأقوال التقليديّة في تلك البيئة اليهوديّة التي كانت تعتمد على الثقافة الشفهيّة، والتي كان يسود فيها تعظيم الماضي وسهولة التذكّر ووسائل تيسير الحفظ في الذاكرة، ممّا يضمن المحافظة الأمينة على أقوال السيّد المسيح (إرجع إلى دراسات هـ. ريزنفِلد وب. غِهرادسُن[٢٤].

وكانت جماعة المسيحيّين الأوائل تتمثّل كذلك بجماعة الرسل الذين أعدّهم المسيح بنفسه من أجل القيام بالتبشير، أي من أجل نقل رسالته والتبشير بها بأمانة. وكان التعليم الدينيّ يعتمد عليهم بحيث «كان الجميع يواظبون على تعليم الرسل» (رسل ٢/ ٤٢). وبذلك نشرت أخبار المسيح في إطار عمليّة تبشيريّة يراقبها ويضمن أصالتَها فريقُ الشهود الأساسيّين، أي التلاميذ الاثنا عشر.

---

(٢٤) H. RIESENFELD, *The Gospel Tradition*, Oxford, 1970; B. GERHARDSSON. *Memory and Manuscript*, Lund, 1961.

وبالنتيجة فإنّ جماعة المسيحيّين الأوائل كانت تمثّل جماعة من **الشهود العيان**. ولكي ينتمي المرء إلى حلقة الرسل، يجب أن يتحقّق شرط لا بدّ منه، وهو أن يكون قد عاش لفترة طويلة إلى جانب «المعلّم». (إرجع إلى: «إنتخاب متّيًا» (رسل ١/ ٢١-٢٢)، ذلك أنّ هناك مَن كان يعايش الأحداث، ويمكنه أن يكذّبها في حال عدم صحّتها. وكان هؤلاء الشهود العيان مستعدّين للتوقيع بدمائهم على رسالة المسيح التي يبشّرون بها.

وكانت الثقة بشهادة المسيحيّين الأوائل تُدعم من خلال قناعة العديد من كنائس القرن الثاني المحلّيّة، والمتباينة في الأماكن والثقافات والحياة الكهنوتيّة، بأنّ الأناجيل تضمّ الذكريات الحقيقيّة المتعلّقة بأقوال المسيح وبالوقائع التي عاشها. وكانت الأناجيل تُقرأ ويُعلّق عليها بقدر كبير من التبجيل، من أجل الاستفادة منها في الطقوس والتعليم المسيحيّ والدفاع عن الدين. ولم تكن تُعتبر رموزًا، بل وقائع حقيقيّة حصلت فعلًا. وكان نصّها محفوظًا بأمانة بما لا يترك مجالًا لأيّ تحريف، وكان التمييز واضحًا بين تلك الأناجيل والأناجيل المحرّفة[٢٥].

٢ - معيار الانقطاع

هناك إجماع عامّ على هذا المعيار، فقد قَبِلَ به كيزمان وكونتسلمان وبورنكامّ Bornkamm وجيريمياس وپرّان ومَك آرثر وداهل وموسنر Mussner وتريلينغ وشورمان وريغو وسِيرفُو Cerfaux وليون دوفور وكابا ولنتزن دايس Lentzen - Deis ودو لا پوتري

(٢٥) N. PERRIN, *Rediscovering the Teaching of Jesus*, London, 1967; Id., *Jesus and the Language of the Kingdom*, London, 1976.

وكالڤير وزيدّا Zedda ولامْبِياسي Lambiasi وشيلّبكس Schillebeckx وغيرهم.

ويصيغ لاتوريل هذا المعيار على النحو التالي: «يمكن أن ننسب صفة الأصالة إلى أيّ عنصر من الإنجيل (لا سيّما في ما يختصّ بكلام المسيح وسلوكه) يمثِّل انقطاعًا عن مفاهيم اليهوديّة أو مفاهيم الكنيسة البدائيّة».

عندما يفكِّر الجميع بالطريقة نفسها، فلا أحد يفكِّر. هذا ما يحدث لدى جميع الأجيال البشريّة، ولا يُستثنى جيلنا من هذه القاعدة. إلَّا أنّنا نجد اليوم في الغرب عددًا من طرق التفكير تتماثل بحيث تُعَدُّ طريقة واحدة. ولم يشهد التاريخ حقًّا إلّا القليل ممَّن ابتكروا، كالمسيح، طريقة في التفكير جديدة فعلًا تتناول الواقع الجوهريّ، بل يمكن القول إنّه الوحيد الذي تميَّز بهذا الأمر في التاريخ.

لهذا السبب، فإنّ «الانقطاع» يعني الأصالة والتنوُّع والعقيدة والسلوك، وهي مفاهيم تبتعد عن مفاهيم اليهود والمسيحيّين الأوائل.

أ - **الانقطاع عن اليهوديّة** في ما يختصّ بالانقطاع بين الأناجيل واليهوديّة، كيف يمكن للرسل والتلاميذ الأوائل، الذين كانوا جميعًا من اليهود، أن يبتكروا وينشروا نهجًا سلوكيًّا وعقائد منافية تمامًا لتلك التي كانت سائدة في عصرهم ولدى أبناء وطنهم؟

كانت مسايرة المرء أفكارَ عصره وشعبه وعاداتهما أمرًا شائعًا ولا بدّ منه في العصور القديمة، ولا سيّما عند اليهود. ولو لم يكن هناك عبقريّ دينيّ لما استطاع أحد أن يبتكر ويعلِّم فكرًا جديدًا

وأصيلًا ويتّسم في الوقت نفسه بذلك القدر من الغنى والعمق. ولو لم تكن هناك شخصيّة قويّة وفذّة، لما استطاع أحد أن يجابه تقاليد متأصّلة إلى هذا الحدّ، وأن يتحدّى عداوة رؤساء دينيّين بذلك النفوذ ويُعَلِّمَ بِزَخْم عقيدةً جديدةً كلّ الجدّة، وأن يلقى لدى الشعب حظوةً متنامية، رغم الاضطهاد الذي عاناه(٢٦).

ويبيّن الباحثون، بالأمثلة المستمدّة من الإنجيل، الجوانب الكثيرة التي تظهر من خلالها أقوال المسيح ومواقفه مُخالِفَةً لمفاهيم اليهوديّة.

فيرى كيزمان أنّ عبارة «أمّا أنا فأقول لكم...» تدلّ على سلطة تتجاوز سلطة قوانين السبت والتطهير وما إلى ذلك.

ويُبرز ريغو الانقطاع عن العهد القديم، ولا سيّما في ما يختصّ بتجاوز القانون لصالح الروح وتحقيق التطلّعات المشيحيّة ومفهوم الآخرة.

ويهتمّ مَك آرثر بأقوال يسوع المتعلّقة بضرورة حمل الصليب.

ويبيّن سِيرفو الفروق بين الإنجيل والتوراة في ما يتعلّق بفنون التعبير الأدبيّ ومفهوم ملكوت الله والتجديد الروحيّ الذي تتضمّنه «موعظة الجبل».

ويتحدّث دو لا پوتري عن فضيحة استخدام يسوع كلمة «أبي» لتسمية الله، وعن دعوة التلاميذ إليه.

ويبحث ج. جيريمياس في استخدام المجهول بدلًا من ذكر اسم الله، وهذا أمر شائع على لسان يسوع (٩٦ مرّة في الأناجيل

---

(٢٦) F. LAMBIASI, *L'autenticità storica dei Vangeli*, Ed. Dehoniane, Bologna, 1978, pp. 155ss.

الإزائيّة): «أنتم **أُعطيتُم** سرَّ ملكوت الله» (مر ٤/ ١١). «فاطلبوا أوّلًا ملكوته وبِرَّه **تُزادوا** هذا كلَّه» (متّى ٦/ ٣٣). كما يدرس التوازي الطِّباقي الذي يضمّ تفخيمًا في جزئه الثاني، وهو كذلك من مميِّزات كلام المسيح (مثال: «أحبّوا أعداءَكم **وصَلُّوا من أجل مضطَهِديكم**» (متّى ٥/ ٤٤).

في ما يختصّ بمحتوى رسالة المسيح، «نحن أمام شيء جديد ومبتكر يتجاوز حدود اليهوديّة. نجد هنا مَن كان يسوع التاريخ، ذلك الإنسان الذي كان قادرًا على مخاطبة الله كأبيه، ويجعل العشّارين والخطأة يشاركون في ملكوت الله، إذ يسمح لهم بترديد كلمة «أبّا» (يا أبي)[٢٧].

خلافًا للقانون السائد، لم يكن المسيح يتصرّف بحسب عقليّة الفرّيسيّين الذين كانوا يهتمّون بالتفاصيل وبالمظاهر الخارجيّة، بل كان أرقى من ذلك القانون وقادرًا على فهم روحه. وكان يطبّقه ويتجاوزه ويبشّر بقانون جديد، الأمر الذي لم يتجرّأ أن يفعله أيٌّ من حاخامات اليهود. لذلك تختلف رؤية المسيح لملكوت الله اختلافًا جذريًّا عن رؤية عصره، إذ تجتمع فيها عظمة مملكة داود المنتظرة، والتواضع المتمثّل في التبشير لدى الفقراء، وتمجيد ابن الله وتحمّسه لخدمة الربّ[٢٨].

ب - إنقطاع عن مصطلحات الكنيسة البدائيّة: في تاريخ الفكر واللسان، ما مِنْ شيء يدوم سوى التغيير المستمرّ، إذ يصنع

---

(٢٧) J. JEREMIAS, *Il messagio centrale del Nuovo Testamento*, Paideia, Brescia 1968, p. 31.

(٢٨) C.M. MARTINI, *Il messagio della Salvezza*, IV, Elle Di Ci, Leumann, Torino, 1968, pp. 143ss.

جيلٌ فقّاعات من الصابون، ثمّ يأتي جيل جديد ليفقعها.
ويمكن القول إنّ هذا ينطبق كذلك على اللاهوت، حتّى ولو كانت الفقّاعات المفقوعة بإذن من المعهد المأذون مجرَّدَ أَغْلِفَةٍ لمادّة غير فانية.

وبعد موت المسيح وقيامته بعشرين سنة، وكذلك لاحقًا، تحوّلت عقيدته، بفضل بولس والكنائس، إلى لاهوت حقيقيّ بقي أمينًا على جوهر العقيدة، إلّا أنّه ابتكر كلمات وعبارات جديدة، وسعى إلى تفسير أقوال المسيح الغامضة والتوفيق بين الجمل التي تبدو متناقضة في ظاهرها. وإذ حاول توضيح معنى هذه الجمل، كان يميل إلى إلغاء العبارات التي من شأنها أن تثير حفيظة اليهود والأوثان الذين كانوا على وشك التنصُّر، أو حتّى المعتمدين منهم، أو أن تطرح مشكلات معهم. فضلًا عن ذلك، ألغى المعلِّمون الذين خلفوا الرسل العبارات المتعلِّقة بالبيئة والعقليّة السائدتين في عصر المسيح ونسوها، إذ أصبحت غير مفهومة.

ولو كانت الأناجيل قد نَسبت إلى المسيح أقوالًا وأحداثًا اختلقتها أو حرَّفتها الكنائس البدائيّة دون رادع، لَقَلَّصَت وهُذِّبَت جميع تلك العبارات الفظّة والغامضة والتناقضات الظاهرة. إنّما، على العكس، نجد هذه الظواهر في الأناجيل، ولم يَتِمَّ تحديد انتمائها إلى العالم الثقافيّ المنتمي إلى فلسطين ذلك العصر أو إلى شخصيّة المسيح الأصيلة إلّا بعد أبحاث طويلة قام بها عدد من المتخصّصين.

ويُبرز المؤلِّفون حالات الغموض التي تضمّها الأناجيل والتي حُفِظَت ونُقِلَت على الرغم من أنّها كانت تسبِّب مشكلات للكنائس البدائيّة.

ويبدو أنّ معموديّة المسيح تجعله في عداد الخطأة: فهل من الممكن أن تعتبره الكنيسة البدائيّة «ربًّا» وتختلق في الوقت نفسه مشهدًا يتباين في الظاهر كلّ التباين مع إيمانها؟ وينطبق هذا الكلام كذلك على التجارب الثلاث والاحتضار والموت على الصليب، الذي يمثّل في نظر اليهود والأوثان عائقًا يكاد يستحيل تجاوزه ويحول دون النظر إلى يسوع على أنّه المشيح المنتظر وابن الله[٢٩]. والأمر الذي أُعطي للرسل بعدم التبشير لدى السامريّين والأوثان لم يكن يتناسب مع وضع الكنيسة البدائيّة التي بدأت تنفتح في تلك المرحلة على جميع الشعوب.

في الأناجيل، يدعو المسيح تلاميذه إلى اتّباعه. أمّا في التقليد اليهوديّ، فكان التلاميذ هم الذين يختارون معلّمهم. وفي الكنيسة البدائيّة، كان جميع المؤمنين بيسوع يُدعَوْن تلاميذ.

كما أنّ مقاطع الأناجيل التي يُبْرَزُ فيها عدم تَفَهُّمِ الرسل ليسوع وعيوبهم وعدم أمانتهم له تتعارض مع وضع الكنيسة البدائيّة التي كانت تُبَجِّلُ الرسل كلّ التبجيل.

وهناك عدّة حالات غموض في كلام المسيح لم تُحْذَف حتّى بعد أن فهمتها الكنيسة. ونجد أمثلة عليها في: متّى ١١/١١ ومر ٩/ ٣١ و١٤/٥٨ ولو ١٣/٣٢ ومر ٤/١١.

وثمّة عبارات مثل «ملكوت الله» و«ابن الإنسان» تتكرّر في الأناجيل باستمرار. أمّا في الكنيسة البدائيّة فكان يُعَبَّرُ عن المفاهيم نفسها بكلمات أخرى شائعة.

---

(٢٩) W. TRILLING, *Jésus devant l'histoire*, Paris, 1968; S. ZEDDA, *I Vangeli e la critica oggi*, Ed. Trevigiana, Treviso, 1970.

٣ - معيار عدم الانقطاع عن الأعراف الخاصّة بعصر المسيح

إن تحدَّث أحد الكتّاب بكفاءة عن الملاحة، فإمّا هو بحّار أو أنّه قرأ أو سمع عن هذا المجال. ومن الحجج التي تؤكّد أصالة الإنجيليّين تلك التي تقوم على مطابقة معطيات الأناجيل لما كان في بيئة عصر المسيح. منذ عشرين قرنًا، لم يكن هناك كما في يومنا هذا كتب عن أعراف الماضي. وكان من المستحيل أن يُكْتَبَ كتابٌ تاريخيّ مزيَّف في العصر الذي يتحدَّث عنه. وكما لاحظ داهل وليون دوفور وتريلينغ وزيدًا وشورمان وغيرهم، عندما قارنوا الأناجيل بكتابات أخرى من القرن الأوّل، وبمكتشفات قُمران، وبآثارات ذلك العصر، نلاحظ أنّ هذه الأناجيل تحافظ على لون عصر المسيح وأعرافه وصروحه، ذلك العصر الذي آل إلى الزوال فجأة وكليًّا بعد دمار أورشليم عام ٧٠.

ونجد هذا التواصل على صعيد الوضع التاريخيّ والسياسيّ من خلال الشخصيّات المذكورة في مصادر أخرى (كويرينيوس Quirinius وهيرودُس أنطيپاس وقيافا Caïphe وپيلاطُس)، ومن خلال الأحداث التي كانوا أطرافًا فيها.

وتراعي الأناجيل بأمانةٍ المواقع الجغرافيَّة التي تمثِّل المدن والقرى والجبال والأنهار والمباني، إلخ... وقد قُدِّم الدليل على وجود هذه المواقع من خلال الحفريّات الأثريّة الكثيرة التي أجريت في فلسطين في القرن الماضي.

وكما بيّنت دراسات جيريمياس وسيرفو، ثمّة تواصل تامّ بين الخلفيّة الساميّة وطرق الكلام الآراميّة التي تتّسم بها الأناجيل والإطار اللغويّ الذي يمثّل عصر المسيح[٣٠]. وحتّى العادات

---

(٣٠) =L. CERFAUX, *Gesù all' origine della tradizione*, Ed. Paoline,

والتقاليد والمساكن والملابس وطرق العمل فهي مطابقة لما كان سائدًا في فلسطين ذلك العصر.

وأخيرًا، حتّى الوضع الدينيّ الذي يمكن تصوّره من خلال الأناجيل يطابق ما هو مذكور في كتابات ذلك العصر الأخرى وفي وثائق قُمران: المنافسات بين الفرّيسيّين والصدّوقيّين، والخلافات الحاخاميّة، وانتظار الآخرة ومجيء المشيح المنتظر، وتركيز الاهتمام على السبت ومكان العبادة.

لهذا السبب فإنّ الأناجيل كالمسنّنات المتوافقة مع آليّة العقود الثلاثة الأولى من القرن الأوّل وتعمل على تشغيلها. ويبلغ هذا التوافق حدًّا لا يمكن معه أن تكون هذه المسنّنات جزءًا من مجموعة أخرى.

٤ - التوافق مع العقيدة الخاصّة بالمسيح التي تمَّ إثبات أصالتها من خلال المعايير الأخرى.

ويرى المتخصّصون أنّه، بعد أن قُدِّمَ الدليل، من خلال المعايير المستعرَضة أعلاه، على أصالة بعض أقوال المسيح، يمكن أن نقبل بأقوال أخرى منسجمة معها.

ك.أ. كارلسُن C.E. Carlson وكابا ولاتوريل ودو لابوتري هم الذين عمّقوا وطوّروا، بوجه خاصّ، التوافق مع الخصائص الأساسيّة التي اتّسمت بها رسالة المسيح، وأهمّها التبشير بوجود ملكوت الله («جاءكم ملكوت الله») وطلب الهداية(٣١).

Roma, 1972; =

J. JEREMIAS, *Il problema di Gesù storico*. Paideia, Brescia, 1973.

(٣١) J. CABA, *De los Evangelios al Jesus historico*, Madrid 1970, trad. it: *Dai Vangeli al Gesù storico*, Ed. Paoline, Roma, 1974.

٥ - أسلوب المسيح

أ -**الأسلوب اللغويّ**: لعلّ الذي ينقل عقيدة أحد العظماء أو أعماله يضيف بعض التفاصيل من عنده، حتّى وإن لم يشعر بذلك. ولكن إن كان الأمر يتعلّق بعظيم حقيقيّ، فإنّ الإضافات لا تكون بعيدة عن الأصل.

أناط ج. جيريمياس اسمه بدرس أسلوب المسيح اللغويّ، إذ إنه درس الأصل الآراميّ وخصائص أقوال يسوع بعناية ليصل إلى النتيجة التي مفادها أنّه حتّى وإن لم يُثبت الدرس الأسلوبيّ اللغويّ أصالة كلّ عبارة من العبارات، فإنّه يُمَكّننا مع ذلك من إعادة رسم الخطوط التي تميّز رسالته وطريقته في عرضها.

على سبيل المثال، فإنّ الآية رقم ١٦/١٩ من إنجيل متّى التي ورد فيها: «وسأعطيك مفاتيح ملكوت السموات. فما ربطته في الأرض رُبِطَ في السموات. وما حَلَّلتَه في الأرض حُلَّ في السموات» تمثّل ظواهر أسلوبيّة خاصّة باللغات السامية، ومنها استبدال اسم الله بعبارة «السموات» واستخدام الفعل المجهول الذي يميّز أسلوب يسوع: «رُبِطَ» و«حُلَّ». التي تضمّ أربع تشديدات نبريّة، كما يظهر من خلال النصّ الآراميّ الذي ذكره جيريمياس، وهنا ترجمته إلى العربيّة:

سأعطيك	مفاتيح	ملكوت	السماوات
فما ربطته	في الأرض	رُبط	في السماوات
وما حللته	في الأرض	حُلّ	في السماوات

ب -**أسلوب المسيح في الحياة**: يُقصَدُ بهذه العبارة سلوك المسيح المميّز وطريقته الخاصّة في التعبير، ولا تُقصَدُ هنا اللغة

بالمعنى الفقهيّ الأدبيّ، بل طريقته في التعبير عن تجربته الداخليّة وفي الكشف عن شخصيّته.

درس هـ. شورمان، من وجهة النظر هذه، الطريقة الفريدة والإعجازيّة التي اتّسم بها كلام المسيح الذي ينمّ عن وعي ذاتيّ متميّز، ولهجة حاسمة قاطعة كلهجة من خُوّل بالإعلان عن قرب حلول الآخرة.

وإذ يستخدم المسيح عبارات مثل «قيلَ... أمّا أنا فأقول لكم» و«أمّا أنا...» «فأقوالي...»، مع العبارات التي تدلّ على الزمان: «حتّى الآن» و«الآن» و«من الآن فصاعدًا»، يدشّن عصرًا جديدًا في ملكوت الله، وهو عصر الآخرة، الذي مهّدَ له الأنبياء، ويظهر هو نفسه كمَحَطّ أنظار العهد القديم(٣٢).

«وفي ما يختصّ بسلوكه المميَّز، يشير تريلينغ إلى محبّته الدائمة للخاطئين التائبين، وقسوته إزاء التبرير الذاتيّ الذي يقوم به مَن يرى نفسه قدّيسًا، وسخطه على المرائين، وتعاطفه الحنون مع كلّ المعانين، وإرجاعه كلّ شيء إلى إرادة الله ومحبّته، وهو الذي يُرى دائمًا على أنّه أب للبشر»(٣٣).

ويلحظ لنتزن - دايس ودو لابوتري ولاتوريل في عجائب المسيح أسلوبًا مميَّزًا قوامه التكتّم والتعاطف والتذكير بالشفاء الروحيّ والخلاص. كما تتبيَّن لهم نزاهة يسوع (فهو لا يقوم بالمعجزات لمصلحة شخصيّة) والهدف التعليميّ الذي تنطوي عليه

---

(٣٢) R. SCHNACKENBURG, A. VÖGTLE, H. SCHÜRMANN, F. MUSSNER, H. FRIES, H. SCHLIER, *Le message de Jésus et l'interprétation moderne*, Paris, 1969.

(٣٣) W. TRILLING, *Fragen zur Geschichtlickeit*, Düsseldorf, 1966.

المعجزات نفسها، إذ إنّها تمثّل إشارات تُنبِئُ بالخلاص الروحيّ. ولهذا السبب فهي ذات صلة دائمة بالإيمان(٣٤).

كما يكتشف لاتوريل مقوّمات متنوّعة في سلوك المسيح:

الشموليّة: فالمسيح لا يختار بين الأمراض بحيث ينتقي الحالات الأسهل شفاءً ويرفض الحالات الأصعب منها.

دماثة الخلق: فهو يقوم بالمعجزات ليساعد، لا ليعاقب.

البساطة: فهو لا يستعمل أيّة عبارات سحريّة ولا أيّة طريقة تقوم على الإيحاء أو التنويم المغناطيسيّ، بل يكتفي بكلمة أو بحركة بسيطة.

اللحظيّة: فالشفاء يحدث في لحظة واحدة.

الجوّ الدينيّ: إذ تحدث المعجزة في جوٍّ من الصلاة والإيمان، وذلك من أجل تثبيت التعاليم المتعلّقة بالآب السماويّ.

التكتّم: إذ يرفض المسيح الاستعراضات التي تلفت الأنظار ويُرْجِعُ كلَّ مجدٍ إلى الآب السماويّ.

تتجلّى هذه المميّزات خاصَّةً من خلال المقارنة مع معجزات العصور القديمة اليونانيّة ومعجزات الأناجيل المزيَّفة، وتتميَّز بوضوح عن الظواهر شبه العاديّة التي يقوم بها الشُّفاةُ والسَّحَرَةُ. إنّ أسلوب معجزات المسيح فريد في نوعه.

ويُستخلَص أسلوب المسيح من مقاطع الإنجيل التي تمّ الاعتراف بأصالتها من خلال المعايير الثلاثة: التأكيد المتعدّد،

---

(٣٤) R. LATOURELLE, «Authenticité historique des miracles de Jésus. Essai de critériologie», *Gregorianum* 54 (1973), pp. 225-262.

والانقطاع، وعدم الانقطاع عن الأعراف. وبعد أن عرفنا أسلوب المسيح، لن نقع في حلقة مفرغة إن اعتمدنا عليه للتحقّق من أصالة مقطع محدّد أو قول من أقوال يسوع.

٦ - معايير الجماعة

تُجمَعُ تحت هذه التسمية الحجج التي ترجع إلى المسيح التاريخيّ من خلال درس الجماعة المسيحيّة الأوّليّة كبيئة تعتمد على التقليد الشفهيّ.

سُئِلَتْ زوجة أينشتاين هل هي تفهم نظريّة النسبيّة، فأجابت قائلة: «لا، ولكنّي أعرف زوجي وأعلم أنّه يمكن الثقة به». أمرٌ شبيه جرى للجماعة المسيحيّة الأولى، وكذلك للأجيال التالية. فكانت تحفظ وتنقل أقوال المسيح وأفعاله. ولم تكن تغيِّر فيها ما لا تستطيع تطبيقه أو ما لا تفهمه أو ما كان منافيًا لآرائها، إذ كانت تلك الجماعة تعتقد بأنّها تستطيع أن تثق بالمسيح.

إنّ مَن درس بيئة التقليد الشفهيّ درسًا وافيًا هم سُوَيدِيُّو مدرسة أوپسالا Uppsala. فقد عرض هـ. ريزنفلد، وهو أستاذ في تلك المدرسة، في مؤتمر أوكسفورد حول الأناجيل (١٩٥٩) بيانًا عن بدايات التقليد الإنجيليّ. وعلى حدِّ قوله، يمكن أن نقبل بمقولة بولتمان في تحوير كلام المسيح، الذي قامت به الجماعة المسيحيّة الأولى لأغراض تعليميّة. ويبدو جليًّا أنّ المسيحيّين الأوائل نقلوا كلام المسيح على أنّه «تقليد مقدَّس». ويكمن الدليل على ذلك في مصطلحات العهد الجديد نفسها، التي تماثل مصطلحات التقليد اليهوديّ، إذ نجد في الطرفين كلمات مثل «تقليد» (paralambánein) و«حِفْظ» (paradídomi) و«نَقْل الموروث» (parádosis).

ونلحظ كذلك تشابهًا وثيقًا بين جماعة التلاميذ الاثني عشر والمدرسة الحاخاميّة. ففي هذه المدرسة، كان نقل الرسالة يتمّ تحت المراقبة الشديدة التي كان يقوم بها المعلِّم (أي الحاخام)، الذي كان يستعمل تقنيّات في الحفظ كفيلة بالمحافظة الدقيقة، والحرفيّة غالبًا، على العقيدة المنقولة. وكانت علاقة المسيح بتلاميذه شبيهة بعلاقة حاخامات اليهود بتلاميذهم، ونلحظ هذا في مواقف يسوع المعلِّم وفي صيغ أقواله السهلة الحفظ، ومنها: الحِكَم والتشبيهات والطِّباق والمفارقات، كما نلحظه في الحفاظ على بعض العبارات الآراميّة، مثل «طليتا قوم!» (مر ٥/ ٤١) التي لم تبقَ إلّا لأنّ المسيح قد لفظها بنفسه(٣٥).

ويقدِّم موقف جماعة التلاميذ بعد قيامة المسيح تأكيدًا جديدًا على المحافظة على كلامه دون أيّ تغيير. فقد اعتبروه «كيريوس» kyrios، وتعني الكلمة «الله» في الترجمة اليونانيّة، أي أنّهم اعتبروا كلامه مقدَّسًا ومطلقًا ككلام يهوه (الله). وفضلًا عن ذلك، كان الرسل يقودون جماعة المسيحيّين بسلطة، إذ كانت مهمّتهم الرئيسيّة كمهمّة «الوزراء» (= خُدّام كلمة الله (رسل ٦/ ٢))، أي خُدّام بشرى يسوع التي ينبغي لهم أن يحافظوا عليها وأن ينقلوها بأمانة بإرادته (لو ١/ ٢١ ومر ١٦/ ١٥-١٨).

كان تعليم الرسل يتمّ في وسط العبادة (رسل ٢/ ٤٢)، كما كانت أقوال المسيح وأعماله تُحفظ وتُنقل في إطار تقليد مقدَّس ورسميّ، إذ كانت تُعتبر منذ السنوات الأولى مساويةً لسائر أجزاء الكتاب المقدَّس وعنصرًا جوهريًّا من عناصر العهد الجديد.

---

(٣٥) H. RIESENFELD, *The Gospel Tradition*, Oxford 1970.

وتمّ تأكيد بيان ريزنفلد مجدّدًا على من خلال الدراسات المفصّلة التي قام بها ب. ڠهراردسُن (أوپسالا ١٩٦١) على التقنيّات الحاخاميّة في النقل الشفهيّ باستخدام الصيغ الثابتة وتكرار الكلمات التذكيريّة. وبرهن الباحث على أنّ المسيح قد استخدم هذه التقنيّات نفسها. كما حلّل مراعاة الرسل التقاليدَ، ولا سيّما بولس (١ قور ١٥/ ٣ وما يليها و٧/ ١٠ و٩/ ١٤ و١١/ ٢ وما يليها)، تلك المراعاة التي نجدها كذلك لاحقًا لدى آباء الكنيسة مثل پاپياس Papias (٧٠-١٢٥) وإيريناوُس (١٣٠-٢٠٢)، اللَّذَين يعتبران الأناجيل «تقليدًا مقدّسًا».

وأخيرًا، حاول شورمان، مستخدِمًا طريقة بولتمان، أن يعرف هل كان وضع مسيحيّي ما قبل الفصح المعيشيّ الداخليّ يسمح لنا بأن نعتبر التقليد الذي تمّت المحافظة عليه في الأناجيل أصيلًا. وكشف عندهم وضعين متميّزين: الأوّل داخليّ، وينمّ عن تقدير الرسل العميق ليسوع، والثاني خارجيّ، وهو ناتج عن التحضير للتبشير المستقبليّ، ذلك التبشير الذي باشره المسيح نفسه. ويُثبت هذا أنّ تقليد أقوال المسيح تشكّل قبل قيامته(٣٦).

إذن، تمثّل مساهمة شورمان خطوة إلى الأمام بالقياس إلى المدرسة الإسكندينافيّة. إنّ ما يسمح لنا بأن نرى كيف كوّنت جماعة مسيحيّي ما قبل الفصح الجوّ الأوّل الملائم لحفظ أقوال المسيح وأعماله وتفسيرها ونقلها بأمانة ليس النقد الخارجيّ (الذي يضمّ ما يشبه الطرق الحاخاميّة) فحسب، بل النقد الداخليّ كذلك وحتّى «تاريخ الصِيَغ» Form-geschichte.

---

(٣٦) H. SCHÜRMANN, *La tradizione dei detti di Gesù*, Paideia, Brescia, 1966.

٧ - المعيار التحريريّ

«أقسمْ بأن تقول الحقّ، كلَّ الحقّ، ولا شيءَ غير الحقّ». هذا قَسَمٌ لا يمكن أن يفوهَ به أيُّ مؤرِّخ. ولا يمثِّل الإنجيليّون استثناءً لهذه القاعدة، فلا بُدَّ في نظرهم من إضافة تعليق أو التركيز على نقطة من أجل إفهام الوقائع وتكييفها بما يتلاءم مع القرّاء.

بفضل التحليلات التفصيليّة التي قام بها اختصاصيّو تاريخ تحرير الأناجيل خلال السنين الماضية الخمس والعشرين، تمكّنّا من أن نكتشف في المادّة الإنجيليّة ما ينتمي إلى النشاط الكتابيّ الذي يميِّز كلًّا من محرّري الأناجيل: فكلّ منهم يضفي على الحدث نفسه أبعادًا مختلفة، ومنهم مَن يولي هذا التفصيل أو ذاك المزيد من الأهمِّيّة لإبراز جانب من جوانب العقيدة ما يتناسب وحاجات الجماعة التي يتوجّه إليها. فإذا ما استبعدنا الإضافات الطفيفة والحشو التوكيديّ الخاصّ بكلّ من محرّري الأناجيل دون غيره، تمكّنّا - كما لاحظ مَك آرثر ودُلورم ولاتوريل - من الوصول إلى أقدم طبقة من الكلام المنقول.

٨ - قابليّة الفهم الداخليّ والشرح الضروريّ

نقصد بقابليّة الفهم الداخليّ الانسجام الكامل الذي يتميَّز به حدث أو تعليم من تعاليم الإنجيل مع سياقه القريب ومع كامل الإنجيل، وترابطه الوثيق مع جميع العناصر التي تؤلِّفه.

يبيِّن لاتوريل تطبيق هذا المعيار من خلال سرد إقامة لعازر من بين الأموات. فهذا الحدث ينسجم انسجامًا جيِّدًا مع سياق الأناجيل العامّ، حيث يتمّ وصف عدد من حوادث بعث الموتى التي قام بها المسيح، والتي تروي كحدث رئيسيّ قيامته هو من بين

الأموات، كما ينسجم مع سياق إنجيل يوحنّا، ولا سيّما مع تعاليم المسيح المتعلّقة بقيامة مَن يؤمن به، والمذكورة في الفصل الخامس من إنجيل يوحنّا.

تجعلنا إقامة لعازر من بين الأموات نفهم ثلاثة أحداث ترويها الأناجيل جميعها: أوّلها قرار السلطات اليهوديّة بالحكم على المسيح بالإعدام، إذ تنامت شعبيّته كثيرًا بعد هذا البعث. وثانيها عمليّة المسح التي تمّت على يد مريم، أخت لعازر، كعرفان جميل منها للمسيح. وثالثها الضجّة التي أحدثها دخول المسيح إلى القدس وتهافت الناس عليه بعد أن سمعوا بمعجزته الخارقة(٣٧).

حصيلة نقد الأناجيل الداخليّ

تمكّننا أعمال تاريخ تحرير الأناجيل من معرفة ما قدّمه كلّ من الإنجيليّين. فحرّيّة التفسير والتحرير عند مؤلّفي الأناجيل حقيقي، إلّا أنّه قابل للضبط، إذ يبدو معتدلًا ومتحمّسًا ودائمًا أمينًا في جوهره على التقاليد الموروثة(٣٨).

يرجع إلى تاريخ تحرير الأناجيل الفضل في درس البيئة التي تشكّل فيها هذا التقليد، ووضع طريقة محكمة لتحليل النصوص أدبيًّا ووسيلة للوصول إلى الأوضاع المعيشيّة التي شهدت ولادة هذه النصوص: كالصلاة والطقوس ونشاط الرسل والتعليم الدينيّ وصعوبات التلاقي بين اليهوديّة والوثنيّة وتطوّر الجماعات في أوساط دينيّة وثقافيّة مختلفة. لهذا السبب، يعدّ تفسير الأناجيل

---

(٣٧) R. LATOURELLE, *Accès à Jésus par les Evangiles*, Desclée & Cie, Tournai - Edit. Bellarmin, Montréal, 1981.

(٣٨) G. SEGALLA, *Panorama storico del N.T.*, Queriniana, Brescia, 1984.

الحالي قادرًا على تحديد السياق الأصليّ الذي يندرج فيه العديد من مقاطع الإنجيل، وعلى الاعتراف بالتفسيرات التي تناولت بها الكنيسة البدائيّة الأحداث المتعلّقة بالمسيح.

وبعد الانتهاء من التحقّق، نستنتج أنّ تيّار الأمانة يسري في جميع أجزاء التقليد المسيحيّ. فابتداءً من المصدر الأوّل، أي المسيح، وانتهاءً بالمرحلة الأخيرة من تحرير الأناجيل، نلحظ اهتمامًا بالغًا بنقل أقوالِ مَنْ يُعتبر المعلِّم الوحيد وأعمالِه نقلًا أمينًا.

وفي ضوء الدراسات التي أقيمت في السنوات الأخيرة، تتمّ البرهنة على هذه الأمانة على عدّة صُعُدٍ: فعلى الصعيد الأدبيّ، هناك أعمال «نقد التحرير» و«نقد الصِيَغ». وعلى الصعيد التاريخيّ، هناك الأعمال الحديثة المنتمية إلى المعياريّة التاريخيّة المطبّقة على الأناجيل. وعلى الصعيد الفلسفيّ، هناك الدراسات التي تتناول طبيعة الأنماط اللغويّة ورموزها. وعلى صعيد علم الاجتماع، هناك التحليلات التي تتناول جماعة ما قبل الفصح وبيئة المسيحيّين الأوائل المعيشيّة من خلال علم الدلالة. وتفضي جميع هذه الدراسات التي تقوم من أكثر وجهات النظر التخصُّصيّة اختلافًا إلى النتيجة القائلة بأنّ مقاربة المسيح التاريخيّ من خلال الأناجيل ممكنة التحقيق تمامًا[٣٩].

قيامة المسيح والطابع التاريخيّ

لم يقم المسيح بالمعجزات من أجل استعراض مقدراته، بل أرادها علامات تدلّ على تحقّق رسالته. فكما كان المرضى يُشفون

---

(٣٩) R. FABRIS, *Gesù di Nazaret, storia e interpretazione*, Citadella, Assisi, 1983.

والموتى يُبعثون، كذلك كان ولا يزال باستطاعة البشريّة أن تتعلّق باليد التي تُمدّ إليها لتتخلّص من الآلام الميؤوس منها وتجد معنى الحياة.

ومن بين المعجزات العلامات، خصّ المسيح معجزةً بالأهمّيّة الكبرى، إذ أراد أن يجعل من قيامته من بين الأموات تمهيدًا للانتصار على الموت، ذلك الانتصار الذي كان يقدِّمه لجميع الذين يتبعون طريق الله (١ قور ١٥ و١ تس ٤/ ١٣ وما يليها: إلخ).

ولم يأتِ هذا الحدث كضربة صاعقة في سماء صافية، فقد تنبّأ المسيح عدّة مرّات بموته وقيامته وبمغزى كلّ منهما (متّى ١٢/ ٤٠ و١٢/ ٢١ و١٧/ ٢٢ و٢٠/ ٢٢ ومر ٨/ ٣١ و٩/ ٣١ و١٠/ ٣٤ ولو ١١/ ٣٠ و١٨/ ٣٢-٣٣ ويو ٢/ ١٩ وإلخ).

تظهر قيامة المسيح في شهادة الرسل وتبشير تلاميذ القرون الأولى وما يليها عنصرًا جوهريًّا من عناصر الإيمان بالمسيح. فلا يذكرها هؤلاء كحدث هامشيّ، بل يعتبرونها محور البشارة وحجر الزاوية فيها ومفتاحها، ويضحّون بدمائهم وحياتهم في سبيل إثبات حقيقتها.

فضلًا عمّا ترويه الأناجيل الأربعة، تؤكّد جميع وثائق العهد الجديد، ابتداءً من القرن الأوّل، قيامة المسيح كحدث واقعيّ، غير رمزيّ، كان التلاميذ شهودًا عليه. شكّكوا به في البداية، ثمّ شعروا بالرهبة منه، ثمّ اقتنعوا به، وبلغ عددهم خلال أربعين يومًا خمسمائة تلميذ (١ قور ١٥/ ١١).

وأصبح عيد القيامة منذ القرن الأوّل العيد الرئيسيّ في السنة المسيحيّة. والأهمّ من ذلك أنّ اليوم الأسبوعيّ المخصّص للعبادة

تحوَّل من السبت إلى اليوم الذي أُطلق عليه اسم «الأحد»، وذلك بسبب قيامة المسيح تحديدًا.

لعلّ المحبّة العميقة تجعل المرء يتخيَّل، في لحظة من اللحظات، أنّ الشخص الذي يحبّه حيّ. ولكن إن لم يكن المتخيِّل مريضًا نفسيًّا، فسوف يدرك أنّه واهم، أو على الأقلّ يشكّ في ذلك. بيد أنّ الحبّ لا يملك من القوّة الواهمة ما يجعل عددًا من الرجال يؤمنون بما لا وجود له، كلّ حياتهم، وبلا أدنى قدر من الشكّ، وهم رجال إيجابيّون ومتّزنون يرون ويسمعون جميعًا الشيء نفسه بالتفاصيل نفسها، ويُبدون بعد مضيّ فترة قصيرة ما يكفي من الطاقة والذكاء ليواجهوا التيّار ويغيِّروا اتّجاهه.

وحتّى عندما تولِّد قوّة المحبّة بعض التهيّؤات، فإنّها تحتاج بالضرورة إلى أن تُدعم بالأمل. ولم يكن التلاميذ يأملون شيئًا من قيامة المسيح. وما كانوا يعتمدون عليها، بل لم يصدّقوها في البداية.

ولم تكن الآثار الملموسة أحلامًا، فالقبر كان خاليًا على الرغم من وجود الحرّاس وحرص الأعداء على حفظ الجثّة كدليل على أنّها لم تُبعث حيّة. وجعل المسيح التلاميذ يلمسونه، وأكل معهم، وجعلهم يصطادون صيدًا عجيبًا.

وكان أهمّ تأثير ملموس تُحدثه القيامة يتمثّل في الروح الجديدة التي أخذت تحيي الرسل باستمرار. فبعد موت المسيح، اعتبر هؤلاء أنّ كلّ شيء قد انتهى، وتلاشت آمالهم كالدخان. وتوقّعوا أن يضعف موقفهم ضعفًا مُزريًا في صراعهم ضدّ السلطات اليهوديّة والرومانيّة.

بيد أنّ ما حدث لم يكن يصدَّق، بل كان مستحيلًا ومخالفًا لكلّ قوانين التاريخ. فعقيدة المسيح، التي تلقّت الضربة القاضية بموت مؤسّسها، بدأت بالانتشار مع أنّه كان يصعب الإيمان بها وممارستها. وعلى الرغم من أنّ معتنقيها كانوا من صيّادي السمك المساكين، الذين يفتقرون إلى المال والنفوذ والثقافة، فقد غزت شعوبًا بأكملها دون اللجوء إلى السلاح.

وبعد فاجعة وفاة المعلّم بعدّة أيّام، بدلًا من أن يسود اليأس، تأجّجت روح جديدة من الفرح والثقة وعمّت جميع التلاميذ. ولم تكن تلك النار عابرة، إذ تغلّبت على الأمبراطوريّة الرومانيّة وفاقت سائر الأديان - التي كانت تمثّل أسرارًا في قمّة ازدهارها - وأفضت إلى نشوء أكبر حركة دينيّة عرفها تاريخ البشريّة[٤٠].

تطوّر النقد بعد بولتمان

كان النقد في السابق مبنيًا على الشكّ، أمّا اليوم فهو يزداد اقترابًا من مواقف اليقين إزاء الأناجيل كمصدر لمعرفة المسيح. وأفضل ما يمثّل تغيّر الموقف هذا هو ظاهرة الاهتمام البالغ بيسوع وبحياته وشخصيّته. ويكمن الدليل على ذلك في الأعمال التي صدرت في السنوات الأخيرة بقلم ج. بورنكام G. Bornkam وأ. كولمان O. Culmann وف. غروندمان W. Grundmann ون. پرّان ود. فلوسر D. Flusser ور. آرون R. Aron ول.

---

(٤٠) Cf P. ZARRELLA, *La risurrezione di Gesù*, Citadella, Assisi, 1973; PH. SEIDENSTICHER, *La risurrezione di Gesù nel messaggio degli evangelisti*, Paideia, Brescia, 1980; X. LEON-DUFOUR, *Risurrezione di Gesù e messagio pasquale*, Ed. Paoline, Roma, 1977; A. CONTRI, *Gesù Gristo Figlio di Dio e Salvatore*, Elle Di Ci, Leumann (Torino), 1984; E. Charpentier, *Cristo è risuscitato*, Gribaudi, Torino 1978.

سابوران L. Sabourin وج. غييه G. Guillet وغيرهم.

كان المفهوم الوضعيّ عن التاريخ قد أظهر الأناجيل وتفسيرها الأحداث على أنّها تشويه للحقيقة. أمّا اليوم، فإنّ أعمال ب.إ. مارو B.I. Marrou ور. آرون وهـ.ج. غادامير H.G. Gadamer وپ. ريكور P. Ricoeur عن معنى التاريخ وبُعده الحقيقيّ أثبتت أنّ الإنجيليّين، إذ هضموا باحترام وثقة بالغَين عقيدة المسيح ونواياه من خلال المعلومات الصادرة عن التلاميذ الاثني عشر، وكيّفوا هذه العقيدة مع حاجات جماعاتهم الروحيّة، حقّقوا غرض التاريخ على نحو أعمق وبيّنوا لنا وجه المسيح الحقيقيّ من وجهات نظر كثيرة تفوق ما كان يمكن فعله من خلال نقل كلامه وتفاصيل حياته الدقيقة بأمانة مادّيّة وحرفيّة عمياء. وطبّق الإنجيليّون تعاليم المسيح القائمة على الشهادة الحيّة. فبعد أن هضم التلاميذ العقيدة ووثقوا بها ثقة المعلّم، نقلوها بسهر الجماعة الرسوليّة، مفضّلين الأمانة الجوهريّة على الأمانة الحرفيّة.

ولا يزال النقد الخارجيّ يحافظ على أهمّيّته، ولا سيّما منذ صدور الدراسات الأخيرة. فقد بيّن أنّ موقف كنيسة القرنَين الثاني والثالث كان قائمًا على احترام الأناجيل المطلق والنابع من سلطانها الذي لا جدال فيه. ويكمن الدليل على ذلك في استخدام الأناجيل كنصوص طقسيّة وكحجج دامغة في الجدال مع أهل البدع.

وبذلك يمكننا أن نستنتج أنّ الجهد النقديّ المكثّف الذي بُذل في السنين الأربعين الأخيرة كان مثمرًا. فإنّ تقارب الحجج المكتشفة يثبت أنّ الأناجيل تفضي بنا إلى المسيح التاريخيّ، وإلى رسالته الأصيلة، وإلى أهمّ أحداث حياته على الأرض[٤١].

---

(٤١) W. TRUTWIN, *Gesù, vita e morte; i Vangeli e l'ambiente di Gesù; il*=

وهكذا، إذ نسلك طرقًا متلاقية، كما في روايات أغاثا كريستي، لا نصل إلى المجرم الاعتياديّ، بل إلى شيء جديد تمامًا وحاسم في حياة كلّ منّا: إلى شرفة تطلّ على اللانهاية.

تأكيد النقد الخارجيّ

إنطلاقًا من درس تاريخ قرون المسيحيّة الأولى ومقارنتها مع الأناجيل، نستخلص النتائج التالية:

يؤكّد جميع الكتّاب المسيحيّين، بلا استثناء، والوثنيّان قِلتس Celse وپورفيرس Porphyros وجود قناعة مشتركة بين جميع الكنائس وحتّى نهاية القرن الأوّل في شتّى أنحاء الأمبراطوريّة الرومانيّة بأنّ الأناجيل هي من نتاج تلاميذ المسيح المباشرين: متّى ومرقس ولوقا ويوحنّا. ويشهد على ذلك: إيريناوس (١٣٠-٢٠٢)، أسقف ليون في بلاد الغال، وشهيد، وأوريجينيس (١٨٥-٢٥٣)، وهو رجل ذو ثقافة رفيعة، ومدير مدرسة «دسقوليون» Didaskaleion، وهي أوّل مدرسة عليا مسيحيّة في الإسكندريّة بمصر؛ ويوسطنيانُس (نحو ١٠٠-١٦٥)، الفيلسوف المهتدي والشهيد في روما، وپاپياس Papias (نحو ٧٠-١٢٥)، أسقف هيراپوليس في آسية الصغرى، وقانون مُوراتُورِي، وهو وثيقة رسميّة من وثائق الكنيسة الرومانيّة كُتبت نحو عام ٩٠ واكتشفها موراتوري، وطرطليانُس (١٥٠-٢٣٥)، وهو رجل قانون وأديب وفيلسوف مهتدٍ من قرطاجة. وهناك أيضًا تِيوفيلُس وططيانس وأثيناغور Athénagore وأرِيستيدِس Aristide وغيرهم.

---

messagio di Gesù, Marietti, Torino, 1981; G.F. RAVASI, *Gesù, una*= *buona notizia*, SEI, Torino, 1982.

إنّ حرص المسيحيّين الأوائل على التمسّك بما نقله الرسل والحفاظ عليه كما هو أصبح راسخًا. ويستشهد جان غيتّون بكلام پاپياس الذي يقول: «أعتقد أنّ ما نعرفه عن طريق الكتب أدنى قيمةً ممّا نسمعه مباشرة من الكلام الذي بقي حيًّا». ويستأنف غيتّون قائلًا: «أحبّ أن أعيد قراءة صفحة پاپياس هذه التي نقلها إلينا أوسابِيوس القيصريّ، والتي تُعدّ من أقدم وثائق التقليد الكهنوتيّ. فإنّ پاپياس، الذي كان يعيش في بداية القرن الثاني للميلاد، يروي كيف كان يسعى إلى معاشرة الرسل أو أولئك الذين عرفوهم، إذ لا شيء في نظره يساوي سماع «الكلام الذي بقي حيًّا». وأنا أتفهّم موقفه تمامًا، فعندما يبني المرء حياته على وجود تاريخيّ يفصله الزمن عنه يومًا بعد يوم، ويخلط معالم ذكراه ويطمسها، يجدر به أن يبقى مرتبطًا بهذا الوجود ولو عبر حلقة واحدة»(٤٢).

لم يحلم أيٌّ من الهراطقة في ذلك الزمان بالتشكيك في صحّة الأناجيل، وإن كان في مصلحته أن يفعل ذلك من أجل دعم الأناجيل المزيّفة وترويج عقائده الخاصّة. فكتب إيريناوس يقول: «إنّ سلطان الأناجيل راسخ إلى حدٍّ يُجبر حتّى الهراطقة على الإدلاء بشهادتهم، ويجعل كلّ مُنْشَقٍّ يسعى إلى إثبات صحّة عقيدته الجديدة بالاستناد إلى الأناجيل»(٤٣).

ولو كانت الأناجيل قد فُقدت لاستطعنا أن نعيد كتابتها بفضل الشواهد الكثيرة التي لجأ إليها أوائل الكتّاب المسيحيّين، تلك الشواهد التي تُثبت السلطة التي كانت تتمتّع بها هذه الوثائق في جميع كنائس القرون الأولى. فكتاب عقيدة التلاميذ الاثني عشر،

---

(٤٢) J. GUITTON, *Jésus*, Bernard Grasset, Paris, 1956, p. 31.
(٤٣) Irénée, *Adversus haereses*, 3, 11 ,7.

الذي كُتب في سورية نحو عام ٩٠، يستشهد بالأناجيل ٧٥ مرّة، كما يستشهد بها هِرماس (نحو ١٣٠- نحو ٢٠٠)، الكاتب الرومانيّ ٩ مرّات. ويستشهد بها ١٣ مرّة إغناطيوس، أسقف أنطاكية وتلميذ الرسول يوحنّا، والمستشهد في روما عام ١١٧؛ وإقْليمنضُس، أسقف روما عام ٩٧، ١٨ مرّة، وإيريناوس ١٨١٩ مرّة، وطرطليانس ٧٥٢٨ مرّة، وأوريجينيس ١٧٩٢٢ مرّة، وهكذا دواليك.

وغيرهم من الكتّاب القدماء يتحدّثون عن المسيح مؤكّدين ما جاء في الأناجيل، ومنهم: تيوفيلُس، أسقف أنطاكية عام ١٦٩، وططيانس، الكاتب السوريّ الذي عاش في القرن الثاني، وأثيناغور، وهو فيلسوف مهتدٍ من أثينة، كتب نحو عام ١٧٧ دفاعًا عن المسيحيّين موجَّهًا إلى مرقس أوريليوس Marc-Aurèle، وأرِيستِيدِس Aristide، وهو أيضًا فيلسوف مهتدٍ كتب نحو عام ١٢٠ دفاعًا عن المسيحيّين موجَّهًا إلى الإمبراطور هادريانُس؛ وپوليقربس Polycarpe، أسقف إزمير المستشهد عام ١٥٦؛ ورسالة إلى ديوغنيتِس Diognète، إلخ(٤٤).

إنّ الشهود الذين صدرت عنهم الأناجيل، أي الرسل والتلاميذ الفلسطينيّون الأوائل، لم يكونوا من المفكّرين القادرين على ابتكار عقيدة جديدة وأصيلة وعميقة، بل كانوا من العاملين - والأناجيل تشهد على ذلك - المعتادين على تدبير أمورهم في ظروف الحياة العمليّة، كصيد السمك والزراعة وتحصيل الضرائب والتجارة والصناعة اليدويّة وامتهان الطبّ. وكانوا رجالًا إيجابيّين، ممَّن لا

---

(٤٤) AA. VV, *Introduzione al NT*, 5 vol. Borla, Roma, 1977.

يصدِّقون المعجزات عادةً، ولا يميلون إلى الرؤى ولا إلى الصوفيّة، وكانوا متعلِّقين بالعقائد اليهوديّة التقليديّة. ولم يكن من السهل عليهم أن يفهموا ويتقبّلوا عقائد المسيح الجديدة، التي كان يشرحها بطريقة غريبة وأحيانًا متناقضة في ظاهرها، حتّى إنّها كانت للوهلة الأولى تعصى على فهمهم. وكان جهلهم هذا ضمانة أكثر ممّا كان سيِّئة، إذ كان المقصود نقل وقائع ملموسة جرت تحت نور الشمس وعقيدة جديدة لا ينبغي أن تُضاف إليها التفسيرات الشخصيّة.

كان المسيح يستخدم في كلامه الحِكَم القصيرة القاطعة والأمثال المجازيّة الأصيلة، وكان هدفه من ذلك بالتحديد أن يُحدث وقعًا قويًّا في عقول الناس وفي عقول التلاميذ وذاكرتهم. وفضلًا عن ذلك، كان يكرِّر تعاليمه من قرية إلى قرية بوجود تلاميذه دائمًا.

وما إن مات المسيح وقام حتّى أخذ الرسل ينقلون تعاليمه إلى الناس. ولكن يسوع كان قد درّبهم على ذلك وصحّح أخطاءهم شكلًا ومضمونًا. وأصبح الناس يسمعون من الرسل ما كان بعضهم قد سمعه من المسيح نفسه. وبذلك أصبح الرسل والناس يُتقنون العقيدة.

وإن كان الأشخاص الذين عايشوا الأحداث نزيهين وجديرين بالثقة، فإنّ التاريخ يقبل بشهادتهم، حتّى ولو كانوا من التلاميذ أو المعجبين بالشخصيّة التي يتحدَّثون عنها.

فلا يعرف الفيلسوفَ أو المفكِّرَ أو القدِّيسَ أو رجلَ الدولة حقَّ المعرفة إلّا تلاميذُه وأعوانُه، أي أولئك الذين عاشوا معه. أمّا الآخرون فلا يرونه إلّا عرَضًا وقد لا يهتمّون بعقيدته ولا بأعماله. وعلى عكس ذلك، فإنّ التلاميذ، الذين يقدّرونه ويحترمونه، يميلون

- بدافع من معتقداتهم تحديدًا - إلى مراقبة سلوكه والإصغاء إلى تعاليمه، ثمّ يُقبلون على رواية حياته للآخرين. لهذا السبب، وصلتنا سِيَرُ حياة عظماء الفكر القديم والحديث عبر كتابات التلاميذ.

ولكي يكسب التلاميذ ثقة الناس، ينبغي لهم أن يجتنبوا التعصُّب والمصالح الدنيئة. وإن ما نلحظه في الأناجيل خاصّةً هو الاعتدال، والإمساك عن المبالغة والتضخيم، ورواية حتّى التفاصيل التي قد تسيء إلى المعلّم وإلى التلاميذ أنفسهم، وغياب المصالح الشخصيّة الحقيرة. فإنّ أعمال الرسل وكلّ تاريخ الكنيسة في القرون الأولى تبيِّن في العديد من تفاصيلها الروح الجديدة القائمة على حبّ الحقيقة والإحسان والتنزّه عن الغنى والأمجاد، والإخلاص للمسيح حتّى الشهادة التي تُحْيي الدين الناشئ[٤٥].

ويقول ماريو پُوميليو Mario Pomilio «إنّ بعض الإنجيليّين يتصرَّف كمَن لا يفهم عبارة ولا يجرؤ على تغييرها... وهذه، على ما أعتقد، حالة خاصّة في تاريخ الآداب، فعادةً، يسيطر المؤلّف على شخصيّته. وعلى الأقلّ، فهو يكيّفها بحيث تتلاءم معه، ويُخضعها لنواياه الخاصّة. أمّا في حالة الإنجيليّين، فما يجري هو عكس ذلك، إذ إنّ المسيح هو الذي يسيطر عليهم ويضعهم في موقف المستمعين المتواضعين الذين لا يهتمّون إلّا بما يقوله هو بالفعل»[٤٦].

---

(٤٥) J. SCHREINER, *Introduzione letteraria e teologica al NT*, Ed. Paoline, Roma, 1982.

(٤٦) M. POMILIO, *Cit.*. da VITTORIO MESSORI, dans *Ipotesi su Gesù*, SEI, Torino, 1976, p. 260.

أَلَم تُحَرَّف النصوص المكتوبة عبر القرون؟

في العالم القديم، لم يصمد أيّ مخطوط من مخطوطات الأعمال الأدبيّة أمام قوّة الزمان المدمّرة. لذلك فإنّ جميع الكتب التي نُشرت قبل الألف الأوّل من عصرنا هذا وصلت إلينا من خلال النُّسخ التي كتبها النُّسّاخ بأيديهم. وكان احتمال الخطأ أثناء النسخ واردًا، ولا سيّما في الأناجيل، إذ كان من المتوقَّع أن يقوم بعض الناس المستهترين بإضافة بعض الجمل أو المقاطع أو حذفها أو تغييرها بحسب أفكارهم الخاصّة.

لذلك اقتضى الأمر الكثير من العمل والصبر: مقارنة آلاف النسخ المخطوطة التي وصلت إلينا من أجل إزالة كلّ التحريفات التي أُدخلت على النصّ على مرّ القرون.

فإن أغفل أحد النُّسّاخ في سورية سطرًا بالخطأ أو غيَّر عمدًا إحدى الجمل، فإنّ سائر النسّاخ في آسية الصغرى واليونان وروما وقرطاجة وبلاد الغال وبلاد الإنكليز لا يمكن أن يُغفلوا السطر نفسه أو يُدخلوا تعديلات مماثلة على الجملة نفسها.

فمن خلال مقارنات طويلة ودقيقة قام بها عدد من المتخصِّصين، كلٌّ على حدة، تمّ تحقيق **الطبعة النقديّة**، أي النصّ الذي نُقِّيَ من جميع تحريفات النسّاخ.

ومن الواضح أنّه كلّما كانت النسخ القديمة والمتنوِّعة المصدر والباقية كثيرة، ازدادت فرص الحصول على نسخة موثوق بها.

ولم يبقَ من مخطوطات أيٍّ من كبار كتّاب العصر القديم أكثر من بضعة مئات من النسخ، ولم يصلنا أيّ مخطوط يرجع تاريخه إلى ما قبل القرن السابع للميلاد. أمّا في ما يختصّ بالمسيح، فعدد

الوثائق التاريخيّة أكبر بكثير، إذ نملك ٣٤٠٨٦ نسخة من الأناجيل والرسائل، بين مخطوطات مكتوبة باليونانيّة ونسخ في كلّ اللغات القديمة: اللاتينيّة والسريانيّة والعربيّة والقبطيّة والأثيوبيّة والأرمنيّة والباليوسلافيّة والباليوغوطيّة والفارسيّة وغيرها. وفضلًا عن ذلك، نحفظ بضع مئات من ورق البردي اكتُشفت منذ عهد قريب ولا يزال يزداد عددها مع المكتشفات الجديدة. ينبغي أن نضيف إلى ذلك عشرات آلاف الشواهد التي نجدها لدى الكتّاب المسيحيّين الذين ينتمون إلى القرون الثلاثة الأولى بعد الميلاد.

ترجع أقدم مخطوطات الأناجيل إلى القرنين الثالث والرابع. أمّا أوراق البردي فتعود إلى القرنين الأوّل والثاني، وهي بذلك شديدة القرب من الإنجيليّين. لذلك، من الممكن أن نركن إلى أنّنا حصلنا على النصوص الأصليّة(٤٧).

حبّ عجيب للحقيقة يحيي الإيمان الجديد

صدر عام ١٩٧٦ كتاب فرضيّة عن المسيح، وهو تحقيق للصحفيّ فيتّوريو ميسُوري عن أهمّ حدث في التاريخ، ألا وهو يسوع المسيح. أسلوب الكتاب حيويّ وصحافيّ، وهو يخلو من الحواشي الموسوعيّة، ولكنّ صفحاته تخفي وراءها سنوات من البحث تشمل التحقيقات في الأماكن ذات الصلة بالأحداث والحفريّات الأثريّة في الشرق الأوسط والمقابلات مع متخصّصين دوليّين. ويتبيّن للمؤلّف من خلال البحث أنّ أقرب الفرضيّات التي صيغت بشأن المسيح إلى المعقول هي فرضيّة الإيمان، وأنّ العقل

---

(٤٧) F. LAMBIASI, *L'autenticità storica dei Vangeli*, Ed. Dehoniane, Bologna, 1974.

يرجّح الإيمان بالمسيح. وصدر لهذا الكتاب العديد من الطبعات وتُرجم إلى جميع اللغات الرئيسيّة. ويُعَدُّ هذا الكتاب آخر روائع المؤلّفات التي صدرت في المسيح، ومنها كتب پاپيني ومورياك وسانتُوتشِي وغيتّون والياباني شُوساكُو إنْدُو.

وينوّه المؤلّف بأنّه ليس من المعقول أن يتحوّل بعض المخادعين أو المتحمّسين إلى أبطال يُغْنون البشريّة بروحِ حقيقةٍ ومحبّةٍ جديدة لم تكن معروفة في ذلك الوقت، وبأنّ الأغرب من ذلك هو أنّهم نجحوا في مساعيهم وأفضت جهودهم إلى تجلّي أكثر صور التاريخ إشراقًا حتّى يومنا هذا.

ويكمن خير دليل على صحّة الأناجيل في حياة الرسل والمسيحيّين الأوائل. فأن يعيش هؤلاء على الدوام وسط المتاعب والأخطار بسبب الإيمان بالدين الجديد، محرومين من الراحة والغنى، وأن يكرّسوا وجودهم كلّه لمحبّة الله والإخوة، وسط التناقضات والمحن والاضطهادات، وقد يبلغ تفانيهم حدّ الشهادة، فهذا معجزة أخلاقيّة يستحيل أن يقوم بها مَن بنى حياته على الغشّ والخداع.

ويستشهد ميسّوري بعبارة للفيلسوف پييرو مارتنتّي Piero Martinetti، إذ يقول: «يمثّل الدين الذي يجسّده المسيح في نظرنا المصدر الأعمق والأقوى للحياة في الله. وينبغي أن نعتبر يسوع أبرز شخصيّة دينيّة تصدر عنها، حتّى في يومنا هذا، قوّة روحيّة لا مثيل لها في التاريخ». ويعلّق ميسوري قائلًا: «فهل من المعقول أن تنشأ من أكثر الأصول عُرضة للشبهات وأكثرها حقارة رسالةٌ لا تزال «تصدر عنها قوّة روحيّة لا مثيل لها في التاريخ؟»[٤٨].

(٤٨) V. MESSORI, *Ipotesi su Gesù*, cit., p. 251.

فالثمار تُنْبِئُ عن قيمة النبتة. ولا يستطيع المنافقون والمتحمِّسون أنن يبتكروا عقيدة بهذا السموّ وهذا العمق، لا تزال، حتّى بعد مضيّ عشرين قرنًا، تذهل اناسًا شديدي الذكاء وتجعل أنبلهم أخلاقًا يضحّون بكلّ شيء لاعتناقها. فتجّار النفاق لا يعيشون ولا يموتون كالأبطال. وإذا اتُّهِم أناسٌ متميِّزون في شرفهم، كأوائل شهود المسيح، فإنّ التاريخ بأكمله ينهار من أساسه، وتنهار حتّى الحياة البشريّة، لأنّ كلّ نشاطنا المدنيّ يقوم على شهادة الشهود.

١١ - وجه المسيح

صخرة التاريخ الفريدة (Ayer's Rock)

نشأ مع قدوم المسيح أسلوب جديد في الحياة، ومُثُلٌ جديدة، وحسّ أخلاقيّ جديد، وعلاقة جديدة بالله، وحرّيّة جديدة، وطريقة جديدة في المحبّة، وقوّة باطنيّة جديدة، وعلاقات اجتماعيّة جديدة، وروحانيّة جديدة، وتاريخ جديد. فقد قسّم المسيح التاريخ إلى قسمين: ما قبله وما بعده.

المسيح ذكاء متميّز وعبقريّة تخرج عن المألوف وبطل فريد وقدّيس خارق. نجد في وسط صحراء أوستراليا جبلًا لا يحيط به أي من الجبال، ويختلف عن سائر جبال العالم، ويسمّى «صخرة آيرز» Ayer's Rock. المسيح كهذا الجبل، فريد في التاريخ، سفير لله معتمَد.

يُعَدُّ يسوع، بدون أيّ تحيُّز، أقوى دليل على وجود الله، وعلى أنّ الله يهتمّ بالإنسان ويدلّه على الطريق المؤدّية إليه - وإن كانت وعرة - إذ إنّه أرسل إليه دليلًا محترفًا يرشده إلى السبيل.

هل إيمان المسيحيّين الأوائل هو الذي خلق المسيح في الأذهان؟ وما الذي فعله المسيحيّون الأوائل من أجل ابتكار عقيدة ثوريّة لا تزال حتّى اليوم تمثّل قوّة جاذبة في العالم؟

هل يمكن لنسرٍ من المحيط الجنوبيّ أن ينحدر من البطاريق؟

المسيح أرقى من عصره ثقافةً وأفكارًا بحيث لو أردنا أن نبتدعه في خيالنا لاحتجنا إلى جماعة من الأشخاص العمالقة على الصعيد الروحيّ والفكريّ الأخلاقيّ. وباختصار، لو أردنا تفسير معجزة واحدة بدون اللجوء إلى الله لاحتجنا إلى ابتداع ألف معجزة.

لا يقتصر شهود حياة المسيح على الإنجيليِّين

هناك أمر آخر يجب ألّا يغيب عن الأذهان، وهو أنّ الآلاف من معاصري المسيح يعزّزون الأحداث الواردة في الأناجيل. وهؤلاء لم يكتبوا، بل قاموا بأمر يُلْزِمهم أكثر من الكتابة، إذ إنّهم اهتدوا إلى الدين الجديد. فيؤكّد لنا الكاتب الوثنيّ تاقِيطُس Tacite أنّ المسيحيِّين كانوا، عام ٦٤، وفي روما فقط، يمثّلون «أعدادًا هائلة»، مع أنّ الانتماء إلى دين المسيح في ذلك الوقت كان يعني احتمال الاستشهاد.

ونُشرت الأناجيل والرسائل في جميع أرجاء الإمبراطوريّة الرومانيّة حيث لم يكن قد شاب أولئك الرجال والنساء الكثيرون الذين كانوا قادرين على تحديد الزمان الذي شاهدوا فيه يسوع والكلام الذي قاله.

وكانت الخرافات والأساطير المنتشرة آنئذ في شتّى أنحاء المتوسِّط (ديونيزس Dionysos وديميتير Démeter وإيزيس Isis وسيبيل Cybèle وميترا Mithra) تناسب ذوق السوق ومتطلّبات المستهلك. وهذه بالضبط هي حال البدع الدينيّة التي تظهر في عصرنا. ولا تدَّعي الأديان التي يبتدعها البشر بأنّها توحي للناس برغبات سامية، بل تلبّي الرغبات التي يشعر بها الناس بالفعل. فكلّ

إيمان يبتكره الإنسان ينتشر بالاعتماد على تنمية المصالح الدنيئة. وهذه حال الظواهر غير العاديّة والرعشات والتنبّؤات ومعرفة الغيب والرعاية الإلهيّة من أجل التمتّع بالصحّة، وتحقيق النجاح في الحبّ وفي العمل، والتحَلّي بالأخلاق التي تفوق المستوى المتوسّط بقليل، والبقاء بعد الموت.

ما من أحد سوى المسيح يضطلع بمهمّة الدليل الذي يرشدنا إلى طريق الله الساكن في العُلى، حيث يسمو على تطلّعات الإنسان الأرضيّة، أي في أعلى مناطق الروح. ولم يكن يستطيع أحد أن يوجِدَ ويتبع ذلك الطريق سوى قدّيس عظيم كالمسيح.

وتمثّل الأساطير والهرطقات والأديان الطبيعيّة والمِلَلُ كلّها مراكب تنجرف مع التيّار. ولم ينجح أحد، سوى المسيح وأكثر تلاميذه إخلاصًا، في أن يكون سفينة قاطرة تسير بعكس اتّجاه النهر حتّى تبلغ النبع.

وتُغْفِلُ الأساطير والخرافات التواريخ وأسماء الشهود. أمّا الأناجيل والرسائل، فإنّها، على عكس ذلك، تحدِّد الظروف الزمانيّة والمكانيّة. وحتّى ولو أراد الإنجيليّون أن يختلقوا أحداثًا خياليّة، لما استطاعوا ذلك، إذ إنّه كان من المحتمل أن يكذِّبهم شهود الأحداث ويكشفوهم كشفًا فاضحًا. فقد تمّ نشر الأناجيل والرسائل عندما كان الشهود لا يزالون على قيد الحياة. فكان بطرس، في خطابه الأوّل أمام أهل أورشليم، يستطيع أن يتحدَّث عن المسيح مرفوع الرأس قائلًا: «إنّ يسوع الناصريّ، ذاك الرجل الذي أيّده الله لديكم بما أجرى عن يده بينكم من المعجزات والأعاجيب والآيات، **كما أنتم تعلمون**» (رسل ٢/ ٢٢). لم يكن سلوك المسيح وكلامه في الظلّ، إذ إنّه يقول: «إنّي كلّمت العالم

علانيّة، وإنّي علّمت دائمًا في المجمع والهيكل حيث يجتمع اليهود كلّهم، ولم أقُلْ شيئًا في الخفية. فلماذا تسألني أنا؟ سَلِ الذين سمعوني عمّا كلّمتهم به، فهم يعرفون ما قلت» (يو ١٨/ ٢٠-٢١)[١].

كان كلُّ مُهتدٍ في تلك السنوات الأولى دليلًا حيًّا على تاريخيّة الأناجيل وصحّتها. ففي كلّ سنة، أثناء أعياد الفصح، كان آلاف اليهود يفدون من شتّى بلدان العالم المتحضِّر إلى فلسطين ويغادرونها. وكنّا نجد في فلسطين بالتحديد، وفي المناطق المجاورة التي كانت على علاقات بفلسطين، آلافًا من اليهود والوثنيّين يهتدون إلى المسيحيّة منذ السنوات الأولى. وإذ كتب الوثنيّ پلينُس الأصغر Pline le Jeune إلى الإمبراطور هادريانُس في نهاية القرن، أكّد له أنّ بعض مناطق آسية الصغرى، مثل بتينية، أصبحت مسيحيّة في أغلبيّتها.

وإذ إنّنا نقرّ بأنّ معظم الناس لم يكونوا يهتدون، ينبغي أن نوضح بأنّ اعتناق دين جديد في ذلك الزمان، كما في وقتنا الحاضر، كان يعني اختيار طريق وعر، وكذلك تعريض أملاكه وأسرته وحياته إلى الخطر الشديد. لذلك، فإنّ الخطوة التي قام بها العديد من الناس في ذلك الوقت كانت بالغة الأهمّيّة، إذ لم ينتشر أيّ دين آخر عبر التاريخ بعكس التيّار على هذا النحو.

وبالتالي فإنّنا لا نضع ثقتنا في مؤلّفي الأناجيل فحسب، بل في مَن استجابوا إليهم أيضًا وقدّموا لهم بذلك كلّ الضمان، أي في تلك الأعداد الكبيرة من الناس الذين عرّضوا حياتهم للخطر من أجل

---

(١) R. PENNA, *L'ambiente storico-culturale delle origine cristiane*, Ed. Dehoniane, Bologna, 1984.

إثبات صحّة الوقائع.

وخلافًا للعقائد الأخرى، كانت تلك العقيدة تعتمد على الوقائع والشهادات الدقيقة، ولم تكن تقبل بأن توضع على قدم المساواة مع الأساطير، بل كانت تفخر بأنّها تقوم على شخص حقيقيّ وعلى واقع تاريخيّ. كما كانت تقتضي انضباطًا سلوكيًّا شديدًا بعض الشيء، يدفعه الإنسان ثمنًا لشيء أعظم وأسمى يقدّمه الدين الجديد. لذلك اعتنقه آلاف الناس، من بينهم حتّى شخصيّات رسميّة وشيوخ وفلاسفة وقناصل، ممّا يدلّ على أنّ حياة الرسل كانت مقنعة وعجائبهم قابلة للإثبات، وعلى أنّهم كانوا واثقين من كلامهم، وأنّ فضيلتهم كانت دليلًا على أنّهم جديرون بأن يثق المرء وبأن يخاطر بكلّ شيء في سبيل اتّباعهم(٢).

إنّ الإيمان بيسوع لم يكن يعني الإيمان بالله فحسب، بل الإيمان بأنّ الله هو الله، إذ إنّ الإيمان بدون المسيح هو إيمان بإله خارج عن التاريخ، وخارج عن الوقائع الملموسة، بإله لا شكل له ولا وجه له، ولا يفعل شيئًا ليُثبت وجوده، ولا يهتمّ بلقاء الإنسان الذي يسعى إليه.

ويكتب مُورياك قائلًا: «أنا لا أؤمن حتّى ألمس بيدي ولا أؤمن إلّا بما أراه وما يندمج في كياني. لذلك، أنا أؤمن بالمسيح... وأعترف بأنّني لو لم أعرف المسيح، لكانت كلمة «الله» في نظري خاويةً من المعنى. ولولا النعمة الخاصّة التي

---

(٢) U. HOLZMEISTER, *Storia dei tempo del NT*, Marietti, Torino 1950; G. BARDY, *Les conversions au Christianisme dans le 1er siècle*, Paris 1949; P. BREZZI, *Cristianesimo e Impero Romano*, Roma 1942; H. CONZELMANN, *Le origini del cristianesimo*, Claudiana, Torino 1976; H.D. WENDLAND, *L'etica dei NT*, Paideia, Brescia, 1975.

مُنحتُها، لاستحال عليّ تخيّل الكائن اللانهائيّ وتصوّره، ولما احتلّ إله الفلاسفة والعلماء في حياتي الأخلاقيّة أيّة مكانة. ولم أركع خاشعًا إلّا عندما غاص الله في الإنسانيّة وظهر، في زمان محدّد من التاريخ ومكان محدَّد من الكرة الأرضيَّة، إنسانٌ من لحم ودم، ونطق بكلام معيَّن وقام بأعمال معيَّنة»(٣).

ويُنهي جان غيتّون كتابه الرائع عن التأريخ وشخصيَّة المسيح على النحو التالي: «هل هناك في عصرنا الحاضر كائن أو فكرة أو وجود يمكنه اليوم أن يوحِّد البشر ويجعلهم يتقدَّمون، مهما كان مستواهم، ويُنقذون أنفسهم من الضياع في لحظة واحدة؟ يبدو لي أنّ تاريخ المسيح، على ضوء تاريخ العصور التي سبقته والقرون العشرين التي تلته، يتيح فرصة الإجابة على هذا السؤال. فقد جرّبنا تقريبًا كلّ شيء، وحصلنا على جميع الإجابات السلبيّة، ولم نجد كائنًا سواه قادرًا على أن يمنح إنسان القرن العشرين الأمل والفرح»(٤).

ملامح المسيح

قرَّر أعظم الكتّاب اليابانيّين الأحياء، إنْدُو شُوساكُو، بعد سنوات من التفكير، كتابة سيرة المسيح، وكتب في خاتمة كتابه يقول: «أودّ أن أكتب يومًا كتابًا آخر عن حياة المسيح، بعد التجربة التي اكتسبتها بالتراكم خلال حياتي. وعندما أُنهي كتابتها، لن أفقد الرغبة في أن أكتب مرّة أخرى حياة المسيح»(٥).

---

(٣) François MAURIAC, *Vie de Jésus*, Préface XV-XVI.

(٤) J. GUITTON, *Jésus*, Bernard Grasset, Paris, 1956, p. 437: «Sans Toi, Jésus, nous naissons seulement pour ensuite mourir; mais avec Toi nous mourons pour naître» (Miguel de Unamuno).

(٥) ENDO SHUSAKU, *Vita di Gesù* (Jésu no shogai) 13e éd., trad. it., Queriniana, Brescia, 1977, p. 180.

لا شكّ أنّ المسيح كان شخصيّة خارجة عن المألوف حتّى استطاع أن يجعل الناس يحبّون شخصه بهذه القوّة ولهذه الفترة الطويلة، وأن ينشئ حركة ضخمة إلى هذا الحدّ ومجدّدة للتاريخ عبر القرون وحتّى يومنا هذا. وتمكّننا معلومات الشهود الأكيدة من أن نُظهر بدقّةٍ طبعه وشخصيّته.

ولا شكّ أنّه كان ظريفًا وجذّابًا، إذ كانت الجموع تهرع لرؤيته، وقد قَدِمَتْ حتّى من مناطق نائية، وكان الأطفال يلقون بأنفسهم بين ذراعيه، كما أنّ امرأة انبرت ذات مرّة من بين الجموع لتصرخ قائلةً: «طوبى للبطن الذي حملك وللثديين اللذين رضعتهما!» (لو ١١/ ٢٧).

إنّ ما كان يسحر الناس هو نظرته الحيويّة والثاقبة، سواء عندما كان يتطاير الشرر من عينيه (مر ٣/ ٥)، أو عندما يُسْرِحُ طرفه الودود حوله (مر ٣/ ٣٤)، أو عندما كان يُحَدِّقُ في الناس الذين يكلّمهم من أجل إقناعهم (مر ١٠/ ٢٣ و٢٧). لا شكّ أنّ نظرته كانت صافية وشفّافة ومنفتحة. وكان يقول هو نفسه: «سراج الجسد هو العين. فإن كانت عينك سليمة، كان جسدك كلّه نيّرًا» (متّى ٦/ ٢٢).

بحسب شهادات الناس، كان المسيح هزيلًا ورقيقًا، ولكنّه قويّ ومعتاد على التعب. كما كان فقيرًا بين أناس يعملون بأيديهم، وهو نفسه كان يكسب قوته من عمله اليدويّ قبل أن ينقل بشارة الله. وكان يحبّ الطبيعة كما تشهد بذلك دقّة تشبيهاته. وبعد يوم من العمل المضني، كان يعتلي مُرْتَفَعًا من الأرض معزولًا أو كان يذهب في سكون الليل إلى مياه بحيرة جنّاسِرتْ المتلألئة (مر ٤/ ٣٥ و٦/ ٤٧).

وتَنِمُّ طريقته في التعبير عن وعيه رسالتَه وعن عزمه وشخصيّته

القويّة. فهو يقول: «أنا لم آتِ لأدعو الصالحين، بل لأدعو الخاطئين». «جاء ابن الله ليجد وينقذ مَن كان ضالًّا». «لم يأتِ ابن الله ليُخْدَمَ، بل ليَخْدِمَ ويفدي الكثيرين بحياته». «أنا لم أتِ لأنقض القانون والأنبياء، بل لأتمِّم...»

كان المسيح يعرف ما يريد منذ البداية، ولم يتراجع أمام المعارضات والعقبات. كان إنسانًا ذا إرادة واضحة وعمل واثق وحاسم.

ويتلخَّص كيانه في الاختيار بين نعم ولا، إذ لم يكن يقبل اللَّبسَ أو المراءاة. «فليكن كلامكم: نعم نعم، ولا لا. فما زاد على ذلك كان من الشرّير» (متّى ٥/ ٣٧). «يا معلِّم، نحن نعلم أنّك صادق لا تبالي بأحد» (مر ١٢/ ١٤).

هذه الإرادة المنصبّة على هدفه وهذه الطاقة في العمل تجعلان من المسيح زعيمًا بكلّ معنى الكلمة. «بعضهم يقول: هو يوحنّا المعمدان، وبعضهم الآخر يقول: هو إيليّا، وغيرهم يقول: هو إرميا أو أحد الأنبياء» (متّى ١٦/ ١٤). إنّه يطرد البائعين من الهيكل ولا يجرؤ أحد على معارضته.

إنّ عالم العواطف الذي تنشأ فيه خطاباته مليء بالانفعالات الشديدة، إلّا أنّنا لا نجد فيه أيّ أثر للتكلُّف العاطفيّ، إذ تظهر العواطف جليّةً بالزخم نفسه والحرارة نفسها في العديد من أعماله. فهو لا يحبّ الخداع، وليس ضعيفًا. كما أنَّه يرُدُّ بحماسة متميِّزة على كلّ ما يعارض الله وعدالته.

وهو لا يدافع عن نفسه أبدًا، ولا يفقد السيطرة على أفعاله، وهو مستعدّ لتحمُّل نتائج أقواله الشديدة والشجاعة، حتّى ولو دفع

حياته ثمنًا لذلك[٦].

حبّ البشريّة

يعرف المسيح نقاط ضعف الإنسان، وليس حبّه البشريَّةَ حبًّا مندفعًا يرى من خلاله في الكائنات البشريّة ملائكة. ولأنّه يحبّ البشر وهو يدرك حقيقتهم، فهو يخترق الستائر الخارجيَّة السميكة لينفذ إلى أعماق القلوب ويرى كلّ تأثيرات البيئة والتربية والطباع والألم والبؤس، وكلّ الشقاء والضعف اللذين يتخبَّط فيهما الإنسان الخاطئ.

لهذا السبب فهو يتفادى أيّ إدانة أو أيّ حكم متسرِّع. ففي الحقيقة، ما من إنسان يستطيع أن يحدِّد فداحة ذنوب إنسان آخر. «لا تدينوا لئلّا تُدانوا» (متّى ٧/ ١)، لذلك فهو يدعو إلى المغفرة، إذ يقول لبطرس: «لا أقول لك: سبع مرّات، بل سبعين مرّة سبع مرّات» (متّى ١٨/ ٢٢).

ولم يبلغ المسيح قطُّ السموّ الذي بلغه خلال ساعات عذابه الرهيب، عندما ابتهل إلى الله قائلًا: «يا أبَتِ اغفر لهم، لأنّهم لا يعلمون ما يفعلون» (لو ٢٣/ ٣٤).

هذا الحبّ الذي يبقى رغم كلّ شيء كان جديدًا وفريدًا ومتميِّزًا بالحنان وروح التضحية بحيث يبقى محفورًا في ذاكرة البشريّة إلى الأبد[٧].

---

(٦) K. ADAM, *Jésus le Christ*, Edit. Salvator, Mulhouse-Edit. Casterman, Tournai, 1948.

(٧) J. LACOURT, *Questo nazareno chiamato Gesù*, Elle Di Ci, Leumann (Torino), 1986.

وَهَب نَفْسَه الجميعَ

صنع المسيح العديد من المعجزات ليُثبت أنّ عقيدته صادرة عن الله، ولكنّ المعجزة الرئيسيّة كانت ولا تزال متمثِّلة في حُبّه البشريَّةَ، وتعاطفه مع آلام البشر. والمقصود بالتعاطف هنا هو مشاركة البشر في آلامهم.

وما يميِّز حبّه عن دعوة الحكماء والفلاسفة إلى محبّة البشريَّة هو أنّه لا يكتفي بتعليم الناس، بل يشاركهم في آلامهم. ولا يكتفي برؤية بؤس الآخرين ومساعدتهم، بل يتحمَّل وزر هذا البؤس بنفسه.

وكانت حياة المسيح كلّها خروجًا مستمرًّا من ذاته للعيش داخل الآخرين. وهؤلاء الآخرون هم الخاطئون. وهو لا يستقبلهم فحسب، بل يذهب إليهم: «يا زكّا، انزل على عجل، فيجب عليَّ أن أقيم اليوم في بيتك» (لو ١٩/ ٥). وهو يقول «إخوتي» لأكثر الناس شقاءً وعِوَزًا وأقلّهم اعتبارًا. ويشاركهم في مصيرهم مشاركة حميمة، ويعتبر أنّ ما يفعله الناس بأيّ من هؤلاء كأنّما يصيبه هو (متّى ٢٥/ ٤٠).

وانطلاقًا من اتّحاده الحميم بالبشر، يشعر بأنّه مدفوع، في أقدس لحظة من حياته، إلى الركوع أمام تلاميذه المساكين وغسل أقدامهم. فهو لم يأتِ «ليُخْدَمَ بل ليَخْدِمَ». وعندما يُقَدِّسُ الخبز والخمر، يُتَرْجَمُ هذا الشعور بالتضامن الأخويّ بالرغبة في أن يهب نفسَه للبشرَ ليحرِّرهم من بؤسهم ويُدخلهم في عالم فرحه الداخليّ العجيب. لذا فإنّه يتفوَّه بكلمات ذات قوّة خفيَّة: «خذوا فكلوا، هذا هو جسدي» [...] «إشربوا منها كلّكم، فهذا هو دمي، دم العهد يُراقُ من أجل جماعة الناس لغفران الخطايا» (متّى ٢٦/ ٢٦-٢٨).

حتّى الحنان

يبيِّن الشهود دائمًا تعاطف المسيح مع الآخرين وحبّه البشريّة. فذلك الرجل الذي كان يسعى بكثير من الحماسة إلى هدف خارق وسماويّ لم يكن يرى أنّ قَدْرَهُ ينقص إذ يُقَبِّل الأطفال، ويبكي على موت لعازر وألم أختيه، ويرتعش شفقةً أمام بكاء أرملة نعيم ويهتمّ بالبُرص والعميان والمتسوِّلين، ويذرف الدمع على أورشليم المقبلة على الدمار.

وكان ينفعل لدى رؤية الجموع تلحق به حتّى إلى الأماكن المُقفرة التي كان يلجأ إليها ليعطي الرسلَ تعليماته الخاصّة. كان هؤلاء الناس يبحثون عن مرشد، إذ لم يكن أحد يهتمّ بهم بذلك الحبّ المنزَّه. أمّا هو، فكان يهب لهم نفسه بكلّ محبّته: «تعالوا إليَّ جميعًا أيّها المرهَقون المُثقَلون، وأنا أريحكم» (متّى ١١/ ٢٨).

وكان بعضهم خاصّة يمسون شغاف قلبه ويوحون إليه بأعذب الكلمات وأكثر الأمثال تأثيرًا (كالراعي الصالح والسامريّ والابن الضالّ والخروف الضالّ)، وهم المرضى والخاطئون التائبون.

وكان يريد شفاء المرضى حتّى ولو اتُّهم بخرق عُرف السبت. وكان يريد مصاحبة الخاطئين لينقذهم، حتّى ولو كان هذا يثير حفيظة «المراقبين». وحتّى أثناء عذاباته، وجد نفسه يقول للمجرم التائب: «ستكون اليوم معي في الفردوس» (لو ٢٣/ ٤٣).

وكان يعيش في عالم إلهيّ، إلّا أنّه لم يكن ينسى بؤس الواقع الأرضيّ، بل كان يعيشه بعمق بحيث جعل هدف حياته يتمثَّل في تخليص الناس من ذلك البؤس. ولهذا السبب اتّخذت دعوته طابع الحرارة والفرح والنور، وأسماها بنفسه «البشارة، أي الإنجيل»[٨].

(٨) E. GAUTIER, *Voi chi dite che io sia?*, Massimo, Milano, 1975.

بيد أنّنا لم نذكر حتّى الآن المركز الحيويّ الذي تنطلق منه كلّ سمات شخصيّة المسيح. ففي حياته حبّ يستقطب كلّ أفكاره ومشاعره ويمثّل فكرة ثابتة لديه: وهو حبّ الآب السماويّ.

ويمكن القول إنّ ما يجعل حبّ المسيح لأبيه قويًّا وحميمًا، هو صورة الله الباقية في ذاكرته. وهنا نسبر غور شخصيّته بمزيد من العمق. فخلافًا لكلّ عباقرة الأديان ولكلّ القدّيسين الذين يستلهمون من المسيح، لم يصرّح قطّ بأنّه خاطئ، بل أكّد بوضوح أنّه ابن الله المختلف عن الآخرين، وأنّه عرف الآب السماويّ معرفة مباشرة: «خرجت من لدن الآب وأتيت إلى العالم» (يو ١٦/ ٢٨). «الحقّ الحقّ أقول لكم: قبل أن يكون إبراهيم، أنا هو» (٨/ ٥٨). «أنتم لم تعرفوه، أمّا أنا فأعرفه» (٨/ ٥٥). «قد سلّمني أبي كلّ شيء، فما من أحد يعرف الابن إلّا الآب، ولا من أحد يعرف الآب إلّا الابن ومَن شاء الابن أن يكشفه له» (متّى ١١/ ٢٧).

وكان الفرح الخفيّ الذي يتلألأ ويجري كالسيل في وجدانه صادرًا عن علاقته بأبيه (راجع لو ١٠/ ٢١). فقد ضحّى بحياته ولم يكثر الكلام، إذ كان يهدر في أعماق روحه شلّال من الفرح الذي لا يوصَف: وهو صورة الآب[٩].

البشارة

لا يمكن أن نشبّه المسيح بإنسان يملك كنزًا ويخبّئه في بيته ويحرص عليه حتّى لا يشاركه فيه أحد. بل على العكس، إنّه لم

---

(٩) F. ARDUSSO, *Gesù di Nazareth è figlio di Dio*? Marietti, Torino 1980; T. BOMAN, *Uno di nome Gesù*, Elle Di Ci, Leumann, 1984; A. PATIN, *Colui che chiamiamo Gesù*, Elle Di Ci, Leumann, 1981.

يأتِ إلى العالم إلّا ليفتح الباب الذي يُفضي إلى معنى الحياة وإلى خير وجود البشر الهائمين والمجمَّدين في برود الأنانيّة والشكّ، وليضع كلّ ما ورثه من سعادة في متناول الجميع: «فقد دعوتكم أحبّائي لأنّي أطلعتكم على كلّ ما سمعته من أبي» (يو ١٥/ ١٥). «عرَّفتهم باسمك وسأعرِّفهم به لتكون فيهم المحبّة التي أحببتني إيّاها وأكون أنا فيهم» (يو ١٧/ ٢٦).

وكانت جميع تعاليمه تفيض بالفرح والحياة: «إفرحوا بأنّ أسماءكم مكتوبة في السموات» (لو ١٠/ ٢٠). «أمّا أنا فقد أتيت لتكون الحياة للناس وتفيض فيهم» (يو ١٠/ ١٠). «ليكون فيهم فرحي التامّ» (يو ١٧/ ١٣).

لقد أرسى المسيح أُسُس النزعة الإنسانيّة وزرع بذور ما نسمِّيه بالحضارة المعاصرة، ورسَّخ حسَّ المساواة والعدالة والتضامن. «كلّما صنعتم شيئًا من ذلك لواحد من إخوتي هؤلاء الصغار، فلي قد صنعتموه» (٢٥/ ٤٠). «تعلمون أنّ رؤساء الأمم يسودونها، وأنّ أكابرها يتسلّطون عليها. فلا يكن هذا فيكم، بل مَن أراد أن يكون كبيرًا فيكم، فليكن لكم خادمًا. ومَن أراد أن يكون الأوّل فيكم، فليكن لكم عبدًا» (٢٠/ ٢٥-٢٦). «لأنّ لكم معلِّمًا واحدًا وأنتم جميعًا إخوة» (٢٣/ ٨).

ولكنَّ ثمّة شيئًا في يسوع يوحِّد الرسائل الأخرى ويرقى بها إلى قمّتها: وهو الشهادة التي بشَّر بها المسيح وعاشها، والتي تفيد بأنّ الله حبّ، وبأنّه يريد أن ينقل غنى حياته نقلًا دائمًا وأبديًّا إلى مَن يفتح له قلبه(١٠).

---

(١٠) G.F. RAVASI, *Gesù, una buona notizia*, SEI, Torino, 1982; H. FRANKEMOLLE, *La pretesa di Gesù e le sue interpretazioni*. Elle Di Ci, Leumann, 1984.

فالله يؤثّر فيك ويحوّلك ببطء، إن تسمع كلامه وتتأمّل فيه كلّ يوم (مثل الزارع، إلخ). ولكي تستمدّ من الله القدرة على الإيمان بحبّه وعلى عيش هذا الحبّ الذي يكمن فيه خلاص الإنسان، عليك أن تبحث عنه بحثًا دؤوبًا (لو ١١/ ١٠).

الله يحبّك ويغفر لك ماضيك، ولا يفتأ يحوّلك ويجعلك أفضل ممّا كنت، إذ يخلّصك من إغراء المال واللذّة، إن سعيت إلى التعاون معه كلّ يوم (متّى ٥ و٦).

فالاتّحاد الذي تبدؤه معه على هذه الأرض لن ينتهي ويزول بالموت. «فتكافأ في قيامة الأبرار» (لو ١٤/ ١٤)؛ «فإنّ الله أحبّ العالم حتّى إنّه جاد بابنه الوحيد لكي لا يهلك كلّ مَن يؤمن به بل تكون له الحياة الأبديّة» (يو ٣/ ١٦). فاتّحاد الآب والابن يعني أنّ الله لا يؤثر الوحدة، بل هو عطاء الذات من خلال الأشخاص، وهذا هو جوهر الحبّ.

ولمّا كان الله حبًّا، فهو يمنحك الثقة والسلام والشجاعة - إن تفتح له قلبك بالإيمان - لكي تتحمّل عذاب الحياة الأرضيّة الذي لا بدّ منه: «تعالوا إليّ جميعًا أيّها المرهَقون المُثقَلون، وأنا أريحكم» (متّى ١١/ ٢٨). «أمّا ثمر الروح فهو المحبّة والفرح والسلام» (غل ٥/ ٢٢). «أنا الكرمة وأنتم الأغصان. فمَن ثبت فيّ وثبتُّ فيه فذاك الذي يثمر ثمرًا كثيرًا» (يو ١٥/ ٥).

الإيمان بالمسيح ثقة برسالته وتقدير لها وقبول بها، وهو ضروريّ لأنّه يمثّل الخطوة الأولى نحو الانفتاح على الله وتلقّي حبّه ومبادلته هذا الحبّ. فحتّى الصداقة البشريّة تبدأ بالإيمان بحسن نيّة الآخر. «مَن يُقبل إليّ فلن يجوع ومَن يؤمن بي فلن يعطش أبدًا» (يو ٦/ ٣٥). «فمَن آمن... يخلص» (مر ١٦/ ١٦).

تلك هي البشارة، فمَن يتقبّلها يبدو له الواقع بنوره الحقيقيّ الذي ينبع من الله، وهو واقع إيجابيّ ومليء بالخير، وطريق نحو فجر يبزغ في الأفق. وعلى الرغم من وجود الشرّ، الذي ينشأ من ذنوب البشر، فالحياة لها معنى، وهي جديرة بأن تُعاش. وهناك مخرج من جميع المآزق مهما كانت معقّدة.

فمَن يؤمن برسالة الفرح يملك في نفسه سرّ ثقةٍ راسخة لا تهزّها العواصف، وبداية «الخلاص»، ويملك فرحًا مستقرًّا وعميقًا، ينمو ويتجدّد على الدوام بحسب إيقاع تقدّم الإيمان والحبّ، ويملك طائرة مروحيّة تمكّنه من التحليق فوق الطمي والحرائق. «مَن سمع كلامي وآمن بمَن أرسلني... إنتقل من الموت إلى الحياة» (يو ٥/ ٢٤)(١١).

مَن هو يسوع؟

يشبه وضع المسيح وضع رسول يحطّ على الأرض بمكّوكه الفضائيّ حاملًا معه نبأً هامًّا أو رسالة لا تصدَّق، ويحدِّد بدقّة مكان عالمٍ أزليّ تسوده السعادة ويمكن أن يبلغه أيّ إنسان، إذا توافرت فيه بعضُ الشروط وإذا قَبِلَ بتقديم بعض التضحيات. ومَن يستمع إليه يبقى مذهولًا ويطلب منه الضمانات قائلًا: «ولكن مَن أنت فعلًا؟ وما هي أوراق اعتمادك؟ وما هي الأدلّة التي تقدّمها؟»

كان مفهوم الله عند الإنسان دائمًا، ولا يزال عند الإنسان المعاصر، غامضًا وغير محدَّد، ولا يشبه أيًّا من المفاهيم الأخرى،

---

(١١) J. BONSIRVEN, *Les enseignements de Jésus-Christ*, Paris, 1946; B. FORTE, *Gesù di Nazareth, storia di Dio e Dio della storia*, Ed. Paoline, Roma, 1984.

ولكنّه كان مفهومًا يقدّم لنا صورة تقريبيّة لله على أنّه كائن غامض يعرف كلّ شيء، وقد يتّصف بالذكاء والقوّة عند الحاجة، ولكنّه قاسٍ وبارد، لا يستطيع أن يحبّ، ولا يهتمّ بتاريخ البشر ولا سيّما بتاريخ الفرد، ولا يمكن الوصول إليه، مثله كمثل أباطرة الصين القدماء، الذين كانوا ينعزلون في قصورهم، ولا يمكن لأيّ أحد من الناس أن يتّصل بهم. نعم، فحتّى الإنسان المعاصر يؤمن بالله، ولكن شريطة أن لا يظهر له. فهو يريد إلهًا يلزم الصمت ويبقى في الضباب بعيدًا جدًّا، فإنّ إلهًا يحبّ ويكلّم الإنسان، يقلق راحته. فالإله الذي يبيّن صواب الطريق مزعجٌ، وما يريده الإنسان هو إله انهزاميّ.

لذلك فإنّ عند الناس فكرة سامية عن المسيح، ولكن كإنسان فقط. فهم يعتبرونه من أعظم وجوه التاريخ، بل أعظمها على الإطلاق، والبشير الأوحد بالتقدّم الأخلاقيّ، ومؤسّس النزعة الإنسانيّة والحضارة. وهم مستعدّون لأن يوجّهوا إليه أعلى درجات المديح، شرط أن لا يتكلّم باسم الله وأن لا يعتبر نفسه - وهذه قمّة اللامعقول! - ابن الله أو أيّ مظهر من مظاهر الله المباشرة التي تقترب من الإنسان وتكلّمه.

ولكن إذا لم يكن المسيح على الصورة التي وصف نفسه بها، فالعظمة الهائلة التي نسبها إليه غير المؤمنين لا تناسبه، بل على العكس، فهو يغرق في خضمّ العظمة الهائلة المبنيّة على الجنون والكذب.

أَفْهَمَ المسيح بوضوح أصلَه الإلهيّ الذي يصعب إدراكه. وهذا الأصل جزء لا يتجزّأ من البشارة. فإنّ محبّة الله الإنسانَ تظهر في هذا الأمر، بالاقتراب منه ما أمكن حتّى يصبح إنسانًا مثله، ويكلّمه

كلام البشر، ويقدِّم له صداقة حقيقيّة مبنيّة على المساواة، ويبيِّن له محبّته بالأفعال. فهذا يعني أنّه يضحّي بنفسه ليخلِّصه.

فيقوم حبّ مَن في السماء على المشاركة في الظروف البائسة والصعبة التي يعيشها مَن سقط إلى الحضيض، وذلك لكي يسمو به شيئًا فشيئًا ويجعله يشاركه في كماله.

لم يتكلَّم المسيح على أصله الإلهيّ علنًا في بداية رسالته وتبشيره بملكوت الله، إذ إنَّه أراد أوّلًا أن تتحدّث أعماله عنه، فقد كان يقول: «العبرة بالأعمال»، «فكلّ شجرة تُعرف من ثمرها» (لو ٦/٤٣؛ لو ٧/١٨-٢٣).

ولم يقبل قطُّ بأن توجَّهَ العبادة إليه، بل إلى الآب فحسب. فقد اعتبر نفسه إنسانًا وابنًا مطيعًا أباه في كلّ شيء. ولكن، في الوقت نفسه، أكَّد بوضوح أنّه يشارك الآب في جميع صفاته الإلهيّة. وبعبارة أخرى، كان المسيح يصرِّح بهذا الأمر إلى أن أُعدم بتلك التهمة بالضبط، إذ أكَّد أثناء المحاكمة أنّه ابن الله بالمعنى الحقيقيّ للكلمة، أي أنّ له طبيعة الله نفسها. «لنا شريعة، وبحسب هذه الشريعة يجب عليه أن يموت لأنّه جعل نفسه ابن الله» (يو ١٩/٧).

من الصحيح أنّه جعل نفسه ابن الله بالمعنى الحقيقيّ للكلمة، فقد أكَّد، بنحو خمسين طريقة مختلفة على الأقلّ، أنّ طبيعته وطبيعة الله واحدة[١٢].

«أنا ابن الإنسان». هذه العبارة كانت معروفة عند يهود ذلك

(١٢) G. SEGALLA, *Cristologia del N.T.*, Paideia, Brescia, 1985; F. ARDUSSO, *Gesù di Nazareth è figlio di Dio?* Marietti, Torino 1980; H. FRIES, *Teologia fondamentale*, Queriniana, Brescia, 1987; Id *Cristianesimo e Chiesa al voglio della critica odierna*, Queriniana, Brescia, 1988.

الزمان. فقد تحدَّث النبيّ دانيال عن «ابن الإنسان»، وهو المشيح الجليل العظيم الذي يظهر في سحب السماء، عن يمين الله، والذي ستكون سلطته خالدة ولن يكون لملكوته نهاية (دا ٧/ ١٣ وما يليه).

ويبيِّن كلام المسيح أنَّه استخدم تلك العبارة بهذا المعنى بالضبط. فقد قال: «سوف يأتي ابن الإنسان في مجد أبيه ومعه ملائكته، فيجازي يؤمئذ كلّ امرئ على قدر أعماله» (متّى ١٦/ ٢٧). «وحينئذ يرى الناس ابن الإنسان آتيًا في الغمام في تمام العزّة والجلال. وحينئذ يرسل ملائكته ويجمع الذين اختارهم من جهات الرياح الأربع، من أقصى الأرض إلى أقصى السماء» (مر ١٣/ ٢٦-٢٧).

كان قانون موسى قد صدر عن الله، ولم يكن ثمّة شيء أقدس منه، إلّا أنّ المسيح قال بوضوح إنّه جاء ليكمل ذلك القانون (متّى ٥/ ١٧ وما يليها).

كان يسوع صديقًا للجميع، وكان يحبّ حتّى أولئك الذين لم يكن يحبّهم أحد. وكان يرافق الناس في أعمالهم وحياتهم، ويسعف الجميع، ولا سيّما أشدّ الناس فقرًا، ولم يكن يحبّ مظاهر التعظيم. فعندما أرادت الجموع أن تجعله ملكًا، تهرّب من ذلك (يو ٦/ ١٥ وما يليها). ولكن، في الوقت نفسه، كان يؤكِّد قائلًا: «أنا والآب واحد» (يو ١٠/ ٣٠). «قبل أن يكون إبراهيم، أنا هو» (٨/ ٥٨). «فمجِّدني الآن عندك يا أبتِ بما كان لي من المجد عندك قبل أن يكون العالم» (يو ١٧/ ٥)(١٣).

---

(١٣) A.K. SPEIDEL, *Il processo a Gesù*, Ed. Dehoniane, Bologna, 1981; PH. SEIDENSTICHER, *La risurrezione di Gesù nel messagio degli evangelisti*, Paideia, Brescia, 1980; G. GOZZELINO, *Vocazione e destino dell'uomo in Cristo*. Elle Di Ci, Leumann (Torino), 1985.

وتثبت الأناجيل بالعديد من التفاصيل **السلطة الإلهيّة** التي كان المسيح يشفي بها المرضى ويطرد الشياطين ويبعث الموتى، بأمر بسيط منه، والتي كان يستخدمها كذلك **لمغفرة الخطايا** ومصالحة الناس مع الله. وتبيِّن الأناجيل كيف كان يُعَلِّمُ بدون الاستناد إلى سلطة التوراة، بل إلى سلطته الخاصّة وإلى ما كان قد شاهده لدى الآب. وتبيِّن لنا كيف يمنح الرسل القدرة على صنع المعجزات وغفران الخطايا وتخليص البشر باسمه، وكيف يطلب من الناس - بعد أن قدَّم لهم كيانه كلّه - أن يفضّلوه على أبيهم وأمّهم وحتّى على حياتهم الخاصّة.

ويؤكِّد المسيح أنّه ملك مملكة الله، وأنّه الربّ ونور العالم والقيامة والحياة. ويقول إنّ مَن يراه يرى الآب، ومَن يؤمن به له الحياة الأبديّة. ويعد بأن يكون حاضرًا مع تلاميذه حتّى نهاية العالم، وبأن يساندهم في استشهادهم ويهب لهم الحياة الأبديّة.

وتزخر الأناجيل بالشهادات المتعلّقة بهذا النوع من التأكيدات التي قالها المسيح بوضوح بالغ. ولم يمت يسوع إلّا ليُثبت صحّة البشارة القائلة بأنّ الله تحوَّل إلى إنسان لكي يبيِّن للبشر معنى الحياة ويفتح لهم الطريق للّحاق به. «فشقّ عظيم الكهنة ثيابه وقال: «لقد جدَّف، فما حاجتنا بعد ذلك إلى الشهود؟ ها قد سمعتم التجديف. فما رأيكم؟ فأجابوه: «يستوجب الموت» (متّى ٢٦/ ٦٥-٦٦).

وهكذا قَبِلَ المسيح بالعذاب والإعدام ليشهد بأنّ رسالة الفرح حقيقة(١٤).

---

(١٤) H. ECHEGARY, *La prassi di Gesù*, Cittadella, Assisi, 1983; E.CHARPENTIER, *Cristo è risuscitato*, Gribaudi, Torino, 1978; X. LEON-DUFOUR, *I miracoli di Gesù*, Queriniana, Brescia, 1980.

لم يكن المسيح أحد أعظم وجوه التاريخ فحسب: فإمّا أنّه كان مجنونًا أو كان ابن الله.

غادر المسيح العالم ولكنّه بقي فيه

إذا حكمنا على الأحداث من خلال ما جرى بعد موت يسوع، لا يبدو لنا حقًّا أنّه كان مجنونًا. فقد غيَّر ولا يزال يغيِّر أشياء كثيرة على وجه الأرض. فقد قسَّم التاريخ إلى قسمين: قبل المسيح وبعد المسيح. ودفع عجلة الحضارة والأخلاق إلى الأمام، إذ إنّ الناس استمعوا إليه. ولا يزال عنده كلام كثير يقوله للإنسان المعاصر عن معنى الحياة.

والمسيح شخصيّة من شخصيّات رواية **منصّة الإعدام** (١٩٨٧) التي تتناول قضيّة انتشار المخدِّرات، والتي كتبها جنغيز أجتماتوف **Gingiz Ajtmatov** الحائز جائزة لينين. يشرح الكاتب السوفياتيّ قائلًا: «إنّ تجربتي مع المسيح ترجع إلى نحو عشر سنوات، عندما بدأت أدرك للمرّة الأولى هشاشيّة العالم التامّة. فإنّ خطر الكارثة النوويّة الذي يحدق بالبشريّة دفعني إلى القيام بعمليّة بحث أفضت بي إلى الروحانيّات، بحيث توصّلت إلى استخلاص أنّ وجه المسيح، من الناحية الأخلاقيّة، هو المرجع الضروريّ لكلّ عمل إنساني»[(١٥)].

وكذلك پاسترناك **Pasternak** لم يكن يعتقد بأنّ المسيح كان مجنونًا. فقد كتب في رواية **الدكتور جيڤاكو** قائلًا: «لا يعيش الإنسان في الطبيعة، بل في التاريخ. وبالمفهوم الحالي، فإنّ

---

(١٥) «E la Russia riscopre Gesù», interv. ad Ajtmatov su *Famiglia cristiana*, 1987, n. 15, p. 66.

المسيح هو مؤسِّس التاريخ والإنجيل هو أساسه. ولكن ما هو التاريخ؟ هو أن نُنجز أعمالًا على مرّ القرون من أجل أن ننجح شيئًا فشيئًا في حلّ لغز الموت، وفي قهره مستقبلًا. لذلك يُكتشفون اللانهائيّ الرياضيّ والموجات الكهربائيّة المغنطيسيّة، ولذلك يؤلِّفون السيمفونيّات. ولكنّنا لا نستطيع أن نتقدّم في هذا الاتّجاه بدون أيّ دفع. فاكتشافات كهذه تحتاج إلى زاد روحيّ، ويمكن القول بأنَّ معطيات هذا الزاد نجدها كلّها في الإنجيل. وهذه المعطيات هي التالية: أوّلًا حبّ الآخرين، ذلك الشكل السامي من أشكال الطاقة الحيّة التي تملأ قلب الإنسان وتنحو إلى الانتشار وتدعو الناس إلى استهلاكها. وثانيًا الأسباب الجوهريّة التي لا يمكن أن نتصوَّر الإنسان المعاصر بدونها، والمتمثِّلة في الحرِّيَّة الشخصيّة وفي الحياة المبنيّة على التضحية. فاعتبروا اليوم أنَّ هذا الأمر لا يزال جديدًا كلّ الجدّة. فالقدماء لم يكن لهم تاريخ بهذا المعنى»(١٦).

ويقول مالكولم ماغيريدج Malcolm Muggeridge إنّ «الإيمان هو المفتاح الذي يمكّننا من فهم رسالة الله التي لا نستطيع فهمها إلّا بهذه الطريقة، وإنّ المسيح قد ولد تلك الليلة في بيت لحم ليجدِّد مخزون إيمان العالم»(١٧). «لا شكَّ أنّ تاريخ يسوع وأحداث ميلاده وأقواله وأفعاله والطريقة التي غادر بها العالم وبقي فيه في آن معًا قد كُرِّرت ودُرست وحُلِّلت ووُضِّحت أكثر من أيّ أحداث تاريخيّة أخرى... فعبر القرون، ألهمت الرسالة الإنجيليّة العديد من أنبل

---

(١٦) B.L. PASTERNAK, «Il dottor Zivago», cit. dans *Jésus*, mars 1989, p. 59.

(١٧) M. MUGGERIDGE, *Uno scettico a Betlemme*. Un écrivain raconte le commencement de sa conversion, «Selezione», décembre 1987, p. 126.

شهادات حضارتنا. . . فالنقاط التي يفضي إليها كلام المسيح لا نهاية لها حقًّا. ولا بدّ أن نعتبر هذا الكلام خالدًا، بما أنّه لا يزال باقيًا على الرغم من كلّ النقد الذي وُجّه إليه، ولا سيّما المعاصر منه. . . إذن فإمّا المسيح لم يوجد قطّ وإمّا أنّه لا يزال موجودًا حتّى اليوم. وعلى الرغم من أنّي نموذج من نماذج عصر اختلاط الأمور هذا، فإنّ لديّ شعورًا عميقًا بأنّ المسيح لا يزال حيًّا في واقعنا الحالي. وفي نظر مَن يخشى، مثلي، سقوط الحضارة الغربيّة وقدوم عصر ظلام، يدعو مظهر انهيار الإيمان إلى الأسى، ولكن في الوقت نفسه، وعلى حين غرّة، نقرأ، في أبعد الأماكن عن توقّعاتنا، صفحات لكاتب مثل سولجينتسين، كما نرى في بيوت كلكتّا البائسة الأمّ تريزا تحقّق رسالة المسيح في المحبّة بمساعدة أعضاء جمعيّة رسل الإحسان. . . وأدرك بذلك أنّ الدين الذي دعا إليه المسيح ليس مجموعة من المبادئ والأفكار، بل تعبير عن حياة نعيشها»[١٨].

فما هو الإيمان إذن؟ هو التزام الإرادة بما يُظهره الله لنا من خلال المسيح، وهو التزام قويّ بسبب موثوقيّة الله المطلقة. ولهذا الالتزام عدّة درجات:

أ - نتقل من الثقة الأساسيّة إلى **الإيمان الأوّليّ**، إذ لا يرى العقل سوى احتمالات وجود الله ونزول الوحي، وتُبدي الإرادة قبولًا أوّليًّا.

ب - **الإيمان الكامل**: وهنا يبلغ العقل اليقين الأخلاقيّ وتبدي الإرادة قبولًا تامًّا. ويبقى الشكّ ممكنًا، إلّا أنّ المرء يدرك أنّ الإيمان أصحّ بكثير.

---

(١٨) المرجع نفسه، ص ١٢٨.

ج - **الإيمان المستنير**: وهنا تستمرّ التجربة مع الله، وينشأ عزاءٌ روحيّ، أو يتطوّر الأمر إلى تجربة صوفيّة، ولا يبقى مكان للشكّ.

المسيح عبر القرون

المسيح يعيش حتّى في يومنا هذا: ولا يقتصر الأمر على كلامه ومُثله العليا وذكراه التي تُلهم وتوجِّه وجود نخبة رائعة من الناس، وتقدِّم للمجتمع الحالي شعاعًا يخفِّف من ظلماتها، ولكنَّ شخص المسيح بذاته لا يزال حيًّا يتحدّث إلى مَن يفتح له قلبه وينقل إليه بالتوارد القائم بالصلاة المعجزة الدائمة التجدُّد، والتي تعجز القوى البشريّة عن تفسيرها، وهي معجزة طريقة المسيح الجديدة في التفكير والمحبّة والسلوك.

وفي نظر جميع الذين يعيشون تجربة المسيح في أكثر جزء من أجزاء الكنيسة حيويّةً، وهم كُثر حتّى في يومنا هذا، «لا تمثِّل المسيحيّة فكرةً ولا نظامًا ولا أخلاقًا، بل تمثِّل شخصًا»(١٩).

على الرغم من أنّ المعجزات تُعدّ تأكيدًا هامًّا لهويّة المسيح، وأنّ معجزات مماثلة لا تزال تحدث حتّى في يومنا هذا وتحمل الطابع نفسه، فإنّ أقوى دليل على وجود المسيح في العالم يكمن في ظاهرة القداسة التي تتدرّج نزولًا من أرقى المستويات وأكثرها إبهارًا إلى درجات عديدة من العظمة الأخلاقيّة، ثمّ إلى المؤمنين المتوازنين والملتزمين.

ويكتب جان غيتّون قائلًا: «لعلّ أكثر ما يطمئنني في الإيمان

---

(١٩) A. FROSSARD, *Il y a un autre monde*, Fayard, Paris, 1976, pp. 87. 88.

هو وجود القدّيسين»[٢٠].

«ليس القدّيسون نُسّاكًا وصائمين بالدرجة الأولى، مع أنّي أعرف منهم أناسًا يعجز المرء عن مجاراتهم. وليسوا كذلك من دعاة محبّة البشر أو من المصلحين الاجتماعيّين، مع أنّي أعرف في يومنا هذا نفوسًا بسيطة تنتمي إلى هذا النوع من الناس الممتازين... يعرِّف بطرس الرسول القداسة بأنّها الصبر والرقّة وحسن ظنّ الآخرين بنا وتدفُّق الأمل، إلخ. وأعتقد أنّه يحاول هنا أن يُعَرِّفَ ما أسمّيه العنصر المقدَّس، إذ إنّ الصعوبة، التي يواجهها أولئك الذين وُهبت لهم تلك الميزات النادرة والسامية، تكمن في أن يتجاوزوا تلك الميزات على الدوام حتّى يبلغوا صفاء الحبّ، أي الحبّ الصِّرف، ويقوموا بالواجب المتواضع الذي تقتضيه حالتهم، ويبلغوا البساطة والتواضع الإلهيّ».

«والأمر الذي لاحظته خلال حياتي كلّها في الكنيسة الكاثوليكيّة هو أنّها تنجب القدّيسين إنجابًا طبيعيًّا. وكلّما أتقدّم في السنّ وأقارن الأمور بما يجري في أماكن أخرى، أي في الطوائف الأخرى، وفي أرقى الأوساط أخلاقًا وتفانيًا ممّا أجده حولي، يتبيَّن لي أنّ الكنيسة تتميَّز، من هذه الناحية، عن الأوساط الأخرى»[٢١].

«من الواضح أنّ «القدّيسين» الذين أتحدَّث عنهم لا يملكون هذه الصفة الغريبة إلّا لأنّهم اختاروا مثالًا لهم، في قرارة نفسهم، وهو شخص المسيح، كما عرفوه من خلال إحدى صفحات الإنجيل. ويمكن القول إنّ القدّيسين كالطيف الشمسيّ الذي يمكّننا

---

(٢٠) J. GUITTON, *Ce que je crois*, B. Grasset, Paris, 1971, cit. p. 147.

(٢١) المرجع نفسه، ص ١٤٨-١٤٩.

من معرفة ما هو مجهول وغامض في الإنجيل... ولا يمكننا أن نفصل المسيح عن القدّيسين ولا القدّيسين عن المسيح. وهذا التيّار الذي يجري بينه وبينهم ذهابًا وإيّابًا هو الذي يمثّل في نظري تأكيدًا قويًّا ورقيقًا لما أؤمن به»[٢٢].

لا يزال العديد من المفكّرين والكتّاب المعاصرين يُدهَشون من ظاهرة إفراز القدّيسين الذين لا تزال الكنيسة الكاثوليكيّة تنتج أكبر أعداد منهم. وكتب ماريتان يقول: «حياتنا الأخلاقيّة العاديّة هزيلة... بحيث تبدو لنا بنيتها هشّةً في تركيبها ومهدّدة بضعفنا، حتّى إنّنا نتّجه اتّجاهًا طبيعيًّا نحو أولئك الذين وجدوا ما نبحث عنه دون جدوى، والذين يرشدوننا إلى الطريق، أي نحو أولئك الذين يسمّيهم برغسون «أبطال» الحياة الروحيّة والذين يرى أنّ «نداءهم» يعمّ البشريّة.

... إنّ كمال حبّ ما فوق الطبيعة، الذي يتجلّى في حكمة دائمة الانفتاح وحرّيّة كاملة، يمثّل في نظر برغسون إشارة من الإشارات التي تدلّ على سموّ الحياة البشريّة عند المتصوّفين المسيحيّين الذين تجاوزوا، بحسب اعتقاده، آخر الحواجز»[٢٣].

كان البحث في حياة المتصوّفين المسيحيّين وتجاربهم مع الوحي أن يُفضي ببرغسون - وهو يهوديّ - إلى اعتناق المسيحيّة الكاثوليكيّة، إلّا أنّ الموت قد منعه من ذلك.

يعرف الناس من بين القدّيسين القدّيس فرنسيس، ومعرفتهم له

---

(٢٢) المرجع نفسه، ص ١٥١-١٥٢.

(٢٣) J. MARITAIN, *Alla ricerca di Dio*, Ed. Paoline, Roma, 1972, p. 97; Cf H. BERGSON, *Les deux sources de la morale et de la religion*, Paris, 1955, pp. 242ss.

سطحيّة، ولكن إن قرأوا تاريخ الكنيسة، وجدوا أنّ المسيح قد أعطى، عبر القرون، أعدادًا لا تحصى من روائع الأخلاق والكرم، رجالًا ونساءً، ومجموعة كبيرة من تحف الجمال الروحيّ، كلّ واحدة تختلف عن الأخرى، إلّا أنّها تجتمع في أمر، وهو أنّها تضمّ جميعًا سمةً من سمات وجه المسيح.

بولس الرسول، أوغسطينس، أمبروسيوس أسقف ميلانو، غريغوريوس النزينزيّ، مبارك (بِندِكتُس)، غريغوريوس الكبير، يوحنّا الذهبيّ الفم، كلارا وفرنسيس الأسّيزيّين، بَرْنَرْدُس، بُونَفِنتورا، كاترينا السيانيّة، عبد الأحد (دومينيك)، جِرْترُودا، أنجِيل ده فولِينيو، يوحنّا الصليب، كميل ده لِلّيس Lellis، تريزيا الأفيليّة، منصور ده پول، إغناطيوس ده لويولا، فرنسيس السالسيّ، فيلبّس نيري، يوحنّا بوسكو، تريزيا الطفل يسوع، مكسيميليان كُولبه Kolbe، تريز نُويمن، شارل ده فُوكو... هذه الأسماء غَيْضٌ من فَيْضٍ، فأعداد قدّيسي الكنيسة الكاثوليكيّة تملأ السماء كالنجوم في الكون الفسيح، وهي لا تزال تُزَوَّدُ بالقدّيسين الجدد الرسميّين وغير الرسميّين.

وكتب جان دُلومو يقول: «إنّ وصف الواقع المسيحيّ الحالي، مهما بلغ من الموضوعيّة والاعتماد على علم الاجتماع، لا يمكن أن يغفل تلك الظاهرة التي لا تخفى على المراقب الجيِّد والمتمثِّلة في ما تضمّه الكنيسة - بكلّ فروعها - من بطولة يوميّة تتّصف بالمحبّة والتفاني والصبر والتواضع، ويقدِّم عليها العديد من رجال الدين والمدنيِّين الأدلّة القاطعة».

«وهل أُدهش القارئ إن قلت له إنّي قابلت وأعرف العديد من القدّيسين، أي أشخاصًا مستعدّين دائمًا لأن ينسوا أنفسهم حتّى

يكونوا في خدمة الآخرين؟»[٢٤].

وتقول الأمّ تريزا ده كلكتّا: «إن كنّا نرى العمل من منظارنا ونقيمه من وجهة نظرنا فحسب، فمن الطبيعيّ أن لا نقدر على فعل شيء. أمّا بالمسيح فإنّنا نستطيع أن نفعل كلّ شيء. ولهذا السبب أصبح عملنا الخيريّ هذا ممكنًا، لأنّنا واثقات من أنّه هو الذي يعمل معنا، ومن خلالنا، وسط الفقراء ومن أجل الفقراء»[٢٥].

ويتابع دُلومو قائلًا: «يكفي أن أنظر حولي لكي أكتشف أناسًا مدهشين في كرمهم، إلّا أنّهم يبقون طبيعيّين ولا يتباهون بصفاتهم حتّى إنّك إذا مررت بجانبهم لا تلحظ عليهم سوى لطفٍ بالغ وطيبةٍ كبرى. ولا شكّ أنّهم ليسوا جميعًا من المسيحيّين فأنا لا أريد أن أقصر القداسة على المسيحيّة ولا على أيّ دين آخر. ولكن شاءت ظروف علاقاتي أن يكون معظم الأشخاص الذين أعرفهم، والذين يتميَّزون في تفانيهم، من المسيحيّين. ويبدو لي هذا الأمر طبيعيًّا لأنّ المسيحيّة تقدِّم لهؤلاء مثالًا يُحتذى ورسالة حبّ تُعاش، وهم يحتذون هذا المثال ويعيشون هذه الرسالة»[٢٦].

المسيح معاصر

يرى مورياك في المسيح «أعظم مُنْجِبٍ للشخصيّات شهده العالم»[٢٧].

---

(٢٤) J. DELUMEAU, *Ce que je crois*, B. Grasset, Paris, 1985, p. 325.

(٢٥) M. MUGGERIDGE, *Mère Teresa de Calcutta*, Seuil, Paris, 1973, p. 98.

(٢٦) DELUMEAU, *op.cit.*. p. 334.

(٢٧) F. MAURIAC, *Paroles catholiques*, Plon, Paris, 1954, p. 20.

وندرك أنّ المسيح حيٌّ عندما نفتح له قلوبنا ويستخدم كلّ شيء «ليحوّل الماء إلى خمر»، ويحوّل حياتنا ويوجّهنا نحو كمال الحبّ العميق والسلام، الذي يعدّ أسمى تعبير عن الإنسانيّة.

«فكما يجذب المغناطيس برادة الحديد ويثبّتها على سطحه فيمغنط كلّ ذرّة فيها، كذلك يجذبنا المسيح ويثبّتنا ويمنحنا التناغم ويرقى بغرائزنا ورغباتنا وأهوائنا ومشاعرنا وأفكارنا. وهو، إذ يفعل كلّ هذا، يعيد بناء روحنا في حبّه، وتتمّ بذلك الوحدة الخالدة»(٢٨).

ويكتب الروائيّ الكبير المهتدي ألفرد دُوبلِن Alfred Döblin قائلًا: «لا بدّ أن أقول إنّ حبّه، ذلك الفيض من الحبّ، هو الشيء الذي يُدهشنا قبل كلّ شيء، والذي لا نجد له مثيلًا.

(...) «لا يفعل الحبّ فعله بهدوء فقط، فيسوع لا يكتفي كسقراط بالاقتراب من البشر واللجوء إلى السخرية اللطيفة والحكمة، ولا يعطي العِبَر، ولا يكتفي بتنوير الأفكار، بل يلجأ إلى الفعل. فيسوع حبّ مشعّ يعرف التهديد والنبذ والتنبّؤ: أي أنّه الربّ بكلّ خصائصه»(٢٩).

ويتساءل أُورس فُون بَلْتسار Urs Von Balthasar قائلًا: «ما هو العنصر الذي يميّز الديانة المسيحيّة؟ لم يعتقد أحد عبر تاريخ الكنيسة بأنّ الإجابة عن هذا السؤال تقوم فقط على تعداد الأسرار التي ينبغي الإيمان بها. فقد كانت هناك دائمًا نقطة جوهريّة تُستهدف من حيث هي قادرة على تبرير ضرورة الإيمان. ولا يمكن أن توجد

---

(٢٨) المرجع نفسه، ص ٢١.

(٢٩) A. DÖBLIN, dans *Incontri e scontri con Cristo*, Ed. Ferro, Milano, 1971, p. 320. *Der unsterbliche Mensch*, Herder, Friburg, 1959.

هذه النقطة إلّا في وحي الله، الذي تجد فيه مركزها المطلق. ويتجلّى الله في المحبّة التي تسمو علينا، والتي لهذا السبب لا تفقد حقّها وقوّتها... في أن نفهما... وفي أن تهبنا ذاتها»[٣٠].

المسيح معاصر حتّى في قرننا الحالي. فعلى الرغم من المادّيّة والإلحاد اللذين يغطّيان بالطمي الفكر المعاصر، لا يزال العديد من كبار المفكّرين والكتّاب يؤمنون به وينادون في محاولاتهم الفلسفيّة ورواياتهم بضرورة أن يتبعه المجتمع إن أراد الخلاص من التدمير الذاتيّ. ومن بين هؤلاء المفكّرين والكتّاب مَن ينتمي إلى النصف الأوّل من هذا القرن، نذكر منهم الأسماء التالية: برنانُوس وبلُوا Bloy وكلوديل ودي أونامُونو De Unamuno وإيليوت Eliot وتشيسترتُن وكرُونان وفابري Fabbri وفون لوفور Von Le Fort وماريتان وموريَاك ومرسال وپاپيني وبيغي ونيغري Negri وريلكِه Rilke وتولستوي وسيغريد أوندست Sigrid Undset وأونغاريتّي وڤايل Weil.

ومن الكتّاب المعاصرين نذكر الأسماء التالية: ده بُوربُون بُوسّيه De Bourbon Busset وسِسْبرون Cesbron وكيوزَنُو Chiusano وإندو شُوساكُو ودوبلِن وفرُوسّار وجوليان غرين وغراهام غرين وغيتّون ومارشال Marshall ومُونْتِرلان ومكسيمُوف Maximov وپارازولّي Parazolli وپُومِيليو Pomilio وكُواسْت Quoist ورُوث وروبنسُن وسانتُوتْشِي Santucci وسِينِيافْسْكي Siniavski وسولجنيتسين وتستوري Testori وسنغور Senghor وأوليڤي Ulivi وڤيزل Wiesel.

---

(٣٠) H. URS VON BALTHASAR, *L'amour seul est digne de foi*, Aubier, Montaigne, 1966, p. 7.

ويكتب دلومو قائلًا: «لئن كان سرّ الشرّ يُغرقني في القلق، فإنّ سرّ التجسُّد، على العكس، يغمرني بالأمل لأنّه يُعَلِمُني بأنّ الله نزل بنفسه بين البشر ليساعدهم على قهر كلّ أشكال الشرّ... هذا التجسُّد... هو في نظري الحدث الذي يمنح تاريخ البشر معناه، لأنّه يبيِّن لنا المشروع الإلهيّ المتعلّق بنا... وطالما أكّدت الكنيسة عبر القرون على حكمةٍ ترجع، على ما يبدو، إلى القدّيس إيريناوس: «تحوَّل الله إلى إنسان لكي يتحوَّل الإنسان إلى إله».

يرى المسيحيّون - وأنا سعيد لأنّي أنتمي إليهم - بأنّ يسوع، الذي صلب وقام من بين الأموات، موجود فعلًا بجانبنا، أو قُلْ: في داخلنا، وذلك بفضل سرّ القربان المقدَّس... الذي يضعنا على طريق ملكوت السلام. فَسِرُّ القربان المقدَّس هو الغذاء الإلهيّ لشعب يتَّجه نحو النور»[٣١].

وما من أحد مثل پاپيني استطاع أن يبيِّن إلى أيّ مدىً لا يزال المسيح معاصرًا عشيّة عام ٢٠٠٠، إذ يقول: «نحن بحاجة إليك، أنت فقط دون غيرك. فأنت، يا مَن يحبّنا، تستطيع وحدك أن ترأف بنا، نحن المعذَّبين، كما نحن نرأف بأنفسنا. وأنت وحدك تستطيع أن تشعر كم هي عظيمةٌ حاجتنا إليك في هذا العالم، وفي هذه الساعة من تاريخ العالم.

وما من عصر شعر كعصرنا بالتعطّش الشديد إلى الخلاص السماويّ. ففي أيّ عصر مضى، لم تبلغ السفالة والحرقة ما بلغاه اليوم... وأدّت الشراهة الزائدة إلى اعتياز الأمور الضروريّة،

---

(٣١) دلومو، المرجع السابق، ص ١٧٠.

وتحوّلت الرغبة الملحّة في اللذّة إلى سلسلة من العذابات، وأفضى جنون الحرّيّة إلى زيادة العقبات. . .

وعمّت الفوضى الهائجة في العالم، وسادت الجعجعة اليائسة والضجيج الذي يُفسد الجوّ الخانق، وسيطر القلق على الناس نتيجة الاستياء من كلّ شيء وحتّى من استيائهم نفسه.

هناك دين واحد يسيطر على العالم، وهو الدين الذي يعترف بالثالوث المدعوّ: وُوتان Wotan ومامُون Mammon وبِرِياپ Priape، وهو القوّة التي تتّخذ السيف رمزًا لها والثُكنَة معبدًا لها، وهو الغنى الذي يتّخذ الذهب رمزًا له والبورصة معبدًا له، وهو الجسد الذي يتّخذ العضو التناسليّ رمزًا له وبيت الدعارة معبدًا له. هذا هو الدين السائد على الأرض والذي يدعو إليه جميع البشر، إن لم يكونوا يمارسونه. فالأسرة العريقة تتفكّك، والزواج ينهار بسبب الخيانة الزوجيّة من جهتَي الرجل والمرأة. ويبدو إنجاب الأولاد للكثيرين كلعنة يجب تفاديها بكلّ الطرق غير المشروعة وبعمليّات الإجهاض. والعلاقات الجنسيّة تحلّ محلّ علاقات الحبّ المشروعة، والشذوذ الجنسيّ له دُعاتُه ومواخيره، والمومسات اللواتي يعملن علنًا أو سرًّا يحكمن جموعًا هائلة من المنهكين والمصابين بالأمراض التناسليّة. . .

بيد أنّ التجربة الكبرى تشارف على نهايتها، فلم يجد الناس الذين ابتعدوا عن الإنجيل سوى التعاسة والموت. وقد تحقّق أكثر من وعد وأكثر من تهديد، ولم يعد لنا، نحن اليائسين، إلّا الأمل بعودتك. . .»(٣٢).

---

(٣٢) G. PAPPINI, *Histoire du Christ*, Payot, Paris, 1925, p. 214.

الحبوب أم زرع الأعضاء؟

لمّا تخلّى بعض اللاهوتيّين الجدد عن الجانب التربويّ العقلانيّ في الإيمان، وجدوا أنفسهم عاجزين عن تقديم الإنجيل تقديمًا معقولًا لغير المؤمنين من الناس. فعندما ينهار الجسر القائم بين العقل والإيمان، تظهر المسيحيّة، حتّى في الغالب للإنسان المؤمن، كمجموعة من الأساطير التي ابتُدِعَتْ تلبيةً لحاجات الإنسان. فيكتب المفكِّر الكاثوليكيّ الألمانيّ روبرت شپايمان Robert Spaemann قائلًا: «إنّ تطوّر التاريخ يتّجه نحو تنامي الاعتقاد بـ «لامعقوليّة» العقيدة المسيحيّة...

«لذا تحدونا الرغبة في أن نضع جانبًا فكرة التجسُّد التي يصعب تقبّلها، ولنقدِّم المسيح كنموذج أخلاقيّ... ولمّا كانت أخلاقيّة الحبّ بين الرجل والمرأة غير مقبولة، فلنقتصر إذن على تقديم الأخلاق الاجتماعيّة».

ويقول الكردينال راتزنغر في سينودُس الأساقفة الذي عُقِدَ عام ١٩٩٠: «إنّنا نعيش اليوم في الكنيسة تلك النزعة التي يمكن تَفَهُّمُها من الناحية الإنسانيّة، والتي تقضي بإفهام عقيدتنا في الأوساط غير المؤمنة. ويُعْتَقَدُ بأنّ الجسر الواصل بين إيمان الكنيسة وعقليّة العصر الحالي يمكن أن يكون الأخلاق. ويرى الجميع ضرورة الأخلاق، لذلك فهم يقدِّمون الكنيسة كضمانةٍ أخلاقيّة، أي، كمؤسَّسة أخلاقيّة، ولا يجسرون على تقديم السرّ الإلهيّ... يمكن أن نتفهَّم هذه الطريقة في التفكير، إلّا أنّها خاطئة... فإنّ اعتمادها يؤدِّي إلى إضعاف حتّى البنية الأخلاقيّة»[٣٣].

---

(٣٣) Cf. «Introduction du Card. Ratzinger au Synode», 30 sept. 1990. *L'Osservatore Romano*, 1-2 oct. 1990.

ويتابع راتزنغر قائلًا: «إنّ البدعة البيلاجيّة القديمة (التي لا ترى في الإنجيل سوى الأخلاق) عادت إلى الظهور في السنوات العشر الماضية، فمثّلت أوّلًا الرؤية الماركسيّة للمسيح، التي بدا تيّارها جارفًا في الستّينات والسبعينات، وهي تُعْرَضُ الآن على أنّها مخزون من القيم الأخلاقيّة التي تُعَدُّ عنصر إخصاب وإغناء روحيّ للرأسماليّة.

يتمثّل العنصر المميَّز للعقيدة المسيحيّة في التجسُّد، إذ يُعَدُّ ركيزتها الأساسيّة وأهمّ عامل فيها... فإن ألغيناه أو تركناه في الظلّ، فكأنّما أردنا أن نُطلق مركبة فضائيّة وأعددنا القواذف والفنّيّين ومنصّة الإطلاق وصواريخ التوجيه والعدّ التنازليّ، ولم نوفّر القوّة الدافعة. أو كأنّما استدعينا رجال الإطفاء من أجل إطفاء حريق كبير وطلبنا منهم سقاية الأزهار فحسب.

ويبدو أنّ بعض اللاهوتيّين الجدد يعتقدون بأنّ أفضل مكان نجد فيه يدًا قد تُسعِف البشريّة هو طرف الذراع، وبأنّ العالم يحتاج إلى تغيير الزيت والاحتفاظ بالسيّارة، وبأنّه يجب علينا، إن كان المرض خطيرًا، أن نتناول بعض الحبوب على أقلّ تقدير. أمّا مَن يؤمن بالتجسُّد فله رأي آخر، مفاده أنّ الإنسان يجب أن يكون متعاونًا، أمّا يد الغوث فهي يد الله. فالعالم يحتاج إلى الاحتفاظ بالزيت وتغيير السيّارة، وحبوب «المحبّة البشريّة المتبادلة» لا تكفي؛ إذ ينبغي للمريض أن يعالج في المستشفى الذي يضطلع المسيح فيه بدور رئيس الأطبّاء، ويجب أن تُجرى له عمليّة زرع قلب.

١٢ - بوذا والمسيح والألم

بوذا وزوال الرغبات

إنّ أفضل مكان نجد فيه يد الغوث هو طرف ذراعنا. والأفضل من ذلك هو أنّنا إذا صلّينا مدَّ الله لنا يدًا قويّة، إلّا أنّه يريد منّا أن نلجأ إلى التأمُّل لنستخدم يدنا أيضًا.

لذلك لا يقتضي الأمر أن نقع في براثن التشاؤم بسبب الألم الذي نعانيه في حياتنا، إذ يمكننا بالتأمُّل أن نُطْلِقَ القوّة التي تزيل الألم، وبالصلاة يمكننا أن نستغلّ قدرة الألم على تطهير النفوس.

فإنّ غوتاما بوذا، الذي يُقَدَّرُ اليوم في أوروبّا وأميركا الشماليّة تقديرًا عاليًا، قد علَّم حتّى قدرة التأمُّل على تفادي القلق والسيطرة عليه.

وثمّة من خطاباته خطاب بيناريس Benarés يبقى مشهورًا، ولعلّ السبب في ذلك هو أنّه يعكس على نحو أفضل فكر بوذا الأصيل، ولا يزال يقبل بمضمون هذا الخطاب كلُّ بوذيّ مخلص، أيًّا كانت المدرسة التي ينتمي إليها:

«ما هو الألم، يا إخوتي؟ ما هو أصل الألم؟ وما هي إزالة الألم؟ وما هي الحياة التي تؤدّي إلى إزالة الألم؟»

«الولادة ألم، والشيخوخة ألم، والمرض ألم، والموت ألم، والحزن والشقاء واليأس ألم، وعدم الحصول على ما نرغب فيه ألم».

«ولكن ما هو، يا إخوتي، أصل الألم؟ إنّه ذلك التعطّش إلى الحياة... الذي يغذّيه الرضى. وهو التعلّق بالكيان والسعادة. هذا، يا إخوتي، ما يسمّى أصل الألم».

«ولكن، يا إخوتي، ما هي إزالة الألم؟ إنّها تمثّل في إنكار ذلك التعطّش إلى الحياة وإزالته إزالة كاملة».

«ولكن، يا إخوتي، ما هو الطريق الذي يؤدّي إلى إزالة الألم؟ إنّه الطريق المقدّس الذي يقوم على ثماني قواعد يجب اتّباعها، وهي: المعرفة المستقيمة والكلام المستقيم والفعل المستقيم والحياة المستقيمة والجهد المستقيم والعلم المستقيم والتأمّل المستقيم»(١).

المسيح وهِبةُ الحبّ الإلهيّ

بينما يعلّمنا بوذا كيف نزيل الألم بالتأمّل وكيف نقضي على جشع النفس، يقدّم لنا المسيح أشياء أكثر من ذلك بكثير.

فإنّ كبح الرغبات الجشعة والمفرطة في المال واللذّة والعظمة لا يمثّل سوى تحضير القلب وإفراغه لملئه بالتالي بالحبّ، الذي يأتي من الله، والذي يمنحنا فرحًا دائمًا وسلامًا لا يتزعزع ويغمرنا بمعنى الحياة. إنّه طريق **الهدف الأوّل**، وهو الرغبة التي نحملها

---

(١) Du *Majjhima Nakaya*, cit. dans *Buddhismo*, par les soins de C. Ghislandi, Ed. Missionarie Italiane, Bologna, 1975, p. 19.

جميعًا في أعماقنا، تلك الرغبة التي يجب ألّا نكبحها، والتي يتيح لنا المسيح فرصة إشباعها.

«أحبب الربّ إلهك... أحبب قريبك حبّك لنفسك». «أنا الكرمة وأنتم الأغصان». «ليكون فيهم فرحي التامّ» (متّى ٢٢/ ٣٧ ويو ١٥/ ٥ و١٧/ ١٣).

إنّ أكثر المناجم غنًى وأقلّها استغلالًا هو ذلك الذي يكمن تحت شعر رأسنا: ألا وهو التأمُّل. فعبارة «سأتأمَّل شريعتك... سأتأمَّل معجزاتك» تتكرَّر في المزامير (مثلًا ١١٩، ١٤٨)، وغالبًا ما يوصي المسيح بـ «حفظ كلام الله»، أي بالتأمُّل فيه (مثلًا لو ٣٨/ ١٥).

«لا تكنزوا لأنفسكم كنوزًا في الأرض، حيث يُفْسِدُ السوس والعثّ، وينقب السارقون فيسرقون. بل اكنزوا لأنفسكم كنوزًا في السماء، حيث لا يفسد السوس والعثّ، ولا ينقب السارقون فيسرقوا. فحيث يكون كنزك يكون قلبك» (متّى ٦/ ١٩-٢٠).

فإذا تأمَّل المرء كلّ يوم في حقيقة أنّ كلّ شيء يمضي، وأنّ في عالمنا هذا حتّى أجمل العواطف عابرة، وأنّ الزمان يزيل كلّ شيء، وأنّ القيم الدنيويّة تخيّب الآمال، فإنّ الرغبة في القيم الأرضيّة تتراجع، وينزع الألم إلى التضاؤل عندما تتضاءل هذه القيم أو تتلاشى. أمّا عندما أتأمّل كلّ يوم في محبّة الله لي التي يبيِّنها لي المسيح، فإنّ الرغبة في كنوز السماء، أي في المشاركة في ثروات الله الروحيّة، تنزع إلى التأجّج.

بيد أنّ المسيح هو الوحيد الذي يستطيع، بقدرته على التحويل، أن يجعل التأمُّل فعّالًا حقًّا. أمّا بوذا فقد علَّم المرء كيف

يتدبَّر أمره بنفسه على الصعيد الروحيّ، أي علَّمه مبدأ «افعل ذلك بنفسك»، وكانت غايته أن يُبرز قيمة الألم. يضيف المسيح إلى هذا الأمر العمل الجماعيّ مع الله.

يصعب علينا أن نقطع المحيط الأطلسيّ سباحةً، ولكن إذا ما سبحنا إلى مركب النجاة، أعطانا الربّ مكانًا في باخرته التي تعبر المحيط.

شرّ الطرشان مَن لا يريد أن يسمع

منذ سارتر والحديث يدور غالبًا حول «صمت الله» أمام قلق الإنسان. غير أنّ صمتًا كهذا يعيشه بالطبع الملحد الذي إذا تكلّم الله غيَّر القنال، والمؤمن السطحيّ الذي كوَّن فكرة مسبقة عن الحكمة الإلهيّة ولا يريد أن يتخلّى عنها. ففي ذهنه، الحكمة الإلهيّة هي التدخُّل الإلهيّ الهادف إلى تقويم الأحداث البشريّة وتوجيهها نحو سعادة الإنسان (الأرضيّة).

وكَتَب پوميليو قائلًا: «وبذلك تتحوَّل الحكمة الإلهيّة، في نظره، من استرحام إلى عذاب واعتراض. ويطلب إشارةً وجوابًا، بل يتوسَّل إليه توسُّلًا مُلِحًّا لكي يتخلّى عن صمته، ويبيِّن له وجوده»[٢].

يمنح الله الإنسان الذي يلتجئ إليه استقرارًا روحيًا، حتّى في هذا العالم، ولكن هذا الاستقرار يختلف عمّا يطمح إليه الإنسان الضعيف الإيمان. فهذا الأخير لا يسمع جواب الله، لأنّه يلجأ إليه ليطلب منه شرحًا يتناسب مع أفكاره، ويرفض أيّة حلول أخرى. فهو

---

(٢) M. POMILIO, *Il Natale del 1833*, Rusconi, Milano, 1982, p. 14.

لا يسأل ليحصل على جواب، بل ليحصل على جواب معيَّن.

«أنا أنادي الله وهو يلبّي ندائي ويخلّصني من جميع مخاوفي»[٣]. كتاب التوراة مليء بمثل هذه الجمل المتعلِّقة باستجابة الله للإنسان الذي يسعى إلى النور والراحة، وغالبًا ما يعيش المؤمنون هذه التجربة. ولكن من أجل تفادي صمت الله، يجب أن نحقِّق الصمت في أفكارنا. فإن كنت تتكلَّم دائمًا، فلا يمكنك أن تسمع.

المصيبة كقطعةٍ نقديّة مكسورة نجد نصفها فقط. فمنهم مَن يرى في ذلك دليلًا على أنّ نصفها الثاني موجود، أمّا غيره فيرى في هذا برهانًا على أنّ مؤسَّسة صكّ النقود لا وجود لها.

ينقل الله كلّ يوم رسائل شخصيّة إلى البشر، ولا سيّما إلى كَسيرِ القلب، ولكن لكي نتمكَّن من التقاط هذه الرسائل، ينبغي أن نولف أنفسنا على الموجة التي أرسلت عليها. «فالمسيح، بعينيه المغلقتين، ينظر إلينا من خلال الجرح نظرات دامية» (رامون غوميز دي لا سِيرنا Ramon Gomez de la Serna).

لا ينتج الله الألم، بل يساعدنا على جعل الألم منتجًا

في الأحوال العاديّة، فإنّ حياة أكثر الناس غنًى ليست من الروعة بحيث تعاش بسهولة، وإنّ حياة أفقر الناس ليست من السوء بحيث لا تستحقّ أن تعاش.

ويكتب تُولْستُوي قائلًا: «يُنذر المسيح منذ البداية تلاميذه بأنّ

---

(٣) المزمور ٣٤/٥. واطلب: مز ١١٨/٥ و١٢٠/١ و١٣٨/٣ وأشعيا ٦٥/٢٤ وإرميا ٣٣/٣ وحزقيال ١٤/٤، إلخ...

عليهم أن يتألّموا من أجل عقيدته ويناشدهم بأن يكونوا صامدين. ولكنّه لا يقول لهم إنّ ألمهم سيكون، إن تبعوه، أعظم من ألمهم إن تبعوا العالم، ويضيف بأنّ أخلاق الناس تجعلهم تعساء، أمّا تلاميذه فسيجدون السعادة»[٤].

وتكتب سيّدةٌ في مجلّة فاميليا كريستيانا ما يلي: «الأب الصالح يحبّ أولاده، ويمكنني أن أتفهّم أنّ الألم في حالتي يفيدني في التقرّب من الحقيقة. ولكنّني أتساءل: إن كان الله أبًا صالحًا، فلماذا ينبغي للعديد من الأبرياء أن يتألّموا بدون سبب؟»

ويجيب اللاهوتيّ كارلو مُولاري Carlo Molari قائلًا: «يبدو من الأفكار المطروحة في هذا التساؤل أنّ **الله هو الذي يرسل الآلام**[٥].

«على الرغم من أنّ هذه الطريقة في عرض الأمور شائعةٌ جدًّا، فإنّها لا تبدو في الحقيقة صحيحةً... يجب ألّا ننسب إلى الله أحداث التاريخ والخلق كما ننسبها إلى مسبّبها الطبيعيّ. فكلّ حدث من أحداث التاريخ والخلق له سببه الذي يتبع قوانينه الخاصّة به»[٦].

إنّ عذاب الأبرياء واختلاف المصير بين «الميسورين» و«المعوزين» هما نتيجة حتميّة لعدم كمال المادّة، شأنهما شأن الاختلاف بين المناطق الممطرة والمناطق القاحلة، وهما خاصّةً نتيجة لأخطاء البشر، كالحروب والظلم الذي يمارسه الأقوياء على

---

(٤) L. TOLSTOI, *Incontri e scontri con Cristo*, Ferro Ediz., Milano, 1971, p. 49.

(٥) التشديد هو من المؤلّف.

(٦) *Famiglia Cristiana*, n. 23 (1988), p. 17.

الضعفاء. ويتابع مولاري قائلًا: «عمل الله خَلّاقٌ دائمًا ويتيح للمرء فرصة تحمُّل حالات الألم والظلم بما يفيد ويُفضي إلى الخلاص. إذن لا يمكننا أن نقول إنّ الله يرسل الآلام إلى البشر، بل إنّه يمنحهم القدرة على تحمُّل الآلام - وإن كانت ناجمةً عن ظُلمٍ - على نحو إيجابيّ».

بمساعدة الله الداخليّة، يصبح الإنسان البريء كمنشأة لتحويل النفايات التي تلوّث مدينةً كبرى، فهي لا تُنتج تلك النفايات، بل تستخدمها.

وإذ تترك الحكمة الإلهيّة للإنسان حرّيّته، لا تستطيع أن تمنع الطالب المتمرِّد من رسم خطوط ملتوية، بل تساعد الطالب الوديع على إنجاز كتابة مستقيمة على خطوط ملتوية.

ويتابع مولاري قائلًا: «هناك عذابات عادلة تتناسب ومجريات الأمور، إن صحّ التعبير. وهناك عذابات ناجمة عن ظلم ولا مبرِّر لوجودها. فإذا أكل أحدهم، مثلًا، طعامًا فاسدًا وأحسّ بألم من جرّاء ذلك، فلا نستطيع أن نقول إنّ ألمه لا مبرِّر له. فهو ناتج عن اضطراب غذائيّ يستلزم المعالجة. وفي هذه الحالة، الهدف من الألم هو أن يُحَذِّر الإنسان المعنيّ ليمَكِّنه من تفادي تلك الآلام.

أمّا الألم الذي يعانيه شخص يكرهه الآخرون عن غير حقّ، فهو ظلم، لأنّ الكراهية لا تمثِّل سلوك الإنسان الطبيعيّ. إذن فهذا النوع من الألم مُجَرَّدٌ من المعنى ولا غاية له في حدّ ذاته. بل يمكن أن يُنْظَرَ إليه إيجابيًّا، أي بشيء من المحبّة، فيتحوَّل إلى فرصة نادرة لتحقيق تقدُّم إنسانيّ[٧].

---

(٧) المرجع نفسه.

من الضروريّ أن يثق الإنسان بالله. فلا يتمكّن المرء من أن يحكم هل المحصول يستحقّ العناء إلّا بعد أن يقوم بالحصاد. وكان العبرانيّون يتحبون في الصحراء لقلّة البصل المصريّ، إلّا أنّهم غيّروا رأيهم عندما شاهدوا أرض الميعاد.

جيُوسيبي أونغاريتّي Giuseppe Ungaretti وَرَدُّ الله على ألم البشر

إذا كان موريناك يسبر، بِحِدَّتِهِ النفسيّة المعهودة، أغوار القلب البشريّ في كلّ دقائقه، فإنّه يفعل ذلك لأنّه يعلم، كما يعلم دوستويفسكي في روايته **الإخوة كارامازوف**، بأنّ وجود الشرّ مشكلة مشحونة بالانفعال، ولا يمكن حلّها باللجوء إلى المحاكمة العقليّة فحسب. فكلّ مؤلَّفٍ من مؤلّفات موريناك يُذَكِّرُ، على نحوٍ ما، بالصرخة التي أطلقها أيّوب إلى الله. ولم يبقَ نداء أيّوب بدون استجابة. ويبيِّن الكاتب ذلك النداء بوضوح في كتاب **مراهق من الماضي**، وهو الرواية الأخيرة التي أتمّ كتابتها، إذ يقول: «لِمَ الشرّ؟ طرحت (الأمّ) هذا السؤال باكيةً، ولم تدرك أنّها تطرح ذلك السؤال الوحيد الذي من شأنه أن يُزَعْزِعَ الإيمان»(٨). ما من جواب عن هذا السؤال سوى ذلك الجسد المثبت على الصليب بالمسامير، والذي كان يمثّل جسد الربّ»(٩).

نحن نعلم جيّدًا بأنّ أقوى الحجج العقلانيّة الرامية إلى تبرير وجود الشرّ تُسْهِمُ في مواساة أولئك الذين يعانون الخطر، كما تُسهم محاضرةٌ علميّةٌ في مواساة إنسان جائع. وعلى عكس ذلك، ما من

---

(٨) F. MAURIAC, *Un adolescent d'autrefois*, Paris, 1985.

(٩) المرجع نفسه.

حدث يستطيع أن يزيل التمرُّد على الله ويُبرِزُ المحبّة الإلهيّة سوى الله نفسه، الذي قَبِلَ بالعذاب والموت. وهذا دليل جليٌّ على أنّ ارتقاء الإنسان من حالة الخطيئة إلى سموّ الحياة الإلهيّة لا يمكن أن يتمّ إلّا بهذه الطريقة.

دخل ابن الله التاريخ ولم يختر طريق النجاح. وكان قتل المسيح ظلمًا نتيجةً لعنف البشر ورفضهم رسالةَ الإنجيل المُجَدِّدة. ولكنّ المسيح عرف كيف يعيش تجربة العذاب الظالم تلك بالمحبّة وكيف يحوّل موته إلى حدث يحمل الخلاص إلى العالم. وإذا نهل المرء من منبع المسيح، استطاع أن يحوِّل أقسى الآلام وأشدّها ظلمًا إلى حدث يُفْضي إلى خلاصه.

ومهما كان الظلام حالكًا في داخلنا، فإنّنا نستطيع، بفضل يسوع، أن ننظر إلى الأعلى ونلحظ أنّ النجوم بدأت تتراءى لنا.

«إنّني أُبْصِرُ الآن في الليل الحزين، وأتعلَّم

وأعرف أنّ الجحيم يفتح في الأرض أبوابه

إذ إنّ الإنسان المجنون يخضع

لنقاء هواك.

إنّ الآلام التي ينشرها الإنسان على الأرض

تجرح قلبك.

قلبك هو مَقَرُّ

الحبّ الحقيقيّ.

أيّها المسيح، يا قلبًا ينبض ويتأمَّل

يا نجمًا تَجَسَّدَ في ظلمات البشر

يا أخًا يضحّي بنفسه

على الدوام من أجل أن يعيد إلى الإنسان إنسانيّته»[١٠].

ماريو پُومِيلِيو: الله يطلب الغفران على الصليب

في الخامس والعشرين من كانون الأوّل عام ١٨٣٣، توفّيت هَنرييت بلُونْدِيل Henriette Blondel، زوجة مانزُوني Manzoni. فوقع الكاتب أسيرًا للغمّ الشديد. وبلغ الألم ذروته بعد مضيّ ثمانية أشهر، عندما توفّيت ابنته الكبرى جُولِييت، زوجة ماسِّمُو د. أزيليو Massimo d'Azeglio. وعاش مانزوني في تلك الفترة تجربة «صمت الله».

ويسعى ماريو پوميليو في روايته التاريخيّة **ميلاد ١٨٣٣** إلى الغوص في سرّ روح مانزوني. وإذ ينقل بأمانة ملامح الكاتب الكاثوليكيّ الكبير كما يصفها التاريخ، يبيِّن كيف وجد ذلك الكاتب استجابة الله بالصلاة. وأدرك عندئذ أنّ «الله الغائب أصبح حاضرًا، إذ تحوّل إلى إنسان وتحمّل من آلامنا ما لم يتحمّله أيّوب. ووجد بذلك حلًّا للمشكلة اللامعقولة، وهي استحالة الوصول إليه، وبرَّر وجوده، وردَّ اعتباره، إن صحّ التعبير... ولم يستطع الربّ أن يمنح المغفرة إلّا بعد أن نال الغفران وهو على الصليب... فتاريخ الضحايا هو تاريخ الله... لأنّه كلّما تعرَّض الإنسان البريء للعذاب، مثَّل مرّة أخرى دور الهوى. هل قلت «مثَّل»؟ إنّه الهوى نفسه: وليس المقصود هنا بالطبع أنّ الربّ يريد أن يجدِّد في نفسه

---

(١٠) G. UNGARETTI, *Mio fiume anche tu*, dans *Incontri e scontri con Cristo*, cit. p. 464.

تضحيته الذاتيّة، كما كنت أظنّ خطأً في السابق، بل المقصود هو أنّ المسيح يصلب نفسه بنفسه. وقد يبدو هذا الإله الأعزل مدعاةً لليأس، ولكن الأمر على عكس ذلك، فإذا فكّرنا بعمق، طرحنا السؤال التالي: هل من أمر يواسينا أكثر من هذا التضامن، الذي لا يقوم على القوّة والعدالة، بل على التعاطف والمحبّة؟ في الحقيقة، إنّه مجرّد صديقي. وقد أراد صليبُ الله أن يكون ألَمَ كلٍّ من الآخرين، وأن يكون ألمُ هؤلاء هو صليب الله»(١١).

---

(١١) M. POMILIO, *Op.Cit.*, pp. 56, 128-129.

١٣ - الإيمان وعلم الاجتماع

الحاجة الفطريّة إلى الله

في عصرنا الحالي، كلّ شيء يتحسّن: المسكن والمأكل والأدوية وطرق الإنتاج والمحرّكات والحواسيب ووسائل الاتّصال والرفاهية. نعم، كلّ شيء يتحسّن إلّا البشر.

نقرأ في مسرحيّة بريشت Brecht **حكايات السيِّد كوينر** ما يلي: «سأل أحدُهم السيِّد كوينر هل الله موجود. فأجابه قائلًا: أنصحك بأن تفكِّر في ما إذا كان سلوكك سيتغيَّر وفقًا للإجابة على هذا السؤال. إن لم يكن للإجابة أيّ تأثير على سلوكك، فالأجدر بنا أن نهمل المسألة كلّها. وإن كان الأمر على عكس ذلك، فيمكنني أن أساعدك بأن أقول لك ما قد قرَّرْتَهُ أنت: وهو أنّك بحاجة إلى الله»[١].

وليس من الصحيح تأكيد وجود الله لمجرَّد أنّي بحاجة إليه. فقد تكون الحاجة إلى الله حالة مَرَضيَّةً، إذ قد يحتاج المرء إلى الله كما يحتاج الإنسان البالغ المريض إلى دمية صغيرة لينام.

---

(١) B. BRECHT, «Geschichten von Herr Keuner», dans *Gesammelte Werke*, vol. XII, Frankfurt/M., 1967, p. 180.

ولكن إن شعر الإنسان، بحكم طبيعته، بالرغبة في الله وبضرورة وجوده، فالأمر مختلف تمامًا. ففي الطبيعة، تمثّل الحاجة والرغبة الفطريّتان دليلًا على وجود ما من شأنه أن يُرضيهما.

ولئن كان بعض أنواع الطيور المهاجرة يشعر بالحاجة إلى الأراضي الاستوائيّة، فهذا دليل على وجود تلك الأراضي. ويمكن أن نقول الشيء نفسه في ما يختصّ بتطلُّعَ الإنسان إلى الصداقة، وإلى الإبداع التقنيّ، وإلى الفنّ، وإلى الفلسفة. فيدلُّ هذا على وجود استعداد باطنيّ عند الإنسان وعلى حقيقة خارجة عنه قادِرَيْن على تحقيق هذه القيم(٢).

تُفضي هذه الملاحظات إلى القول بأنَّ حقيقة الله يمكن أن تُسْتَخْلَصَ من ذلك الواقع القابل للمراقبة والبحث، والمتمثّل في الحاجة الفطريّة والطبيعيّة إلى الإيمان والدين، تلك الحاجة التي أعرب عنها الإنسان في كلّ مكان وعبر جميع العصور.

ويظهر هذا الأمر بوضوح في عصرنا الحالي وفي البلدان الصناعيّة من خلال يقظات الإيمان المستمرَّة، بل يظهر بمزيد من الوضوح من خلال الضيق النفسيّ والانحطاط الأخلاقيّ اللذين تعيشهما طبقات واسعة من الناس المبتعدين عن الله. إنحطاط أخلاقيّ ومدنيّ واجتماعيّ وسياسيّ وعائليّ وسكّانيّ، إذ نشهد تطوّرًا في التقنيات يقابله انهيار في الضمائر، وتكاثرًا في وسائل الراحة يقابله فقدان معنى الحياة، وتقدُّمًا اقتصاديًّا يقابله تقهقر أخلاقيّ. ونشهد كثيرًا من الجنس مقابل قليل من الحبّ، وتزايدًا في اللذّة مقابل قلّة في الفرح. وهذا دليل - ناتج عن وضع سلبيّ

---

(٢) Cf V. MARCOZZI, *Il problema di Dio e le scienze*, Morcelliana, Brescia 1974, pp. 136ss, 219ss.

ومؤلم - على أنّ الإنسان يحتاج اليوم إلى الله.

من فضلك، أيّها الطبيب، قُمْ بتشخيص إيجابيّ

في نظر الماديّين المحدثين، لا تكمن الحقيقة إلّا في الوقائع التي يمكن التحقُّق منها وقياسها بالأرقام. وهم يرون أنّ الأخلاق والدين ينتميان إلى العالم الذاتيّ الذي هو من ابتكار الإنسان. ورأينا أنّ الجانب الذاتيّ في الأخلاق والدين هو معرفة الذات، أي معرفة داخل الإنسان، وأنّ المرء الذي يسعى إلى هذه المعرفة بالفطرة والعقل يتوصَّل إلى حقيقة أغنى بالمعنى والأهمِّيّة «ولا تَقِلُّ صحّةً» عن تلك التي نبلغها بالطريقة العلميّة التجريبيَّة.

وتستمدّ الأخلاق والدين أدلّتها القويّة حتّى من الوقائع القابلة للقياس. فإنّ الظواهر الاجتماعيّة، التي تقبل القياس بالإحصاء إلى حدٍّ ما، تمثِّل اليوم أشدَّ الحجج إقناعًا بِضَحْضِ الماديَّة الشائعة.

١) فمن الظواهر القابلة للقياس أنّ الرفاهيّة الاقتصاديّة قد نمت نموًّا بالغًا في المئة سنة الماضية، كما نمت جميع أشكال الحضارة والإباحة التي طرحتها الماديّة الغربيّة بديلًا للإيمان والإنجيل، وصوّرتها على أنّها المصادر الوحيدة التي تمدّ الإنسان بالسعادة وتحقِّق له التنمية الفعليّة. وهي تتمثَّل في العلم، والتعليم للجميع، وتحسين الغذاء، والإعلام، واللهو، وتقليل التعب والتضحيات، والحرِّيَّة، كما تتمثَّل في زيادة الإنتاج والدخل السنويّ باستمرار، من حيثُ هما أساس جميع الخيرات. وكان من المفروض بالتالي أن يكون المجتمع الغربيّ قد بلغ في المئة سنة الماضية درجةً أرقى من السعادة ومن معنى الحياة.

٢) ومثلما بيَّنت الإحصائيّات والاستبيانات تزايدَ الرفاهيّة

الاقتصاديّة، بيّنت كذلك تراجُعَ ممارسة الشعائر الدينيّة والصلاة والتأمُّل، وتراجُعَ النهج المسيحيّ في التفكير والحياة. هذا ما يسمّى بالعلمانيّة، إذ يؤمن الناس بإله لا يؤذي البشر ولا دور له، شرط أن لا يُسديَ النصح ولا يُنزل الوحي ولا يفرض نظامًا معيشيًّا «غريبًا عن طريقة تفكير الإنسان المعاصر»[٣].

يُؤْثِرُ الإنسان المعاصر الثورة الجنسيّة على الوحي الروحيّ، ويفضِّل التقنولوجيا على اللاهوت، ويختار الرحلات الترفيهيّة بدلًا من اختيار الصليب، ويريد أن يحبّ نساء القريب بدلًا من محبّة القريب.

يعتقد الناس اليوم بأنّ الإيمان لا يسعف الإنسان كثيرًا، ولا يفكِّرون في أنّ الدواء إن لم يؤخَذْ لا يمكن أن يفيد. فمعظم الناس كالمريض الذي تعب من الطبيب الذي يعتني به منذ سنوات ومن الحمية، الفعّالة ولكن القاسية، التي يفرضها عليه، فبحث عن طبيب آخر أكثر تساهلًا. ويعاني المريض حاليًّا أوائل عواقب هذا الأمر.

الحقيقة التي لا يريد الإنسان أن يواجهها تطعنه في الظهر

إنّ الفتحة الأخطر ليست اليوم في طبقة الأوزون المتوضّعة فوق المحيط الجنوبيّ، بل في شرف البشر. فثمّة وقائع قابلة للإحصاء تثبت أنّ التخلّي عن الإيمان أو الانتماء إليه انتماءً فاترًا وغير ملتزم أدّيا، في البلدان الصناعيّة، إلى انحطاط أخلاقيّ

---

(٣) من الواضح أنّنا لا نعني هنا بـ «العلمانيّة» تقلُّص سلطة رجال الدين وانحسار تدخّلاتهم غير المبرَّرة في الشؤون العامّة، بل تراجع زخم الإيمان بالله والمسيح في حياة غالبيّة الناس الشخصيّة، وبالتالي في الحياة العامّة والتشريع.

رهيب.

فالناس مستعدّون دائمًا للدفاع عن حقوقهم الخاصّة بشراسة، إلّا أنّهم يُخِلُّون بواجباتهم كلّ يوم إخلالًا وضيعًا. إنّ ضمير الناس في عصرنا الحالي بالغ الحساسيّة، ولكن حساسيّته تقتصر على المال، بطبيعة الحال.

والقِيَم التي كان مفكِّرو القرن الماضي العلمانيّون يعتقدون بأنّها يمكن أن تحلّ محلّ الإيمان الدينيّ (النزعة الإنسانيّة والعلم والتقدُّم والعدالة والحرِّيَّة والعمل والوطن والأسرة) تمثِّل اليوم أشجارًا بلا جذور ولا ثمار ولا أوراق.

٤) وثمّة وقائع قابلة للإحصاء تُثبت أنّ انهيار الإيمان والأخلاق الاقتصاديّة والجنسيّة والعائليّة والاجتماعيّة، وأنّ الأزمة الحادّة التي تصيب القِيَم يفضيان اليوم إلى امتعاض عميق، واستياء باطنيّ ووجوديّ، وضيق نفسيّ حادّ يغزو كيان الإنسان كلّه، كما يفضيان إلى فقدان معنى الحياة. ويتجلّى كلّ هذا في ظواهر اجتماعيّة تتنامى باستمرار كالإدمان على الكحول وعلى المخدِّرات، وانعدام استقرار الحبّ والأسرة، والعنف، وتناقض الإنجاب، والأمراض العقليّة والانتحار.

وتقترب المجتمعات «المتطوّرة» في عصرنا الحالي من الوقت الذي سوف تستحقّ فيه الزوال.

العلمانيّة مثل الكيد المرتدّ إلى نحر صاحبه: فأمراض العالم الغربيّ الخطيرة «عقاب من الله»، شأنها شأن الاضطرابات والأمراض التي تصيب مَن يستنشق الهواء الشديد التلوُّث باستمرار.

نعم، فالحقيقة الكبرى التي لا يريد الإنسان أن يواجهها تطعنه

في الظهر.

الجبل غير محظور

لا يؤدّي التقدُّم الاقتصاديّ والعلميّ والتقنولوجيّ بالضرورة إلى تراجع الإيمان وانهيار القِيَم الأخلاقيّة. فلا يخضع الإنسان خضوعًا مطلقًا وحتميًّا لما تفرضه الظروف الاقتصاديّة التي يعيش فيها، كما تدّعيه المادّيّة التاريخيّة، وكما يبدو في أبحاث علم الاجتماع. فإن أراد المرء أن يقترب من الله ومن الفضيلة وجدَّ في سعيه، لاستطاع ذلك باللجوء إلى الصلاة الحيّة وإلى جماعة الإيمان، حتّى ولو كان يعيش في مجتمع علمانيّ ومريض أخلاقيًّا كالمجتمع الغربيّ.

ويحذِّر الإنجيل تحذيرًا شديدًا من إغواء الغنى (أي «معدّل الدخل المرتفع» في البلدان «المتطوِّرة») الذي – على الرغم من إيجابيّته – يصبح، بسبب انعدام الصلاة والسيطرة على الغرائز، عقدةً تخنق شعوب تلك البلدان روحيًّا، وأداة اضطهاد وهيمنة تُستخدم ضدّ الآخرين (أي البلدان «النامية»). ومن الممكن أن نبيِّن بوضوح أنّ تراجع الإيمان ليس نتيجةً حتميّة وآليّة من نتائج التقدُّم الاقتصاديّ وتعميم التعليم. ففي الواقع، تشير استقصاءات علم الاجتماع حاليًّا إلى نهضة في الإيمان العميق الذي تعيشه بشدّة جماعات قليلة من الشعوب الغربيّة. وبطبيعة الحال، تنعم هذه الجماعات بالرفاهية المادِّيَّة التي ينعم بها الآخرون، ولا شكَّ أنّ أفرادها لا ينقصهم التعليم ولا الاختصاصات العلميَّة المختلفة.

فإنّ الرفاهية، ولا سيَّما الإباحيّة، تولّدان الرغبة في التخلّي عن حسّ الواجب والإيمان، ولكن الصمود أمام هذا السيل من الغوايات يبقى ممكنًا بفضل التربية في الأسرة، وتطويع الإرادة

بالجهود الشخصيّة، ولا سيّما باللجوء المكثّف إلى الوسائل الخارقة للطبيعة.

ينمّي التعليم نزعة التشكيك ويزيد من الشكوك التي تكون قد نشأت بسبب التهاون الأخلاقيّ، لا سيّما وأنّ هذا التعليم يسلّط الضوء على زعماء اللّاأدريّة والمادّيّة، تاركًا في الظلّ المفكّرين المحدثين المؤمنين. بيد أنّ الإنسان يستطيع أن يتخطّى جبال الشكّ إذا ما تسلّح بتعليم أكمل وأعمق.

العلمانيّة وأزمة القِيَم

يكتب عالم الاجتماع إيتالو ڤكّريني Italo Vaccarini ما يلي: «في مراحل تطوُّر المجتمع الصناعيّ الأولى، كانت العَلْمنة تبدو مرتبطة بالتبجُّح العلميّ والتقنولوجيّ الناتج عن التصنيع، وباقتلاع جذور سكّان المدن والعاملين فيها وانقطاعهم عن الحياة الجماعيّة التي كانوا يعيشونها في الأوساط الريفيّة.

أمّا في مرحلة تطوُّر المجتمع الصناعيّ المتقدّمة، فكانت العلمنة تبدو مرتبطة خاصّةً بضعف الميل إلى السيطرة على الذات وإلى التضحية بالملذّات الآنية، ذلك الضعف الذي ولّده توسُّع الاستهلاك ونشر الثقافة لدى الجماهير...

وأخيرًا في المجتمع الغربيّ الحالي، يبدو أنّ العلمنة مرتبطة بمفهوم الحرّيّة المتمثّل في إمكانيّة الاختيار والعيش بمعزل عن القيود الأخلاقيّة السلوكيّة»[٤]. ولنُضِفْ إلى ذلك أنّ الناس، بطبيعة الحال، لا يزالون يصرّون على «اتّباع ضميرهم»، إلّا أنّ المقصود

---

(٤) I. VACCARINI (professeur de Sociologie de l'Univers. Cath., Siège de Brescia), «Crisi nelle società occidentali e presenza cristiana», dans *Aggiornamenti Sociali*, février 1986, p. 150.

هنا هو ضمير مائع عمّمته وسائل الإعلام، ولم يحصل على شهادته العليا من جامعة الله، بل من مطابخ الرأي العامّ الدنيويّة، أي أنّه من أكثر الضمائر تراخيًا. ومن الجدير بالذكر أنّ ذلك الضمير يعطي إجابات تختلف بحسب مراحل دورة القمر وبحسب ميول صاحبه الباطنيّة.

ويؤكّد فكّريني أنّ السمة التي تميّز المجتمع الغربيّ المعاصر هي «اللامرجعيّة»، أي غياب القواعد التي يقبل بها الجميع، ذلك الغياب الذي سببه الابتعاد عن الله، أي العلمانيّة.

وهو يصف هذه الظاهرة على النحو التالي: «إنّ الأبحاث القائمة على السلوك - أي المؤشّرات الاجتماعيّة السكّانيّة ودراسات نسب الإجرام - وعلى المواقف واتّجاهات القِيَم المتعلّقة بالمجتمعات الغربيّة المعاصرة، تشير إلى واقع يقوم أساسًا على «اللامرجعيّة»، أي تنقصه القِيَم الأخلاقيّة المرجعيّة المشتركة بين هذه المجتمعات».

"١) لامرجعيّة السلوك. فقياسًا إلى مراحل تطوُّر المجتمع الصناعيّ السابقة، نشهد الآن تزايدًا في الولادات غير الشرعيّة وفي حالات الطلاق، وزيادة في انتشار العلاقات الجنسيّة السابقة للزواج، وتناقصًا في حالات الزواج وفي نسب تكوّن الأُسَرِ المؤلّفة من زوج وزوجة وولد على الأقلّ، وتزايدًا مُطّردًا في حالات الإجهاض، الذي أصبح شرعيًا في السنوات الأخيرة الماضية، وتعميمًا في تعاطي المخدّرات على صعيد الجماهير، وتناميًا في مظاهر العنف، ونشأة الإرهاب، كما نشهد، لا سيّما في الولايات المتّحدة، انتشار العنف خارج الحدود المعهودة الزمانيّة (الأوقات الليليّة) والمكانيّة (أماكن تجمُّع الفئات العنيفة، والمترو، والحدائق

العامّة)»(٥).

"٢) لامرجعيّة المواقف. فالعمل لم يعد يُعتبر عنصر الحياة الفرديّة الأساسيّ الذي يفوق سائر العناصر في غنى معناه، إذ إنّه أخذ يفقد طبيعته القائمة على القِيَم القادرة على تنظيم الحياة اليوميّة تنظيمًا مرجعيًا، شأنه في ذلك شأن الأسرة، سواءٌ اتّخذت الشكل التقليديّ أو الشكل الذي يُرادُ لها. . .»

«وحتّى المؤسَّسات العامّة، كالأحزاب السياسيّة والدولة وغيرها، فإنّ احترامها كَقِيَمٍ يتراجع باستمرار، إذ إنّها أصبحت تتزعزع ثقة الناس بها». . .

«وأخيرًا، على صعيد الحياة العاطفيّة والحياة الجنسيّة، يتوافق سلوك البشر مع مواقفهم: فمختلف أشكال الشذوذ الجنسيّ والعائليّ، والإجهاض، والانتحار، وتعاطي المخدّرات بدأت تكتسب شرعيّةً، فقد أخذ الناس يميلون إلى اعتبارها من مظاهر حرّيّة الأفراد الشخصيّة»(٦).

الإسكندر سولجينتسين وتشخيص حالة العالم الغربيّ

اذا كنّا في الماضي نلحظ وجود بعض النشاذ في فرقة العالم الغربيّ الموسيقيّة، لأنّ العازفين لم يكونوا يتبعون توجيهات رئيس

---

(٥) نشير إلى مرجعين حول هذه المواضيع:
- عن المخدّرات: *Diffusione delle tossicodipendenze*, Minist. dell' Interno, Roma, 1984.
- عن الجنس: P. Simon, *Rapport sur le comportement sexuel des Français*, Julliard, Paris, 1972.

(٦) حول تزايد الإجرام في إيطاليا، راجع: F. FERRAROTTI, *Alle radici della violenza*, Rizzoli, Milano, 1979.

الفرقة، فإنّ عازفي اليوم يرون في أيّ ضبط موسيقيّ تعارضًا مع حرّيّتهم، وينتج عن ذلك ضجيج ناشذ وأصوات مدوية تجعل المرء يسدّ أذنيه.

ويلاحظ عالم الاجتماع المعروف پيترو سكُوپُّولا Pietro Scoppola أنّ «العلمانيّة، من حيث هي جزء من العقليّة والعادات الجماعيّة، تظهر في إيطاليا كقفزة في فراغٍ أخلاقيّ»(٧). لهذا السبب تمثّل العلمانيّة هزيمة، لا للكنيسة فحسبُ، بل للثقافات غير الدينيّة كذلك، وللإنسان على العموم. «فقد ولّى عهد هيمنة وكرُوتْشِيه Croce وغرامْشِي Gramsci، وما من هيمنة أخرى ظهرت أو على وشك الظهور»(٨). هذا التدهور الأخلاقيّ يميّع الحياة ويولّد أزمة عند الإنسان، ويشهد على ذلك انتشار نزعة الدمار والموت لدى الشباب، تلك النزعة التي تتمثّل في اللجوء إلى المخدّرات وفي انتشار حالات الإجهاض. ولا تقتصر هذه الأزمة على الناحية النفسيّة من حياة الفرد، بل تجتاح البُنى الاجتماعيّة والسياسيّة والاقتصاديّة بحيث تعيق عملها العقلانيّ.

«إنّ العلمانيّة التي تهدم القِيَم التقليديّة تهديمًا بالغًا بدون أن تستبدل بها صروحًا أخلاقيّة فعّالة، تزيد من حدّة تفسُّخ الوضع الاجتماعيّ، وتغذّي النزعة الفرديّة التي تخلو من روح المبادرة والمغامرة، والمطالبة بالحقوق بدون روح التضامن»(٩).

ويلخِّص الإسكندر سولجينتسين – وهو ممَّن مُنِحوا جائزة نوبل

---

(٧) P. SCOPPOLA, *La «nuova cristianità» perduta*, Studium, Roma, 1985, p. 144.

(٨) المرجع نفسه، ص ١٤٦.

(٩) المرجع نفسه، ص ١٥٣.

- الوضع الأخلاقيّ والدينيّ في العالم الغربيّ الحالي على النحو التالي: «خلال عقود من التآكل البطيء الذي لا نشعر به، أصبح معنى الحياة في الغرب مجرَّد «بحث عن السعادة» (المادِّيَّة)... وسَخِر الناس من مفهومَي الخير والشرّ، فاستُبْعِدا من الاستخدام العامّ، واستُبدلت بهما عبارات سياسيّة أو طبقيّة عابرة. وأصبح حتّى من المحرج أن يلجأ المرء إلى المفاهيم الإلهيّة، أو أن يؤكّد فقط أنّ الشرّ يتسلّل إلى قلب الإنسان قبل أن يدخل إلى النظام السياسيّ. وإذ تترك المجتمعات الغربيّة أجيال الشباب عُرْضَةً للإلحاد، تفقد روحها الدينيّة يومًا بعد يوم... وبذلك يُثبت الغرب أنّ خلاص الإنسان لا يكمن في كثرة الثروات المادِّيَّة ولا في تكديس الأموال».

«وإذ تُحْدِقُ الأخطار البالغة بالعالم أجمع، قد يبدو غريبًا أن يكون كيان الإنسان وانعدامه قائمًا في قلب كلّ فرد، وفي اختياره الخير أو الشرّ. ومع ذلك، هنا يكمن أضمن مفتاح نملكه. فالنظريّات الاجتماعيّة التي وعدت بالكثير أشهرت إفلاسها، وتركتنا في طريق مسدود. وسوف تكون كلّ محاولة للخروج من حالة العالم المعاصر المأسويّة بلا جدوى، إن لم نَتُبْ ونوجّه ضمائرنا مرّة أخرى إلى خالق كلّ شيء. فالحياة ليست ركضًا وراء النجاح المادّيّ، بل هي سعيٌ إلى النموّ الروحيّ. ولا يمثّل كلّ وجودنا على الأرض سوى مرحلة عبور إلى ما هو أسمى، أي أنّه درجة من درجات السلّم فحسب. ولا تكفي قوانين المادّة في حدّ ذاتها لتفسير الحياة، كما أنّها لا تمنح الحياة اتّجاهًا محدّدًا».

«ولا نجد مقابل الآمال الواهية التي قدّمها لنا القرنان الماضيان سوى السعي إلى يد الله الحارّة التي رفضناها بكثير من

التهوّر والادّعاء. وهذا هو الأمر الوحيد الذي يفتح أعيننا على أخطاء القرن العشرين البائس، ويمكّننا من محاولة إصلاحها»[10].

وليست الطبيعة الخارجيّة الخضراء هي وحدها تعترض على الانتهاكات التي يقوم بها البشر، بل إنّ الطبيعة الباطنيّة والروحيّة تثور كذلك ضدّ المبيدات اللاأخلاقيّة التي يشربها وغازات العادم التي يستنشقها.

ثمّة مثل شرقيّ يقول: «إن زرعت الشوك، فلا تتوقّع أن تُنْبِتَ زرعتك الياسمين».

وقام عدد من الكُتّاب والمفكِّرين وعلماء الاجتماع، كما قام البابا يوحنّا بولس الثاني وبعض الأساقفة واللاهوتيّين بتشخيصات شبيهة بالتشخيص الذي قام به سولجينتسين. ولا سمح الله أن يكون العالم الغربيّ كمدمن قديم يرفض أن يغيِّر عاداته، لأنّه إن كان كذلك، فالتشخيصات التي تنذر بالخطر والتكهّنات المتحفّظة سوف تفضي إلى تشريح الجثّة.

معاذ الله! ولكن الكتاب المقدَّس يعلِّمنا أنّ الكثير من الأمور التي لا يريدها الله تحدث في العالم.

باستمرار الخطأ نتدهور

أدّى التصنيع إلى نشوء الأزمة الثقافيّة والدينيّة عند الفلّاحين، إذ إنّه سبَّب قلب العادات وتفكُّك الأسرة والهجرة إلى المدن التي تُفْقِدُ الإنسان إنسانيّته. وإذ ترك للأفراد حرِّيَّة الخيار وحمَّلهم مسؤوليّة خياراتهم، سهَّل عمليّة تحويل العالم إلى كتلة هائلة،

---

(١٠) من مقال له في مجلّة *National Review*، ٢٢/٧/١٩٨٣، نيويورك.

وأسهمت في هذه العمليّة النزعة الاستهلاكيّة ووسائل الإعلام. وتتجلّى هذه الظاهرة في الملل الناجم عن العمل المجزّأ والتكراريّ، وفي الميل إلى إضعاف حسّ المسؤوليّة الشخصيّة، وفي الميل إلى مسايرة النزعات والآراء الشائعة.

ويقوم المحلّل النفسيّ المعروف إيريك فرُوم بتحليل الوضع على النحو التالي: «إذ صنع الإنسان الآلة الجديدة التي سيستخدمها في الصناعة، انهمك في بناء العالم الصناعيّ بحيث أصبحت هذه المهمّة شغله الشاغل واستنفدت جميع طاقاته. فأهمل السعي إلى الله والتفكير في خلاصه، ليكرّس جهوده كلّها إلى السيطرة على الطبيعة وإلى زيادة راحته الماديّة باستمرار. وأصبح يرى في الإنتاج غاية في حدّ ذاته، وشيئًا فشيئًا كرّس حياته كلّها لهذه الغاية. وإذ أصبح خاضعًا لعمليّة تقسيم العمل، وللمكننة المفرطة، ولضخامة الحاضرات الاجتماعيّة، أضحى جزءًا من الآلة، ولم يعد سيّدها».

«وانتهى به الأمر إلى أن يعتبر نفسه سلعةً أو قيمةً من قِيَم توظيف الأموال. ولم يعد يضع نصب عينيه سوى أن يكون عنصرًا ناجحًا، وأن يبيع نفسه بأكثر ربح ممكن في سوق العمل. وبذلك أضحت قيمته ككائن بشريّ تساوي قدرته على أن يبيع نفسه، ولم تعد تتناسب مع قدراته العاطفيّة والعقليّة، ولا مع طاقاته الفنّيّة. وسعادته رهن بإمكاناته كمستهلك، لأنّه دائم التعطّش إلى المنتوجات الجديدة والمحَسَّنة: كالموسيقى والأفلام ووسائل اللهو والملذّات الجنسيّة والكحول ولفائف التبغ».

«وإذ لا يعي الإنسان فرديّته إلّا من خلال التبعيّة الكاملة للأغلبيّة، يشعر بانعدام الأمان والقلق، ويقضي حياته في السعي إلى الحصول على تأييد الآخرين. وإذ يشعر باستلاب ذاته، يعشق ما

تنتجه يداه. ويُنَصِّبُ رؤساء له ويعتبرهم أرقى منه بدلًا من أن يكونوا من صنعه. ويمكن القول إنّه متخلِّف بالنسبة إلى التطوّر البشريّ الهامّ الذي حصل في الألف الثاني قبل الميلاد»[١١].

يقال إنّ الإنسان يتعلّم من أخطائه، ولكن من الأفضل أن نقول إنّ الاستمرار في الخطأ يؤدّي إلى الدمار.

لعلّ أرقى ما أنتجت الحضارة ما بعد الصناعيّة يتمثَّل في العالم القادر على تحمّلها

هَبْ أنّ القرون التي سبقت قرننا هذا كانت، في نظر الناس، عصرًا متّصفًا بالجهل العلميّ، وبمعدَّل أعمار منخفض، وبالتعب، وبالظلم الاجتماعيّ الفاضح، وبالأفكار الأخلاقيّة والدينيّة التي تميل إلى السذاجة. ولكن، بعد كلّ ذلك الاستنكار والنضال من أجل التقدّم، يحقّ لنا أن نتوقّع المزيد من الخير لعصرنا.

ثمّة وفرةٌ في السلع الكماليّة، ولكنَّ هناك نقصًا في الثروات الجوهريّة. فالسفن اليوم مجهَّزة بكلّ وسائل الراحة، وبأفخر المراحيض. والطعام فيها لذيذ، كما نجد فيها صالة كبيرة للحفلات ولعرض الأفلام الحاصلة على جوائز مهرجان كان Cannes السينمائيّ، إلّا أنّ بوصلة السفينة قد ألقيت في البحر.

وإذ يستند اللاهوتيّ الكنديّ رُونيه لاتُوريل René Latourelle إلى الملاحظات التي كتبها عظام المفكِّرين من أمثال هارڤي كوكس وهربرت مركوز وجان دلومو والإسكندر سولجينتسين وأوجِين إيُونِسْكُو وألْڤِين تُوفْلِر، يرسم ملامح حياة الإنسان الروحيّة (أو

---

(١١) E. FROMM, *Société aliénée et société saine, Psychanalyse de la société contemporaine*, Le Courrier du Livre, Paris, 1971, pp. 333-334.

المفتقرة إلى الروحانيّات) وهو على عتبة عام ٢٠٠٠. ولا تزال هذه المعطيات الواقعيّة جزئيّةً، إلّا أنّها تنزع إلى الاتّساع كبقعة الزيت.

أ) **العلمانيّة**: «يَقبل الإنسان المتخلّي عن الدين أو اللامبالي – على الأقلّ رسميًّا – بفكرة «موت الله» التي نادت بها مجموعة من المفكِّرين (كهيغل وفويرباخ وماركس وفرويد ونيتشه)... غير أنّ الفكرة الشائعة أكثر من هذه هي تلك التي تقول بأنّ الله موجود، ولكنّه «في عطلة»، أي أنّه موجود وغائب، ولا يتدخَّل في الشؤون البشريَّة»(١٢).

ب) **التدهور الأخلاقيّ**: من وجهة النظر هذه، يعطي الإنسان المعاصر لنفسه الحقّ في أن يضع أخلاقًا خاصّة به، ساعيًا إلى أن يبرِّر تبريرًا عقلانيًّا كلّ ما يلغيه من واجبات وكلّ ما يضيفه من حقوق. ويقع بذلك في حلقة مفرغة يولِّد فيها الانحطاط الأخلاقيّ ظروفًا حياتيّة لاإنسانيّة في نشر هذا الانحطاط.

ج) **التبعيّة لوسائل الإعلام**، التي «تمنع الإنسان من البحث عن ذاته ومن إيجاد نفسه. ويغيب الحوار: ففي صالة التلفزيون يجلس الناس كلٌّ بجانب الآخر، ولكنّهم يبقون وحيدين... تمتلئ عيونهم وآذانهم، ولكنّهم لا يفكِّرون... بل يهرب بعضهم من بعض... ويستحيل بذلك أن يدخل المرء في ذاته. «والتسطّح العقليّ الذي ينجم عن الإفراط في تعاطي وسائل الإعلام يُنْتِجُ اليوم من البدع الدينيّة ما لم ينتجه مجموع الآريّين والمانويّين والمقدونيّين والبيلاجيّين والنسطوريّين والألبيجيّين. ففي الحقيقة لم يقم هؤلاء

---

(١٢) R. LATOURELLE, *L'homme et ses problèmes à la lumière du Christ*, Desclée-Bellarmin, Tournai, 1981, p. 12.. Les citations suivantes sont aux pp. 13-14. H. COX, *La città secolare*, tr. it. Vallecchi, Firenze, 1968; A. TOFFLER, *La troisième vague*, Paris, 1980.

إلّا بأحداث بعض الاضطراب في الأفكار المتعلّقة بالله، أمّا التلفزيون فيجعل الإنسان عاجزًا عن التفكير بالله ولو قليلًا. وبذلك تصبح عقليّة بعضهم منفتحة بحيث تلقي فيها وسائل الإعلام ما تريد من النفايات.

د) **الفارق المتنامي** بين مجتمع الرفاهيّة والعالم الثالث. فثمّة شبحان يعرّضان العالم للخطر: وهما الفقر والحرب. «وهذان الواقعان مرتبطان الواحد بالآخر. فكيف يمكننا في الواقع أن نبعد خطر الحرب إن لم نقضِ على الجوع وإن لم نهدّئ الغضب والكراهية اللذين ينشآن عن الظروف القائمة على انعدام المساواة؟»

هـ) **إنعدام التواصل وضياع الهويّة**: «في المدن التقنولوجيّة»، العلاقات مع الجيران نادرة وقصيرة وسطحيّة، إذ يتجاور الناس دون أن يعرف بعضهم بعضًا. فلا يهمّ الشخص في حدّ ذاته، وإنّما المهمّ هو مكانته في المجتمع والمال الذي يملكه.

و) **إنسان العقول الالكترونيّة**. «إنّ التحقُّق والتجربة والحساب هي التي تولى الأهمّيّة دون غيرها في عصر الحواسيب. أمّا الإنسان، بحرّيّته وحصانته وسرّه ومعتقداته...، فإنّه لا يولى أيّة أهمّيّة. وإذ يُعطى الإنسان رقمًا وتُدرج المعلومات الخاصّة به في بطاقة، يغذّي العقول الالكترونيّة ويُغني الإحصاءات. ولكنّ الغريب في الأمر هو أنّ خطر التقنيات الحسابيّة يمتدّ إلى علوم الإنسان، إذ يعتبر هذا الإنسان أيضًا كالآلة التي يمكن فكُّها».

ز) **إنسان الدعاية**. وقيمه هي التالية: اللذّة ووسائل الراحة والدخل والشباب والجمال والوقاحة، بينما يحتاج العالم إلى تقليل الدعاية المتعلّقة بالمحافظة على الشباب وزيادة الدعاية التي تُعلم الإنسان كيف يصبح بالغًا.

ك) **الإنسان الأحادي البعد أو أداة الإنتاج**. «في المجتمع المعاصر، تمثّل الانتاجيّة القيمة العليا. . . فإنتاج السلع وتدمير البشر يعملان بالوتيرة نفسها»[١٣]، إذ يقوم تطوّر الشعب على احتلال المراتب الأولى في التصنيف العالميّ المعتمد على الإنتاج الوطنيّ من الصناعات الثقيلة، كما يقوم على معدّل نموّ الإنتاج الصناعيّ سنويًّا، وعلى مؤشّرات توظيف رؤوس الأموال.

ل) **إنسان الاستهلاك**. يطير الاستهلاكي فوق ما هو جوهريّ ليحوم فوق ما هو ثانويّ. فأهمّ القيم التي يدعو إليها تكمن في أسعار الدولار الأمريكيّ والين اليابانيّ والمارك الألمانيّ، وفي مقاييس أجسام نجوم الفنّ. ويقضي الناس حياتهم وهم يتنقّلون بين الإعلانات والدعايات القائمة على إبراز المتعة التي تمنحها بعض أنواع القهوة والبيرة، والإعلانات والدعايات التي تمتدح لذّة العيش التي تمنحها بعض المشروبات الروحيّة، أو بعض المنظّفات، أو بعض الأطعمة المخصّصة للقطط.

م) **إنحطاط الفنّ**. «لا يمكن لأحد أن ينكر الأمر البديهيّ المتمثّل في غياب الفنّ والله غيابًا متزامنًا عن حضارتنا، إذ يُثبت التاريخ أنّ هناك علاقة بين الفنّ والإحساس الدينيّ. وتجري الأمور وكأنّ التخلّي عن الله في حضارة ما يفضي كذلك إلى التخلّي عن الجمال»[١٤].

ن) **التدهور البيئيّ المتزايد**. العالم الصناعيّ مجتمع مُمَكْنَن ومبرمج من أجل أن ينتج دائمًا، وبطريقة التسلسل، المزيد من

---

(١٣) H. MARCUSE, *L'homme unidimensionnel*; A. SOLJENITSYNE, *Le déclin du courage*, tr. franc. de *L'Express* (19-25 juin 1978, pp. 69-76).

(١٤) J. DELUMEAU, *Ce que je crois*, B. Grasset, Paris, 1985, p. 23.

الحاجات غير الضروريّة، وأن يولّد في الوقت نفسه المزيد من التلوُّث في الجوّ والماء، وأن يُتلف المزيد من النباتات ويُهلك المزيد من الحيوانات. وتشبه هذه العمليّة ما يقوم به تلميذ الساحر الشرّير الذي لا يستطيع أن يوقف شرّه، على الرغم من المصائب التي يُنذره بها العلماء.

س) **التبعيّة الجنسيّة**. الأسرة والحبّ غذاء فانٍ ومعرَّض للخطر، ويميل الناس إلى اعتبار أوّلهما كالنار في الهشيم وإلى اعتبار الثاني كعلبة ثقاب مبلَّلة.

ع) **إدمان المخدِّرات**. نموّ هذا الإدمان دليل على فقدان القيم التي تُضفي على الحياة معناها، والتي يُستبدل بها السعي إلى لذّة عابرة لا اجتماعيّة.

ف) **إنحطاط الديمقراطيّة**. إنّ تكتّلات السلطة وتكتّلات التأثير في الرأي الأقوى والأكثر تماسكًا تملك الرأي العامّ وتتحكَّم به، وتتنافس على زيادة عائداتها، وتفرض مصالحها على الشعوب. وتعني الحرِّيَّة أن يستخدم المرء المال والممتلكات بلا حدود ولا رادع، تحت أنظار مَن يشعر بالتعاسة والحسد، لأنّه لا يملك الشيء نفسه. فالإنسان مستعدّ لفعل أيّ شيء من أجل حفنة من الدولارات، فما بالك إن كان الهدف حقيبة مليئة بالمال. ولعلّه يعتقد بأنّ المال ليس كلّ شيء، ولكنّه يرى أنّ كلّ شيء يُشترى بالمال.

ص) **عبادة الجسد**. وتتجلّى في أهمِّيَّة الرياضة المطلقة، وفي المبالغ الخياليّة التي تُدفع للاعبين الرياضيّين، وفي تكاثر الأفلام الجنسيّة.

ح) **اللغة**. ما معنى أن يعتقد الشبّان والشابّات بضرورة ملء

أحاديثهم بالكلمات القذرة والبذيئة والسوقيّة من أجل إبراز ذكائهم وموقفهم الرافض وحداثتهم، ومن أجل اتّباع النزعة السائدة بحجّة أنّها «تعكس الحياة الواقعيّة؟»

ط) **العنف**. ليس ما يدعو إلى الاستغراب من وجود الإرهاب وانتشار الجرائم الجنسيّة، وتكاثر أعمال العنف في الملاعب: فَتَحْتَ لباس القرن العشرين يقبع كائن متوحّش، ولا يحتاج مطلقًا إلى التغذية المفرطة التي تُفرض عليه من خلال الأفلام التلفزيونيّة.

وبالنتيجة، لا يزال الفيل المسنّ قادرًا على الرقص، ولكن كم من الوقت سيستمرّ على هذه الحال؟

لكي يشعر الإنسان بالرضى الداخليّ، يحتاج إلى مَثَل أعلى حقيقيّ. وقد سقطت الشيوعيّة لأنّ مَثَلها الأعلى كان مزيَّفًا. أمّا المجتمع الاستهلاكيّ، فإنّه متّجه إلى السقوط لأنّه لا يقدّم مَثَلًا أعلى على الإطلاق(١٥).

---

(١٥) J. DELUMEAU, *Le Christianisme va-t-il mourir?*, Paris, 1977; G. LANGEVIN, «Les chances et les handicaps de la foi à notre époque», *Science et Esprit*, 28 (1976).

١٤ - الأخلاق والتدهور الأخلاقيّ

عمّانوئيل لڤيناس والحرِّيَّة

يبدو من خلال ما رأينا أنّ أهمّ أسباب انحطاط الحضارة الغربيّة يتمثَّل في اللامرجعيّة، أي في عدم قبول القوانين الباطنيَّة التي تلزم الجميع، والانتقال إلى ما يسمّى خطأً بـ «الحرِّيَّة».

يكثر اليوم الناس الذين يرفضون وجود قواعد أخلاقيّة مكتوبة في طبيعة الأشياء وفي كيان الإنسان.

وفي نظر الكثير من الغربيّين، الله غير موجود، ويتجلّى عدم وجوده بطرق مختلفة. فمنهم مَن يرى أنّه كائن مطلق غير مؤذٍ، وأنّه لم يضع القوانين للطبيعة ولا للبشر. وهو لا يرى شيئًا ولا يفعل شيئًا، وهو مجرَّد كفكرة الوجود، ولا علاقة له كما لا مصلحة له في سلوك البشر الأخلاقيّ. ويرى غيرهم أنّ الله يتعارض مع حرِّيَّة الإنسان وكرامته. فلو كان موجودًا لخلق الإنسان ووضع له غاية وقانونًا طبيعيًّا. ولكن أليس مخالفًا لطبيعة الإنسان الحرّة أن تُنسَبَ إليه غاية ويوضع له قانون دون أن يتمكَّن من مناقشته أو تعديله أو رفضه؟

وليس للمصادفة قيود شديدة تشبه تلك القيود. وما صنعته المصادفة يمكن أن يُهدَمَ بسهولة. لذلك فالإله الخالق هو

المصادفة. فإن لم يكن له هدف ولا قوانين، تطابق مع الفوضى التي كانت في أصل العالم والتي سيُسرع إليها مَن يعبد ذلك الإله.

إن كانت الصدفة أصل كلّ شيء، فأنا أيضًا منحدر من الصدفة. ومن الواضح أنّ ضميري «حرّ» في أن يضع القواعد الأخلاقيّة ويُعَدِّلَها بكلّ استقلاليّة. وإذ يراعي الضمير «الحرّ» في نظري بعض المظاهر، فهو يتحرَّك لباعثَين: أوّلهما باعث إيجابيّ، والثاني هو الباعث الحقيقيّ.

«إن لم يكن الله موجودًا، فكلّ شيء مباح»، على حدّ قول دوستويفسكي. فإن كان الأمر يفرض عليَّ قيودًا قاسية، فمن الغباء أن أُلزم نفسي بتضحيات من أجل مراعاة قانون وَضَعْتُه أنا لنفسي ويمكنني أن ألغيه بالطريقة نفسها، إذ لا أساس له في طبيعة الأشياء.

تكمن كرامة الإنسان - وهذه مقولة الملحد سارتر الأساسيّة - في الحرِّيَّة المطلقة التي يضع فيها المرء قِيَمه الأخلاقيّة والتي يُضفي فيها على الحياة معنًى. ففي مسرحيّة **الذباب** لسارتر، يردّ أوريست على جوبيتير قائلًا: «كياني هو حرِّيَّتي! فما إن خلقتني حتّى استقللتُ عنك»[(١)].

ولنلاحظ أنّ أوريست محقٌّ في قوله لجوبيتير: «لأنّني إنسان، يا جوبيتير، وعلى كلّ إنسان أن يبتكر طريقة». فمن الصحيح تمامًا أنّ كلّ كرامة الإنسان تكمن في أن يعهد بنفسه إلى نفسه، وفي أن يكون ما أراد لنفسه أن يكون. فعليه أن يحقِّق ذاته بنفسه، ولا تتحقّق

---

(١) J.P. SARTRE, *Les mouches*, acte III, scène II, *Théâtre*, pp. 111 et 113.

حرّيّته إلّا بذلك. ولكن هل الوجود البشريّ غير محدَّد حقًّا؟ وهل حرّيّة الإنسان بلا حدود حقًّا؟ وهل الإنسان في الحقيقة هو خالق الخير والشرّ، وجميع القِيَم، والأخلاق ومعنى الحياة؟

المفكِّر المسيحيّ كيركغارد هو الذي ارتقى بمفهوم اختيار الإنسان حياته الخاصّة إلى مفهومٍ فلسفيّ أساسيّ يتميَّز به الوجود البشريّ، إذ يقول: «إنّي أختار المُطلق. ولكن ما هو المطلق؟ فأنا نفسي أكمن في قيمتي الخالدة»[٢]. وهذا يعني أنّني عندما أختار الله والقانون الذي كتبه في ضميري، أختار القيمة الإلهيّة التي تتّسم بها حياتي.

فإن كنت صادرًا عن قوّة إلهيّة، وإن كانت هذه القوّة قد برمجت طبيعتي وجسدي ونفسي وعقلي من أجل غاية أوّليّة وأساسيّة، فباستطاعتي أن أكون حرًّا بالفعل. وبدون ذلك الهدف الطبيعيّ، تقتصر حرّيّتي على الاختيار بين أعداد لا تُحصى من الطرق التي لا تؤدّي إلى أيِّ مكان. وعلى عكس ذلك، إذا اهتديت بتلك القوّة الإلهيّة، فباستطاعتي أن أختار بين طرق مختلفة تؤدّي بي - مع تباين إيجابيّاتها - إلى ما أرغب فيه.

وبذلك يتمثَّل الضمير في مراعاة واقع كياني والتعرّف إليه، كما يكمن في مراعاة واقع كيان الآخرين وفي سلوكي الأمثل الذي يرضي نزعتي الفطريّة السامية إلى العدالة والحقيقة والمحبّة التي وضعها الخالق في داخلي.

وبحسب قول سارتر، إن كان الله موجودًا، فلن يكون الإنسان حرًّا، بل مقيَّد بالقواعد الأخلاقيّة التي تُفرض عليه. وبذلك، لم يقم

---

(٢) S. KIERKEGAARD, *Entweder-Oder*, vol. II, Dusseldorf, 1957, p. 227.

سارتر سوى بقلب الحجج التي قدّمها پسكال وكيركغارد وماريتان وغيرهم من كبار المفكِّرين الروحانيّين.

وعلى حدّ قول المفكِّرين الروحانيّين، يملك الإنسان توجّهًا قويًا نحو الشرف والعدالة. ولم يصنع الإنسان هذا التوجّه بنفسه، ولم يصدر بالضرورة عن تربية الأجداد (إذ طالما خرق هؤلاء ذلك التوجّه نحو الخير)، بل صدر عن طبيعة الأشياء نفسها. إذن هناك ضمير خلّاق أدّى إلى نشوء ذلك التوجّه.

وحتّى الفيلسوف المعاصر المعروف عمّانوئيل لڤيناس، الذي ينطلق من فكرة سارتر نفسها القائلة بأنّ الإنسان حرّ، يتوصّل إلى نتائج تقع على نقيض النتائج التي توصّل إليها مؤلِّف رواية الفتيان (سارتر). يعرف الإنسان أنّه خلق ليتمتّع بحرِّيَّة حقيقيّة، ولكن بدون الله وقانونه الأخلاقيّ، لن يكون الإنسان حرًّا. إذن فالله موجود(٣).

ڤيرنِر هايْزِمْبِرغ Werner Heisemberg والله كأساس الأخلاق

لعلّ الوقائع التي ذكرناها في الفصل السابق (علم الاجتماع والإيمان) تبيِّن لنا أنّ أساس الحرِّيَّة والديمقراطيّة الثابت يكمن في وعي جميع الناس وقبولهم بثلاثة مبادئ تعتبرها جميع الأديان وحتّى أعظم الفلاسفة المعاصرين حقائق أساسيّة يعيشها كلّ إنسان:

- يتمتّع كلّ كائن بشريّ بحرِّيَّة الاختيار
- في كلّ كائن بشريّ قانون أخلاقيّ أساسيّ، لم يوجده

---

(٣) E. LEVINAS, *De Dieu qui vient à l'aide*, trad. it. Jaca Book, Milano 1983.

الإنسان، ولا يستطيع أن يغيّره كيفما شاء، بل يستمدّ منه الأحكام الأخلاقيّة التي يطلقها على كلّ حالة من الحالات.

- يحقّق كلّ كائن بشريّ حرّيّته وكرامته وقيمته كإنسان بمراعاة هذا القانون. أمّا إذا انتهكه فيفقد قيمته الإنسانيّة.

وإذا أنكر الإنسان - كما يفعل الناس اليوم - حرّيّة الاختيار والقانون الأخلاقيّ العامّ والخطأ الشخصيّ، عَرَّضَ للخطر تلك الحرّيّة وتلك الديمقراطيّة اللتين كان يُرادُ وضعهما في قمّة القِيَم، وبدأ يتّجه نحو تدميرهما.

ويصرّح ڤيرنر هايزمبرغ، مخترع النظريّة الكمّيّة وحائز جائزة نوبل في الفيزياء عام ١٩٣٢، قائلًا: «عندما تكُفُّ المُثل العليا عن إنارة الطريق، يضيع معيار القِيَم ويضيع معه معنى أفعالنا وآلامنا، وبالتالي فإنّ ما يسود في النهاية هو النكران واليأس. إذن فالدين هو أساس الأخلاق، والأخلاق هي أيضًا أساس الحياة. ففي كلّ يوم، يجب علينا أن نتّخذ القرارات، وأن نعرف، أو على الأقلّ أن نخمّن، ما هي القِيَم التي ينبغي أن توجّه سلوكنا»(٤). وكان هايزمبرغ قد ذكر مواقف كبار الفيزيائيّين: ألبير أينشتاين وماكس پلانك ونيلز بُوهر Niels Bohr، من الدين، واتّخذ موقفًا في «الندوات الأولى حول العلاقة بين العلوم الطبيعيّة والدين» ضدّ الحجج المعهودة التي يقدّمها مَن ينتقدون الدين ويرون فيه إسقاطًا ومخدّرًا ووهمًا وما إلى ذلك. ومنذ ذلك الوقت، عَرَّفَ العلوم الطبيعيّة على أنّها «أساس السلوك الناجح تقنيًا، والدين على أنّه أساس الأخلاق»(٥).

---

(٤) W. HEISEMBERG, «Discours à l'Académie catholique de Bavière», dans *Schritte über Grenzen*, München, 1973, p. 335.

(٥) W. HEISEMBERG, *Der Teil und das Ganze*, Gesprächte im=

وعلى حدّ قول الفيلسوف هايدِغِر، ما يميِّز النمط الخاصّ بكيان الإنسان هو أنّه «ليس موجودًا»، أي أنّه «ليس حاضرًا» كصخرة أو شجرة، بل هو «موجود» بمعنى أنّه «يلقي نفسه في الحرِّيَّة انطلاقًا من إمكاناته الخاصّة، ويحقِّق بذلك وجوده وسط العالم وبين البشر. ويشمل هذا مسؤوليّة خياراته الأخلاقيّة، والسيّئات والحسنات.

وإذ نلحظ أنّ حرِّيّة الاختيار تُنكَرُ استنادًا إلى الحتميّة النفسيّة والاجتماعيّة، التي ترى في الكائن البشريّ آلةً بيولوجيّة تحرّكها الغرائز وتتحكّم فيها، يجب ألّا ننسى أنّ الفلسفة الوجوديّة الحاليّة تُبرز - على عكس ما تَقَدَّم - أهمِّيَّة المسؤوليَّة الشخصيَّة.

إنّ الكتب اليهوديّة والمسيحيّة، شأنها شأن القرآن والكتب المقدَّسة الهندوسيّة والبوذيّة والكونفوشيوسيّة والتاويّة تُعَلِّمُ بوضوح أنّ كلّ إنسان يحدِّد باختياره الحرّ مصيره المستقبليّ الخاصّ به.

ففي القرآن نجد ما يلي: «إذا السماءُ انفَطَرَتْ، وإذا الكواكِبُ انتشَرَتْ، وإذا البحارُ فُجِّرَتْ، وإذا القُبورُ بُعْثِرَتْ، عَلِمَتْ نفسٌ ما قَدَّمَتْ وأَخَّرَتْ»(٦).

وسوف تكون نتائج اختيارنا حاسمة في الآخرة، ولكن حتّى في عالمنا هذا، غالبًا ما يعيش الإنسان نتائج خياراته.

ويرى بعض الناس أنّ القبول بأنّ الله قد وضع لهم قانونًا أخلاقيًّا مُلْزِمًا يُعَدُّ مساسًا بكرامتهم وحرِّيَّتهم. ولكن لماذا لا يرون إذن في إشارات قانون السير تعسُّفًا تمارسه السلطة؟

=Umkreis der Atomphysik, München, 1969, p. 116.

(٦) سورة الانفطار ١-٥.

هل الخطيئة مفهوم لا يناسب العصر؟

ينسب الإنسان المعاصر كلّ الشرور إلى عوامل خارجيّة، إلى أسباب تخرج عن نطاق قراراته الشخصيّة بسبب ضخامتها، وتتمثّل في «النظام»، والحكومات، والقوانين القديمة، وتنظيم المدن، والمجتمع، وسرعة التغيّرات التقنولوجيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة الهائلة، والوراثة، والبيئة، والتربية المكتسبة، وغيرها. ويرى الإنسان أنّ هذه المسؤوليّات لا تقع على عاتق الأفراد مطلقًا، ولا تقع البتّة على عاتقه هو.

ومن البديهيّ أنّ العوامل التي ذكرناها آنفًا تسهم جميعًا في إقامة الوضع الذي نعيش فيه، وتوحي للفرد بسلوك معيّن. ولكن لماذا لا نولي كذلك شيئًا من الأهمّيّة لحسنات الفرد وسيّئاته الأخلاقيّة؟

لقد انتقلنا من الإفراط في تحميل الإنسان الذنوب، في السابق، إلى تبرئة الإنسان من كلّ الذنوب، في وقتنا الحالي. لعلّنا نعترف في يومنا هذا بالذنوب القضائيّة، ولكن، في حقيقة أنفسنا، نحن جميعًا كالرجال الآليّين المبرمجين، إذ تتحكّم فينا الوراثة والبيئة والمجتمع.

ونجد في التوراة القول التالي: «فإن شئت، حفظت الوصايا وأتممت ما يرضيه بأمانة... الحياة والموت أمام الناس فما أعجبهم يُعطى لهم» (سي ١٥/ ١٥-١٧).

وبحسب النصوص البوذيّة، إنّنا نقترف الآثام بخطإنا، وبخطإنا نتألّم؛ كما نكفّ عن اقتراف الشرور بجهدنا، وبجهدنا نتطهّر»(٧).

---

(٧) Dhammapada, in Aa. Vv., *Le grandi religioni del mondo*, Ed. Paoline, Modena, 1977, p. 126.

إنكار حرِّيَّة الاختيار ذريعة سهلة للتخلُّص من عناء السيطرة على غرائزنا، ولاتّباع طريق السهولة المنحدر. ولعلّ المرء الذي يُخِلُّ بواجبه يجد عزاءً في الادّعاء أنّه لم يكن قادرًا على فعل شيء، ولكنّه يعلم في الغالب أنّ ذريعته باطلة. وما تجدر ملاحظته هو أنّنا لا نسمح للآخرين باللجوء إلى هذه الذريعة إلّا نادرًا.

ونجد في كتابات جان دلومو ما يلي: «في الحضارة التي ورثناها، أُولِيَتْ الخطيئة أهمِّيَّة بالغة. والدين المسيحيّ هو الذي أوجد كلمتَي peccator و peccatrix (أي «الخاطئ» و«الخاطئة») اللتين لم تكونا موجودتين في اللغة اللاتينيّة الكلّاسيكيّة. والدعوة إلى فحص الضمير أدّت مع الزمن إلى تنمية التأمّل على نحو لا مثيل له، وطوّرت حسّ المسؤوليّة الفرديّة، ونَمَّتْ أخلاقًا قائمة على النيّة، وأفهمت الناس خطورة إهمال بعض الأمور، وولّدت ضغطًا خلّاقًا، كما أنّها أفضت بالمقابل إلى نشوء مفهوم الظروف المُخَفِّفَة التي تُعَدُّ الآن جزءًا من جهازنا العقليّ»(٨).

ويستهجن دلومو ما كان يمارَس في القرون الماضية من تسلُّط يعتمد على الإفراط في تحميل الإنسان الذنوب. إلّا أنّه يستنكر أيضًا ما هو أضَرُّ من ذلك في عصرنا، الذي «يبدو أنّه يُعْرِضُ عن الخطيئة الفرديّة ويميل إلى صَبِّ اهتمامه... على المسؤوليّات الجماعيّة التي تقع على عاتق الشعوب والطبقات الاجتماعيّة والأنظمة السياسيّة». ويستشهد المؤلِّف بالبابا يوحنّا بولس الثاني الذي تحدَّث في مدينة لورد، في ١٤ آب ١٩٨٣، و«طلب من المسيح أن يرحم أولئك الذين لم يعودوا يعرفون معنى الخطيئة، أو لم يعودوا يجرؤون على معرفته، وكأنّ ذلك سيسلبهم حرِّيّتهم». ويقول البابا

---

(٨) J. DELUMEAU, *Ce que je crois*, B. Grasset, Paris, 1985, p. 94.

كذلك: «إنّ معنى الخطيئة زال زوالًا جزئيًّا لأنّ معنى الله بدأ يَخفت وساد الظلام في الضمائر كما في زمن الخطيئة الأولى، فلم تعد تميّز بين الخير والشرّ».

وإذ يفعل الناس ذلك في عصرنا، يقطعون بعناية وسرعةٍ ذلك الغصن الذي يجلسون عليه.

لمَ لا نسمّي الشرّ باسمه؟

بين الحين والحين، تُطرح قضيّة السلوك الإجراميّ أو الملتوي أو الرذيل أو اللااجتماعيّ: كالمخدِّرات والدعارة والإرهاب والعنف وجشع المال والشذوذ الجنسيّ، وغير ذلك. ومن المدهش هنا أن نلاحظ الطريقة العقيمة والسطحيّة التي تُعالَج بها هذه المسائل. وهذا دليل على أنّ الانحطاط الأخلاقيّ هدّم سلوك البشر، ثمّ أخذ في تهديم مفهوم الخير والشرّ نفسه.

لم تعد كلمة «خطيئة» معاصرة لأنّها تفترض وجود الله ووجود القانون الأخلاقيّ الذي زرعه في ضمائر البشر. فلعلّ هذه الكلمة «تمسّ حرِّيَّة الرأي عند المخاطَب». كما يبدو أنّ كلمتَي «الذنب» و«الشرّ» أصبحتا ممّا عفا عليه الزمان، إذ إنّهما تفترضان وجود سلوك فوضويّ وخاطئ أو مخالف للقواعد الأخلاقيّة الداخليّة الصالحة للجميع. وتفترضان جزئيًّا أنّ الإنسان يستطيع أن يختار بوعي وحرِّيَّة شيئًا ما هو يدرك أنّه شرّ، وهذا ما يتعارض مع العقيدة الحديثة التي تنكر وجود قوانين أخلاقيّة ثابتة وعالميّة، وترفض فكرة أنّ الإنسان يبقى دائمًا - بحسب أفكار جان جاك روسّو - بريئًا وطيّب النيّة، وأنّه لا ينحرف إلّا بسبب المجتمع.

ومِنَ الناس مَنْ يُعَبِّرُ عن ضرورة التشدُّد في بعض العقوبات

المتعلّقة ببعض الجرائم التي تنتهك حقوق الغير انتهاكًا بالغًا، ولكنّه يُعْتَبَرُ جاهلًا في علم النفس وساديًّا. وفي الحالات التي يكتسي فيها مفهوم الشرّ أهمّيّة بالغة كمعيار داخليّ لتحديد خطر السلوك، في هذه الحالات بالذات يتبدَّد مفهوم الشرّ. ويشعر المرء بالحرج عند ذكر كلمة «الشرّ»، إذ يخشى أن يُعْتَبَرَ مزعجًا وغير عصريّ.

وطُرحت مجموعة كبيرة من الحلول البديلة: «هذا خطأ»، و«هذا غباء»، و«هذا لا يُفهم»، و«هذا خروج عن القانون» (إذ يرى الناس إنّ كلّ ما يخرج عن نطاق قانون العقوبات لا يمكن أن يُدان أخلاقيًّا)، «وهذا فعل صادر عن شخص عديم الفهم والإرادة» (إذ يُفترض أنّ الذنب لا يمكن أن يُقتَرف بناءً على اختيار حرّ)، «ومفهومنا عن الحياة مختلف» (إذ يُعتقد بأنّ لكلّ فرد الحقّ في أن يتبنّى آراء شخصيّة تتعلّق حتّى بالرذيلة والفضيلة، وبالاستقامة والجنوح)(٩).

ويكتب عالم الاجتماع فرانشسكو ألبيروني Francesco Alberoni في رائعته قائلًا: «لا يَعِدُ المجتمع الذي يتباهى بأنّه فوق الخير والشرّ إلّا بالأنانيّة والاضطهاد وامتداح القوّة»(١٠).

عندما لا يعود المرء قادرًا على التمييز بين شرب السمّ وشرب الحليب، فإنّ في هذا ما يدعو حقًّا إلى القلق.

وعلى حدّ قول تشرشل Churchill، لو عاش القدّيس جاورجيوس في أيّامنا هذه، لما تسلّح بالرمح والترس، بل ببعض العبارات المطّاطة، ولأقيمت الموائد المستديرة والمناقشات

---

(٩) Meg GREENFIELD, *News Week*, 28/7/1986, New York.

(١٠) F. ALBERONI, *Le ragioni del bene e del male*, Garzanti, Milano, 1981.

التلفزيونيّة الرامية إلى إظهار مَن هو مع التنّين ومَن هو ضدّه، وذلك باسم الديمقراطيّة والمساواة في الرأي، بينما يسرح التنّين ويمرح بكلّ حرّيّة.

هناك ما هو أسوأ من انتشار المخدِّرات

«حرّيّة الضمير» هو النجمة المتلألئة التي ينبهر بها الإنسان الغربيّ ويثبت نظره عليها وهو يمشي. وفراغ القِيَم هو الهوّة العميقة والشديدة الانحدار التي يلقي بنفسه فيها.

إنّ أيَّ وضع تاريخيّ، سواءٌ أكان تقدُّمًا أم انحطاطًا حضاريًّا وثقافيًّا، يصدر عن الجيل السابق وعن الأوضاع الاقتصاديّة والاجتماعيّة التي تهيِّئ له وتسهِّل نشوءه... ويطلق علماء الاجتماع والمؤرِّخون على هذه الأوضاع اسم «الأسباب». ومن الأفضل أن يُطلق عليها اسم «الظروف المهيِّئة»، لأنّها أسبابٌ مُلازِمة، أي مواتية وليست مُسَبِّبَة بالضرورة، فالناس الذين يعانون من مرض نفسيّ خطير هم الوحيدون الذين لا يُسألون عن أفعالهم. وبحسب رأي معظم المفكِّرين الكبار، أسباب السلوك البشريّ الحقيقيّة - حتّى وإن كان سلوكًا جماعيًّا - يُعْزَى إلى حرّيّة اختيار الأفراد، الذين يقرِّرون الاتّجاه نزولًا أو صعودًا، واتّباع العامّة أو الخاصّة.

وإن كان الإنسان ينحو، إلى حدّ ما، منحى النزعة السائدة والحلول السهلة، فإنّه يبقى مسؤولًا عن الوجهة التي يعتمدها في حياته، وهذا ما يؤكّده الواقع الحالي حيث نجد العديد من المجموعات الأقلّيّة التي تؤمن بالله وبالأخلاق، والتي تحاول مواجهة التيّار بشجاعة، يؤيِّدها في ذلك بعض المفكِّرين والكتّاب الذين يتّجهون الاتّجاه نفسه.

لذلك، فالأمر الأخطر من انتشار المخدِّرات واللصوصيّة هو الفكرة القاتلة التي نجدها في وسائل الإعلام والمدارس والعروض، والتي مفادها أنّ كلّ إنسان يستطيع أن يُوجِدَ ويتبعَ آراءه الأخلاقيّة الخاصّة به، وأنّ الآراء تتساوى في هذا المجال، وأنّه ليس من حقّ أحد أن يدين رأي غيره. فإذا ما أخذنا طريقة الحياة هذه بالمعنى المطلق، وبدون أن نميِّز ما ينبغي تمييزه، فإنّها تُعَدُّ أكثر إجرامًا من الاتّجار بالمخدِّرات، إذ إنّها لا تدين مرتكب الجريمة، بل تستهجن مَن يدينه، ولا تُحَمِّلُ الذنب لمَن اقترفه، بل لمَن يحارب الذنب.

يجب أن يكون ضميرنا حرًّا وأن نتبعه، ولكن لا ننسيَنَّ أنّ الضمير أداة بالغة الحساسيّة، إذ يسهل تعكير صفائه، كما أنّه لا يعمل ولا يدلّ المرء على الطريق الذي ينبغي اتّباعه إلّا إذا سيطر على غرائزه سيطرة تامّة. ويجب على كلّ فرد أن يسعى منذ طفولته إلى تكوين ضميره بالتجربة والتدرّب الصعب على السيطرة على النفس، وبالمقارنة مع الآراء والأمثلة التي يقدِّمها أولئك الذين يتميَّزون بحياتهم الأخلاقيّة. وبذلك فقط يمكن للمرء أن يتبع ضميره ويستفيد منه.

فبعد أن يتعلَّم الإنسان قانون السير، وأن يواظب على دروس تعليم قيادة السيّارات، وبعد قضاء وقتٍ كافٍ في التدريب الحذر، يمكنه أن يقود السيّارة وهو مطمئنّ(١١).

---

(١١) قالت ريتا ليڤي مُونتَلْتشيني، الحائزة جائزة نوبل العامَ ١٩٨٦: «الأمر المهمّ الوحيد هو المبادئ الخلقيّة والأدبيّة. فمن الأهمّيّة بمكان أن ننظر، لا إلى ذواتنا فقط، بل إلى الآخرين أيضًا» *Avvenire*, 11/2/1990, p. 13.

هل الفرد حرّ في أن يضع لنفسه قانونه الأخلاقيّ الخاصّ؟

الضمير هو بوصلة الحياة البشريَّة، وهو يبيِّن اتّجاه الشمال للجميع دون تمييز. وإن فقدت الإبرة مغنطيسها، عندئذ يستطيع بحّار الإشارة أن يغيِّر اتّجاهها كيفما شاء، إلّا أنّ ذلك ليس في صالحه. ويبيِّن الكاتب والفيلسوف الإنكليزيّ كلايْف ستاپلز لُوِيس Clive Staples Lewis الخطر القاتل المتمثِّل في تدمير الإنسان عن طريق نسف أُسس أخلاقنا. ويُبرز بداهة الأخلاق التي تهمّ كلّ البشريّة، لأنّ بقاء الإنسان كإنسان متوقّف عليها. وإذ يستعرض بسرعة كلّ الثقافات العظمى، يبرهن على أنّ بداهة الأخلاق لا تزال قائمة في كلّ مكان. ويبيِّن أنّ أصلها لا يقتصر على التراث الأخلاقيّ الذي خلَّفه الإغريق والذي كان بالتحديد من نتاج أفلاطون وأرسطو والرواقيّين الذين أرادوا حثّ الإنسان على العيش بحسب عقلانيّة كيانه، ودعوا بالتالي إلى تربية تتوافق في جوهرها مع العقل، بل يرجّح أصل الأخلاق كذلك إلى الهندوسيّة الأصليّة وإلى مفهوم الـ «إرتا» «Rta» الذي يعني التناغم بين النظام الكونيّ والفضيلة الأخلاقيّة وطقوس المعبد.

ويسلِّط لويس الضوء خاصّةً على العقيدة الصينيّة المتعلِّقة بالـ «تاو» «Tao» الذي «هو الطبيعة والسبيل والدرب والطريقة التي يتحرَّك بها كلّ شيء... وهو الطريق الذي يجب أن يسلكه كلّ إنسان مُقَلِّدًا ذلك النهج الكونيّ وفوق الكونيّ، وموجّهًا حركته بحسب ذلك النموذج الكبير».

وفي مجموع معارف الثقافات العظمى، نجد بعض الاختلافات في التفاصيل. بيد أنّ الأهمّ من هذه الاختلافات هو ذلك التراث العظيم المشترك الذي يمثِّل أكثر الأمور بداهة في

الحياة البشريّة: وهو أن نُعلّم الناس أنّ هناك قيمًا موضوعيّة ثابتة في كيان العالم، وأن نؤمن بأنّ السلوك يكون صحيحًا، وبالتالي خيرًا، إذا توافق مع رسالة العالم الكلّيّة، ويكون، على العكس، سيّئًا حقًّا إذا ابتعد عن الكيان المطلق.

والفكرة الفطريّة القائلة بضرورة انسجام الكائن البشريّ مع رسالة الطبيعة مشتركةٌ بين جميع الثقافات العظيمة، وبالتالي فإنّ أهمّ الضوابط الأخلاقيّة مشتركة أيضًا بين تلك الثقافات... وقد صاغ لُوِيس هذه الفكرة صياغة متينة، إذ قال: «إنّ ما أسميته «تاو» للسهولة وما يسمّيه غَيري القانون الطبيعيّ أو الأخلاق التقليديّة أو أساسيّات العقل العمليّ، أو حتّى الحقائق الأوّليّة ليس نظامًا من نُظُم القِيَم، بل هو المصدر الوحيد الذي تنشأ منه جميع أحكام القِيَم. فإذا رفضناه، فكأنّنا نرفض جميع القِيَم، وإذا احتفظنا بقيمة واحد منه، فكأنّنا نحتفظ به كاملًا، وإذا ما حاولنا دحض مصدر القِيَم هذا، وأقمنا مكانه نظام قِيَم جديد، وقعنا في التناقض»(١٢).

مكبِّر صوت لصوت الضمير الضعيف

يلاحظ الكردينال راتزنغر أنّ «كلمتَي «ضمير» و«حرّيّة» يمكن أن تُعْتَبَرا مفهومَين أساسيّين من مفاهيم الاتّجاه العامّ الجديد. وتقوم وظيفتها على إضفاء حالة أخلاقيّة جديدة على تَغَيُّرِ السلوك الذي يمكن أن يُعَدَّ، للوهلة الأولى، غيابًا للضوابط الأخلاقيّة وموقفًا متراخيًا.

---

(١٢) C.S. LEWIS, *L'abolition de l'homme*, Criterion, 1986, p. 121, cité par J. RATZINGER, *Il tramonto dell'uomo e la scommessa della Fede*, discorso alla Katholische Universitat di Eichstätt, dans *Avvenire*, 11 mars 1988.

ولم يَعُدْ مفهوم «الضمير» يدلّ على اللجوء إلى المرجع الأعلى، بل على حقّ الفرد في تقرير مصيره، ذلك الحقّ الذي لا يخضع لأيِّ قوانين خارجيّة، والذي يلجأ إليه الفرد ليقرِّر ما هو أخلاقيّ، بحسب معاييره، في موقف معيَّن.

«وبذلك يصبح مفهوم «القاعدة» أو حتّى مفهوم «القانون الأخلاقيّ» في حدّ ذاته واقعًا سلبيًّا، أو إيعازًا يأتي من الخارج، ويمكن أن ينقل نماذج توجيهيّة، ولكن لا يمكنه، في أيِّ حال من الأحوال، أن يفرض قيودًا مُلْزِمَةً»(١٣).

ويعرف المؤمن أنّ الله ليس خارجًا عنّا، وأنّه لا يُرغمنا إلّا على اتّباع أعمق ميولنا الباطنيّة، التي تكون لاشعوريّة أحيانًا.

إنّ الملحدين، من أمثال سارتر، الذين دعوا إلى «حرِّيّة» الفرد في أن يصنع أخلاقه الخاصّة به، لم يخرّبوا ويهدِّموا الدين فحسب، بل قَوَّضوا كذلك أركان المجتمع البشريّ. فعندما يزول القانون الذي سجّله الله في الضمائر، لا يبقى سوى قانون الأحوال المدنيّة وقانون العقوبات اللذين لا قيمة لهما، بدون القانون الباطنيّ، عندما يكون المرء بعيدًا عن أنظار الآخرين.

ففي عالمنا الزاخر بالمثيرات والإغراءات، يتّخذ الإنسانُ الجَشَعَ أمًّا ويتّخذ نزعةَ الشرّ المسيطرة أبًا.

وحتّى السارق، عندما يُكتشَف أمره، يقول لك إنّ مهنته، في مجتمع فاسد، عملٌ كسائر الأعمال، بل هو عمل ذو وظيفة اجتماعيّة تقوم على إعادة التوازن في توزيع الثروات التي اكتُسبت بالطرق غير المشروعة.

---

(١٣) راتزنغر، المرجع نفسه.

وغالبًا ما يزيِّن الضميرُ الأمورَ وهو يضغط بإصبعه على إحدى كفَّي الميزان.

الضمير موضوعيّ، بل قد يكون قاسيًا في الحكم على سلوك الآخرين، ولكنّه عندما يُحَدِّثُ صاحبه عن واجباته الصعبة، يصبح صوته ضعيفًا بحيث لا يمكن سماعه إلّا باستخدام مكبِّر صوت.

الغرائز البيولوجيّة والتطلّعات الروحيّة

يمكن أن تُلخَّص الأخلاق الطبيعيّة بالأمر التالي: أرضِ حاجاتك المادِّيَّة التي تناديك بالصراخ، وهدِّئ حاجاتك الروحيّة التي تناديك بالهمس.

الحاجات البشريَّة كَعُشٍّ بلبلٍ يضمّ فَرخَيْ وَقْوَقٍ وفرخَي بلبلٍ. فرخا الوقوق حجمهما أكبر، وهما يُطلقان صرخات قويّة ويفتحان منقاريهما الكبيرين، إذ إنّهما يريدان كلّ شيء لهما. ولو لم تكن أمّ البلبلَين الصغيرَين تُصِرُّ على تغذيتهما، لتركهما فرخا الوقوق يموتان جوعًا.

وتذكِّرنا هذه الطيور بنقابات عمّال الصناعات المعدنيّة وعمّال الزراعة والمتقاعدين. فليس من الصحيح أنّ زيادة المكاسب هي دائمًا في صالح الذين هم أثقل وزنًا، أو الذين يصرخون بصوت أعلى من صوت غيرهم أو يقومون بعدد أكبر من الإضرابات.

لنستعرض الآن حاجات الإنسان ونزعاته الرئيسيّة.

غريزة البقاء: وهي حاجة حقيقيّة تدفع الإنسان إلى الحصول على الهواء والغذاء والماء والدفء واللباس والسكن وسائر الحاجات الضروريّة. والإفراط في إرضاء هذه الغريزة يؤدِّي إلى النزعة الاستهلاكيّة وإلى الجشع في جمع المال ووسائل الراحة والبزخ.

غريزة قيادة الآخرين: وهي ليست حاجةً، ونجدها كنزعة عند بعض الأشخاص فقط: وهم الطموحون والمتسلِّطون. في الأحوال الطبيعيّة، تدفع هذه الغريزة بعض الأشخاص المتميِّزين بشجاعتهم وإقدامهم إلى تسلّم قيادة جماعتهم بتأييد الأغلبيّة، وذلك من أجل توجيهها في العمل والدفاع عنها. وتتحوَّل هذه النزعة إلى إفراط عندما يصبح السعي إلى السلطة همّهم الأوحد، ولا سيّما عندما يظلمون الناس من أجل التوصُّل إلى السلطة.

غريزة الدفاع: وهي النزعة والحاجة اللتان تثيران عند الإنسان الغضب والدافع إلى القتال عندما يُهاجَمُ هو أو أسرته أو جماعته أو يتعرَّضون للخطر. والإفراط هنا يتمثَّل في إساءة استخدام السلطة وفي العنف غير الدفاعيّ أو غير المتناسب مع طبيعة الاعتداء.

غريزة التكاثر: وتتجلّى في الجاذبيّة المتبادلة بين الرجل والمرأة، تلك الجاذبيّة التي تدفعهما إلى الاتّحاد بالحبّ الثابت والعميق بحيث يتكاملان نفسيًّا ويُنجبان أطفالًا، ويربّيانهم على نحوٍ يرضي جميع حاجاتهم وتطلّعاتهم الطبيعيّة إرضاءً متوازنًا. ولا تصبح هذه الغريزة حاجة إلّا إذا حرّضناها طويلًا بالأفكار والصور المثيرة جنسيًّا. وإن لم نحرِّضها على هذا النحو، بقيت نزعةً يمكن تصعيدها إلى صداقات طبيعيّة.

التطلّع إلى القِيَم الأخلاقيّة: يُعَدُّ بعض هذه القِيَم حاجةً: كالشرف والعمل والعدالة والصداقة والحرِّيّة. أمّا بعضها الآخر، فَيُعَدُّ نزعةً: كالعلم والفنّ والأسرة وغيرها.

التطلّع إلى الله: ويتمثَّل في الحاجة إلى بلوغ المطلق في العدالة والحرِّيّة والصداقة، وذلك المطلق الذي لا نجده في هذا العالم. قد يبدو للمرء أنّ الحاجة إلى الله يمكن أن تخفّ عندما

تُسْتَبْدَلُ بها بعض القِيَم الأخلاقيّة البشريّة، إلّا أنّ هذا لا يدوم طويلًا، فمع الزمن يخيب ظنّنا بتلك القِيَم، ويترك الإلحاد النظريّ والعمليّ، أو حتّى العمليّ فقط، في باطننا شعورًا عميقًا بعدم الرضى.

إن زرعت الشوك، فلا تتوقَّع أن تجني الورد

تنشأ بين إرضاء الغرائز البيولوجيّة وتهدئة التطلّعات الروحيّة علاقة تتناسب عكسًا: فكلّما زاد انصباب المصلحة والرغبة والهوى في تيّار الغرائز، قلَّ الماء الذي يمكن أن نروي به التطلّعات الروحيّة. لذلك، ففي مجتمع الرفاهية الحالي، تمثّل عبادة الدخل واللهو والجنس الإله الواحد ذا الأقانيم الثلاثة والخاصّ بالمجتمع الاستهلاكيّ، إذ تشغل جميع عقول البشر وقلوبهم، وتؤلّف نهرًا يرتفع منسوبه ويُنذر بالفيضان، بينما لا تمثّل التطلّعات إلى المُثل العليا البشريَّة وإلى الله سوى ساقية صغيرة متعرِّجة تكاد لا ترى، ولا تنجح إلّا بمشقَّة في وضع معظم العالم خارج دائرة الجرائم الأخطر، ولا يمكنها أن تُنجز تلك المهمّة إلّا إذا كانت الشرطة متواجدة في كلّ مكان وعلى أهبة الاستعداد.

ولكن بما أنّ التطلّعات الروحيّة لا تمثّل حاجة وهميَّة أوجدتها الطبقات الحاكمة في الماضي، بل حاجة فطريّة عميقة، لا بل تمثّل غاية الحياة البشريّة وحاجتها المطلقة، فإنّ طبيعة الإنسان الروحانيّة، التي حرمت من أهمّ ما تملك، تنتقم بتوليد ذلك القلق الغامض والاستياء والتلوُّث الباطنيّ الذي تحدّثنا عنه.

إذن كيف يمكن أن تنبت الراحة والخيبة معًا؟ لو زرعت الشوك، فلا تتوقّع أن تحصل على نبتة ورد مزهرة.

ويصف لنا الكتاب المقدَّس مرّات كثيرة الإنسان الذي ابتعد عن الله فعاقب نفسه: «فإنّ شعبي صنع شرَّين: تركوني أنا ينبوع المياه الحيّة وحفروا لأنفسهم آبارًا، آبارًا مشقّقة لا تمسك الماء... إنّ شَرَّكِ يؤدّبكِ وارتداداتك تُبكِّتُكِ، فاعلمي وانظري أنّ تركَكِ الربَّ إلهكِ شيءٌ سيِّئٌ ومرٌّ» (إر ٢/ ١٣، ١٩. قارن مع متّى ٧/ ٢٤ وما يليها، ومع غل ٥/ ٢٢).

نجد في البوذيّة والهندوسيّة مفهوم الـ «كرما» «Karma» الذي يُعَدُّ من أهمّ المفاهيم والذي يدلّ على الله في الهندوسيّة. فكلمة «كرما» في السنسكريتيّة تعني «الفعل» أو «الحدث». والمقصود بها هو القانون العالميّ المتعلّق بالفعل وبنتائجه في هذه الحياة أو في الحياة المستقبليّة. وكلّ كائن بشريّ يرث «الكرما» من ماضيه ويقوم هو أيضًا بفعل آخر، إيجابيّ أو سلبيّ، يرى نتائجه في ما بعد.

والمكافأة الحقيقيّة التي يحصل عليها الإنسانُ الذي يسعى إلى الله هي أن يسكن اللهُ في باطنه وأن يشاركه الانسجام الباطنيّ، إذ نجد في كتاب التولسيداس *Tulsidas* القول التالي: «إنّك تسكن في قلب مَن تَخَلَّصَ من الشهوة والغضب والتبجّح والعجرفة والخيبة والبخل والإثارة والهوى والكراهية والنفاق والغرور والخداع؛ وفي قلب مَن هو عزيز على قلوب الجميع، وطبيب في نظر الجميع، ومَن هو مستقرّ المزاج في الفرح والألم، وفي المدح والذّمّ، وفي قلب مَن يقول كلامًا صائبًا ومُستحبًّا، ومَن هو قادر على التمييز بين الخير والشرّ، وفي قلب مَن لجأ إليك في يقظته ونومه، ومَن في الحقيقة لا ملاذ له إلّا أنت»[١٤].

الحاجة إلى الله عميقة ومتأصّلة في داخل الإنسان. لذلك فإنّ

---

(١٤) تُولسيداس (كتاب الهندوسيّة المقدّسة)، بُحيرة راما المقدّسة ٢، ١٠.

مجتمع الرخاء المعاصر الذي كبح هذه الحاجة أصبح مجتمع القلق.

أرمي أوّلًا، ثمّ أرسم الهدف

يقول مراهق لرفيقه: «كيف يمكنك أن تبلغ الحبّ الحقيقيّ إذا حصلت على موافقة أهلك؟» وبالطريقة نفسها يتساءل الإنسان الغربيّ قائلًا: «كيف يمكنني أن أشعر بحرّيّتي إذا خضعت لقانون يفرضه الله عليّ؟»

وهو لا يفكّر في أنّ القواعد الأخلاقيّة لا تُفرض فرضًا اعتباطيًّا، بل هي حاجة متأصّلة في أعماق تطلّعاتنا الباطنيّة.

فليس من الحرّيّة أن أختار أن أكون غيورًا ومحبًّا للشّجار ومنافقًا وجشعًا وشهوانيًّا ومتعجرفًا ومتكبّرًا ومغرورًا وعصبيًّا ومتملّقًا وظالمًا وجائرًا وطاغيًا وكافرًا ومتهكّمًا وعنيفًا وفاسدًا وكاذبًا ومرائيًا وأنانيًّا وخائنًا وفاسقًا وكسولًا، أو غير ذلك من هذا القبيل.

ليس من الحرّيّة الحقيقيّة أن نختار بين الخير والشرّ، بدون اللجوء المزعج إلى البوصلة الباطنيّة التي تدلّنا على الخير. كما أنّه ليس من الحرّيّة أن نختار بين طبق من الكمأة وطبق من الزرنيخ، أو بين شابّة جميلة وطيّبة وأنثى فرس النهر، أو بين كلّيّة الهندسة والمشنقة.

فالواجب والالتزام الأخلاقيّ ليسا عبثًا أو إزعاجًا لا فائدة له، كما يعتقد اليوم تلاميذ سارتر الكثيرون، بل هما الرأي الإلهيّ، الذي نجده في ضمير مَن تحرّر من غرائزه، والقائل بأنّ هناك خيارًا يهدم أساسات ذلك التطلّع إلى العدالة والمحبّة الذي يكمن في باطنك.

والذي يحاول أن يتحرّر من صوت الضمير المزعج، دون أن ينجح تمامًا في ذلك، يسعى إلى تكييف قيود الضمير بحسب طريقته في الحياة. وهو بذلك كالولد الذي يُري أصدقاءه أهدافًا كثيرة في الحديقة، وفي وسط كلّ منها ثقب رصاصة أصابت الهدف بدقّة. وما حدث في الواقع هو أنّه بدأ بإطلاق الرصاصات ثمّ رسم هدفًا حول كلّ أثر رصاصة.

لا أحد يعتقد أنّ إشارات تنظيم السير تتعارض مع الحرّيّة الحقيقيّة، ولا أنّ القيود الصحّيّة تنتهك حقوق المواطنين.

حياتي تخصّني، أليس كذلك؟

«كانت هذه الإجابة لطيفة، إذ صدرت عن طالب في العشرين من العمر كان يريد، في الحقيقة، أن يقول لأستاذه بأن يهتمّ بما يعنيه...

- إن كنت أنتهك حقوقك، فسوف أكُفُّ عن ذلك. ولكن لا تحدّثني عن صحّتي الروحيّة، أو عن ضميري، أو عن جسدي! فهذا أمر يخصّني. ضميري لي، وجسدي لي، وحياتي تخصّني!

- أتريد أن تعيش كما يحلو لك؟ وتريد أن تدمّر نفسك كما يحلو لك؟ وأن تتعاطى عقاقير الهلوسة وحشيشة الكيف والكحول والهيرويين؟

- إن كان هذا يناسبني... فهذا لا يناسبني الآن، ولكن إن كان يناسبني، فلِمَ لا؟ فأنا لا أؤذي أحدًا...

- وعندما تركب السيّارة، هل تقودها بأقصى سرعتها دون أن تفكّر في الخطر؟

- إن كنت على طريق خالٍ، وإن لم يكن معي أيّ شخص، فلا مانع في نظري من أن أفعل ذلك. هل تفهم قصدي؟»[١٥].

هذه هي الطريقة التي يفكّر بها العديد من شباب اليوم. فالحياة في نظرهم لا قيمة لها، وقلق أهلهم لا يهمّهم. وإن كان العالم تعيسًا ووحيدًا كما يرونه، أي خاليًا من الله، فإنّ حياتهم تخصّهم، وباستطاعتهم أن يهدموها كما يحلو لهم. ولكن بما أنّ الله وهب لهم إيّاها ليبلغوا قيمًا خارقة وخالدة يستشعرونها أحيانًا، فإنّ حياتهم تخصّهم، بمعنى أنّ من واجبهم الحفاظ عليها والدفاع عنها والارتقاء إليها.

إن لم يكن الله موجودًا، فكلّ فرد يستطيع أن يفعل ما يشاء بنفسه، لأنّه لم يُخلق من أجل أن يسعى إلى هدف معيَّن.

وعلاوة على ذلك، إن لم يكن الله موجودًا، فَلِمَ لا يجوز لي أن أهدم صحّة الآخرين وحياتهم؟ ولِمَ لا أستطيع أن أفعل ذلك إن كان الأمر يناسبني، أي إن كنتُ أجد في ذلك الكثير من الفائدة والمتعة، وإن بقي الأمر مستورًا؟

وإن كانت العمليّة رابحة، وإن لم يكن هناك أيّ شرطي في المنطقة، فلِمَ نفكّر كثيرًا في الروادع، بينما لا يفكّر فيها الآخرون؟

هل السبب في ذلك هو أنّك تريد أن تنام بدون أن تشعر بِتَبكيت الضمير؟ ولكنّ الضمير يمكن أن يُرَوَّضَ، فكلّما زاد تعلّق المرء بالمال وبعلاقات الحبّ العابرة وبالفتنة، قَلَّتْ حساسيّة الضمير إزاء أوضاع الآخرين، وتخلّص من الكوابيس.

فعلى سبيل المثال، يشعر زعماء مدمني الكوكايين براحة

---

(١٥) من مقال بقلم E. HILL في *Christian Herald*، ١٩٨٤.

الضمير، مع أنّه سبق لهم أن ارتكبوا عشرات جرائم القتل. ذلك بأنّ الضمير كالقميص، إن لم نلبسه بقي نظيفًا.

ويشير عالم الاجتماع والفيلسوف المشهور ماكس هُوركهايمر Max Horkheimer، مؤسِّس مدرسة فرانكفورت، إلى أنّ المعنى المطلق والحقيقة المطلقة لا يمكن أن يوجدا إلّا إذا كان هناك إيمان بالله، أي إيمان حقيقيّ غير ظاهريّ. وإلّا فالأخلاق تصبح مسألةَ مشاعرَ متغيِّرة أو ذوقٍ أو مزاج شخصيّ. «فمن الغرور أن نعتقد بإمكانيّة إنقاذ المعنى المطلق بدون الله... فإذا زال الله، زالت معه الحقيقة الخالدة»(١٦).

ويقول هوركهايمر في مقابلة: «فكِّرْ في ما كتبناه أنا وأدورنو Adorno في كتاب **جَدَليّة الاستنارة**، حيث نقول: «مهما كانت السياسة حاذقة، فإنّها تبقى، في حقيقة الأمر، مجرَّد تأمُّل إن لم تضمّ في ثناياها فكرًا لاهوتيًّا مُعَيَّنًا، حتّى ولو كان سطحيًّا»(١٧).

ويقول أيضًا إنّ كلّ ما يتعلّق بالأخلاق ينتمي، في حقيقة الأمر، إلى علم اللاهوت. «فمن وجهة النظر الوضعيّة، ليس من الممكن أن نستخلص أيّة سياسة أخلاقيّة. فإذا نظرنا إلى الأمور من المنظور العلميّ البحت، لا تكون الكراهية أسوأ من المحبّة، على الرغم من جميع اختلافاتها من حيث الوظيفة الاجتماعيّة. فإن لم أحصل على أيّ فائدة اجتماعيّة، لن يكون هناك أيّ دافع منطقيّ مُلزِم»(١٨).

---

(١٦) M. HORKHEIMER, «Theismus-Atheismus», dans *Zur Kritik der instrumentell en Vernunft*, Frankfurt/M, 1974, p. 227.

(١٧) M. HORKHEIMER, *Die Sehnsucht nach dem ganz Anderen*, trad. it. *La nostalgia del totalmente altro*, Queriniane, Brescia, 1972, p. 50.

(١٨) المرجع نفسه، ص ٧٣.

«فكيف يمكنني أن أجزم بأنّ عليّ أن لا أكره عندما يخدم هذا الأمر مصالحي؟ وبحسب المذهب الوضعي، لا نجد فوق البشر أيّ سلطة تفرّق بوضوح بين المبادرة إلى إغاثة الملهوف وجشع الربح، وبين الطيبة والقسوة، وبين الطمع والتفاني. وحتّى المنطق يبقى صامتًا، إذ إنّه لا يُفضّل مطلقًا الموقف الأخلاقيّ على غيره. فجميع المحاولات لإرساء أُسس الأخلاق على حكمة دنيويّة لا تلجأ إلى ما وراء الطبيعة - حتّى كانت لم يكن ينقد هذا الميل دومًا - تقوم على أوهام يستحيل التوفيق بينها»[١٩].

يفسّر العلم العديد من الحقائق الثانويّة، إلّا أنّه يُغفلُ تمامًا الحديث عن معنى الحياة وعن القِيَم الأخلاقيّة. ونجد أيضًا في كتابات هوركهايمر الكلمات التالية: «مَن الذي يستطيع أن يجزم بأنّ هذا المَثَل الأعلى أو ذاك أوثقُ ارتباطًا بالحقيقة من نقيضه؟ وإذا تبعنا فلسفة المثقّف المتوسّط في عصرنا الحديث، أقررنا بأنّ هناك سلطة واحدة، وهي العلم، الذي يفهم على أنّه تصنيف الوقائع وحساب الاحتمالات. فالمقولة القائلة بأنّ العدالَة والحرِّيَّة أفضلُ من الظلم والاضطهاد مستحيلة الإثبات علميًّا وعديمة الفائدة. وأصبحت هذه المقولة فارغة من المعنى كتلك التي تقول بأنّ الأحمر أجمل من الأزرق، وأنّ البَيْض أفضل من الحليب»[٢٠]. عندما لا يعتمد المرء إلّا على العلم كدليل له في الحياة، يمكنه أن يعتقد، إذا أراد، بأنّه لا يحتاج إلى قانون السير عندما يقود شاحنة حمولتها ٥٠ طنًّا... لهذا السبب يتّجه العالم نحو الكارثة.

---

(١٩) المرجع نفسه، ص ٦٠ وما يليها.
(٢٠) M. HORKHEIMER, *Eclipse de la raison*, Payot, Paris, 1974, p. 33.

١٨ - الأدب المعاصر وأزمة القِيَم

ذلك المرض الروحيّ الذي يسمّيه سارتر «الغثيان»

إن لم تكن تسعى إلى الله، أو إن كنت تسعى إلى إلهك من خلال ملذّات هذه الدنيا، فلا تتعجّب عندما تُقْرِفُكَ الحياة حتّى الاشمئزاز: فأنت سلحفاة ضعيفة البصر وقعت في حبّ خوذة عسكريَّة.

ونجد في كتابات المحلِّل النفسيّ وعالم الاجتماع إيرِيك فرُوم ما يلي: «لا أحد يفلت من الحاجة الدينيّة. . . ولكن لا يفترض هذا القول مطلقًا أنّ هناك سياقًا خاصًّا تتجلّى فيه هذه الحاجة. فقد يعبد الإنسان بعض الحيوانات أو الأشجار أو الأصنام الذهبيّة أو الحجريّة، أو يعبد إلهًا لا يُرى، أو إنسانًا قدّيسًا أو قُوّادًا شيطانيّين، كما يمكنه أن يعبد أجداده أو أُمّته أو طبقته أو حزبه، أو المال أو النجاح. وقد ينمّي دينه نزعةَ التدمير أو الحبّ، السيطرة أو الأخوّة. وقد يُنَشِّطُ العقل أو يشلّه، وقد يدرك طبيعة نظامه الدينيّة. . . أو قد يظنّ أن لا دين له، أو قد لا يرى في سعيه إلى بعض الأهداف التي تُعَدُّ دنيويّة كالسلطة والمال والنجاح إلّا صفته كإنسان عمليّ وانتهازيّ. ليس المهمّ في الأمر اختيار الدين أو عدم اختياره، بل اختيار أيّ نوع من الأديان. المهمّ أن نعرف هل هذا الدين يساعد

على تنمية الإنسان وإمكاناته البشريّة المتميّزة أو يَشُلُّها . . . ويبدو أنّ هذه الأطروحة، التي تقول بأنّ الحاجة إلى إطار نتحّدد به في توجّهنا وإلى هدف نكرِّس له أنفسنا تقوم على ظروف الوجود البشريّ نفسها، يبدو أنّها قد أُثبِتَتْ من خلال انتشار الدين عالميًّا.

«والمحلِّل النفسيّ، الذي لا يملك «مخبرًا» سوى مريضه، والذي يراقب أفكارَ إنسانٍ آخر ومشاعرَه ويشارك فيها، قادرٌ على تقديم دليلٍ إضافيّ على أنّ الحاجة إلى إطار نتحّدد به في توجّهنا وإلى هدف نكرِّس له أنفسنا متلازمةٌ مع طبيعة الإنسان. وهو، إذ يَدْرُسُ حالات العُصاب، يكتشف أنّه يدرس الدين. وفرويد هو الذي تنبَّه إلى العلاقة بين العُصاب والدين، ولكنَّه فَسَّرَ الدين كَعُصابٍ طفليّ جماعيّ تصاب به البشريَّة، وهذا القول يمكن أيضًا أن يُعْكَسَ، إذ يمكننا أن نفسِّرَ **العصاب على أنّه شكل خاصّ من أشكال الدين**، أو أن نعتبره بالتحديد رجوعًا إلى أشكال دينيّة بدائيَّة تتعارض مع بُنى التفكير الدينيّ المعترف بها رسميًّا. . .

ولا يستطيع المرء أن «يعيش على سجيته» بدون أن يهتمّ بما ينقصه. لذا فهو «لا يكتفي بالأكل والشرب والنوم وسدّ الحاجات الجنسيّة والقيام بعمله. ولو كان هذا الأمر ممكنًا، لكان لدينا الدليل على أنّ الموقف الدينيّ. . . ليس متلازمًا مع الطبيعة البشريَّة. بيد أنّ البحث في الإنسان يبيّن أنّ الأمور على غير ذلك. فَلَئِنْ أخفق إنسان في دمج طاقاته باتّجاه «أناه» ذاته الأسمى، فإنّه يوجِّهها إلى أهداف دنيا. وإن لم يكن لديه صورة صحيحة تقريبًا عن العالم وعن وضعه في العالم، فإنّه يوجِد صورةً وهميَّة ويتعلَّق بها تَعَلُّقَ المؤمن بعقائد دينه. وهذا أمر واقع، إذ «بالخبز وحده لا يحيى الإنسان». وليس له خيارٌ إلّا بين أشكال مختلفة من الأديان والفلسفات،

الجيِّدة أو السيِّئة، السامية أو المنحطّة، المُرضية أو المدمِّرة»[1].

«موت الله» والأدب المعاصر

منذ عام ١٨٣٥، دقّ هاينريش هاينه Heinrich Heine «الأجراس، معلنًا موت الله». وفي عام ١٨٤٨، كتب كيركغارد في كتاب أحاديث مسيحيَّة ما يلي: «قتل الله هو أشنع أنواع الانتحار». وبدلًا من «البشارة»، يُعلن نيتشه عن «المعرفة المرحة»، ويعتقد بأنّه قد أزال مشكلة الله من العالم نهائيًا.

وفي كلّ جيل، هناك مَن يدقّ أجراس موت الله. ثمّ تتوقّف الأجراس بسبب موت قارعيها. ولكن، مع موت هؤلاء، يحدث الموت الروحيّ، موت المجتمعات التي تضع الله في حجرة المهملات. ونجد هذه الظاهرة بكثرة في أدب قرننا هذا. يمثّل التوتُّر الناتج عن الحيرة والقلق السمةَ الأساسيّة التي يتّصف بها الوجود البشريّ كما وصفه كافكا، ذلك المؤلِّف الذي أصبح نَبِيَّ الجيل التالي من الكتّاب، وممثِّلَ مجتمعٍ مُنْطَوٍ على نفسه. الله في نظر كافكا مُستَتِر، حتّى إنّنا لا نعرف هلْ هو موجود. وقد لا يكون سوى الاتّجاه الذي يُطْلِقُ فيه الإنسان صرخته.

«أمّا الكتّاب الذين جاؤوا بعد كافكا (والذين يتبنّون فِكره في الغالب)، فإنّهم يعرفون الله، حتّى ولو كانوا يعرفونه على أنّه «الغائب». ويمكن أن يُعَدَّ كتاب «عيد» لإرنِسْت هِيمِنغواي Ernest Hemingway مثالًا على ذلك. ويصبح الله بذلك مجرَّد موضوعٍ للمحادثة»...

---

(١) Erich FROMM, *Psychanalyse et Religion.*, Ed. de l'Epi, Paris, 1968, pp. 49-52.

«وليس من قبيل المصادفة أن تُذَكِّر مسرحيّة سارتر الشيطان والله بنيتشه وتتجاوز، في الوقت نفسه، فكر كافكا تجاوزًا واضحًا، إذ تُنَوِّهُ بأنّ الله الغائب لم يعد هدفًا يُسْعى إليه لأنّه يُعتبر ميتًا. «إن كان الله موجودًا، فالإنسان معدوم»... الله غير موجود... فافرحوا واذرفوا دموع الفرح، هليلوليا! لم يعد هناك سماء ولا جحيم: لا وجود إلّا للأرض»[٢]. وبذلك حلّ الإيمان بالإنسان محلّ الإيمان بالله، فإن كانت السماء خالية، فعلى الإنسان أن يكفي ذاته بذاته. واللجوء إلى الله دليل عجزٍ لا نُقِرُّ به، وهو بالتالي دليل على أنّنا نخدع أنفسنا. ويشرح برتولد بريشت هذا الأمر في مسرحيّته **الأمّ الشجاعة وأولادها**.

ولم تلبث نتائج هذه الثورة الروحيّة أن ظهرت. فليس من الصحيح أنّ الله هاربٌ وصامتٌ، بل هو يتكلّم من خلال الأحداث وعلى رأسها الحدث ذو الأهمّيّة العظمى الذي يتمثّل في قلق الإنسان المعاصر باطنيًّا، على الرغم من تقدُّم القِيَم المادّيّة البالغ.

ضياع الشخصيّة، واستحالة التواصل، وعدم القدرة على الحبّ، هذه هي الملامح التي تمكّننا من فهم ذلك النوع الأدبيّ فهمًا عميقًا، ذلك النوع الذي يصوّر الإنسان المعاصر عندما يضطرّ إلى الغوص في أعماق ذاته، بدون أن يعرف معنى حياته وهدفها، فيشعر بالغثيان والملل من وجوده نفسه.

وفي روايات صموئيل بيكيت Samuel Beckett ومسرحيّاته، يحدّثنا الإنسان عن عمق يأسه، بصوتِ مكتشفِ أعماق الأرض الضائع الذي يلمح فوقه، على ارتفاع شاهق، شقًّا ضيّقًا يدخل منه

---

(٢) J.P. SARTRE, *Le diable et le bon Dieu*, Gallimard, Paris, 1951, Dixième tableau, scène IV, p. 267-268.

النور الذي يُظهر له حركة الغبار التي لا رحمة فيها» والتي تمثّل معنىً من معاني الحياة لا وجود له أو يستحيل عليه بلوغه(٣).

ومن هذه الناحية، تحمل رواية سارتر **الغثيان** مغزىً يُستشهد به، إذ تصوِّر إنسانًا، وهو روكانتان Roquentin، يقوم بتشريح وجوده، الذي أصبح في نظره زائدًا. ويتجلّى بذلك شقاء الإنسان المعاصر بسبب اليأس. فلا يعرف روكانتان إلّا شيئًا واحدًا: وهو أنّ الغثيان يمثّل حالة الوجدان الطبيعيّة.

وكما نجد عند سارتر، نجد عند ألبيرتو مُورافيا «صوفيّة العدم». فشخصيّات هذا الكتاب لا تعيش حياتها، بل تحمل عبئها فحسب. وتتمثّل تجاربها في اللامبالاة والاستلاب اللذين وصفهما الكاتب بنتائجهما القصوى في كتاب **المَلَل**.

ومن الصحيح أنّ الكتّاب المعاصرين يصفون، أكثر من الإنسان العاديّ، الفرد المفكّر والقادر على التساؤل عن حقائق الحياة ومعناها، أو الإنسان الذي يطرح هذه التساؤلات لأنّه يعاني الأمرّين من الدهر. ولكن عاجلًا أو آجلًا سينتمي جميع البشر إلى هذه الفئة الثانية، وهنا يأتي دور الإيمان العاقل في منحهم الثقة والشجاعة، بينما يفضي بهم غياب الإيمان، كما يشهد الكتاب.على ذلك، إلى العدم.

عند الروائيّين ساغان ومورافيا، يضطلع الجانب الغزليّ الإباحيّ بدور مهمّ ولكنّه يصبح برنامجًا عند الكاتب الأمريكيّ هنري مِيلر Henry Miller. ففي روايته **پليكْسُوس** *Plexus*، التي تنتمي إلى

---

(٣) G. BONURA, «Una vita «senza senso»», dans *Avvenire*, 27 déc. 1989, p. 13.

نوع السيرة الذاتيّة، يهيم ميلر ورفيقته على وجهيهما في نيويورك، متنقّلَيْن من بيت إلى بيت يقترضان المال وتحيط بها وتتبعهما جماعة من الناس الفاسدين الذين يدمنون الكحول وتعاطي المخدّرات واللّواط والسِّحاق. وتدور حياتهم بين قطبَين: السفالة والدعارة.

وحتّى إيُونِسْكو يسعى إلى تصوير تفكُّك إنسان المجتمع الحالي ونكرانه تصويرًا صريحًا، كما يصوّر مرارة ضعف تلك المهزلة التي تمثّلها الحياة. «لمّا كان العالم الحديث في حالة تفسُّخ، يمكنك أن تكون شاهدًا على هذا التفسُّخ»(٤). هذا هو مغزى جميع مسرحيّات إيونسكو، ابتداءً من أشهرها، حيث نجد الشخصيّة الرئيسيّة، بيرانجيه Béranger، تعيش في مدينة مصابة بـ «داء وحيد القرن»، إذ يتحوّل كلّ سكّانها إلى حيوانات وحيد القرن، ويرمز هذا إلى فقدان الشخصيّة البشريّة.

وما من نصّ في الأدب المعاصر يغوص بنا إلى جذور مسألة معنى الحياة كرواية **جناح المصابين بالسرطان** لسولجينتسين ورواية **المشتبه به** لدُورنْمات. في هذه الرّواية، يصيغ البطل قانون إيمانه على النحو التالي: «ما هو الإنسان؟... إنّي أؤمن بشيئين لا يؤلّفان في الحقيقة إلّا شيئًا واحدًا... أؤمن بالمادّة التي هي قوّةٌ وكتلةٌ في آنٍ معًا... تلك المادّة التي لا تحتاج إلى أيِّ إله، ولا إلى إيِّ شيء من هذا القبيل، والتي يتمثّل سرّها الوحيد والمستعصي على الفهم في الوجود. وأؤمن بأنّني جزءٌ من هذه المادّة، الذرّة، القوّة. الكتلة، الجُزَيء، وبأنّ وجودي يمنحني الحقّ في أن أفعل ما أريد. أنا جزءٌ، وبالتالي لست سوى لحظةٍ أو صدفة، كالحياة تمامًا... ولا وجود للعدالة - إذ كيف يمكن للمادّة أن تكون عادلة؟ - لا

---

(٤) E. İONESCO, *Vittime del dovere*, p. 197.

وجود إلّا للحرّيّة. . . والحرّيّة هي الشجاعة على ارتكاب الجريمة، لأنّها جريمةٌ في حدّ ذاتها»(٥).

هذا هو «إيمان» الكثير من المعاصرين، وهو إيمان كالزوبعة التي تهبّ فتقتلع الأخضر واليابس.

---

(٥) F. DÜRRENMATT, «Il sospetto», dans *Tutti i romanzi*, Feltrinelli, Milano, 1973, p. 353.

١٦ - التحليل النفسيّ والعُصاب الاجتماعيّ

فرويد ويونغ والتحليل النفسيّ المعاصر

يصبح المرء حكيمًا عندما يراقب ما يصيب الناس الذين لا يتمتّعون بالحكمة.

على الرغم من اللجوء إلى القهوة التي «ترفع المعنويّات» والمراهم «التي تعيد الشباب» وشتّى أنواع المنتوجات التي تُؤَمِّنُ جميع متطلّبات الرفاهية والسعادة، يعيش الناس اليوم في الاضطراب والخوف والضغط النفسيّ وعدم الرضى.

ولاحظ بعض علماء النفس المشهورين والحديثي العهد، مثل إيريك إريكسن Erik Erikson ورُولُو ماي Rollo May، وجود رابط مهمّ بين انخفاض الميول الدينيّة من جهة ونموّ الضياع ونقص الضوابط وفقدان معنى الحياة من جهة أخرى، وتمثّل هذه الأمور حالات العُصاب التي يتميّز بها عصرنا.

ولم يكن الدين في نظر فرويد سوى «عصاب وسواسي عالميّ». أمّا كارل غوستاف يونغ، فيرى أنّ افتقاد الدين، أي عدم وجود دين حيّ، هو السبب في العديد من حالات العُصاب. وكان لديه انطباع بأنّ «تراجع الدين ترافق مع زيادة بالغة في حالات

العُصاب»[١].

وكتب يقول: «من بين جميع مرضاي الذين بلغوا نصف الحياة، أي تجاوزوا سنّ الخامسة والثلاثين، لم أجد أحدًا لا تتعلّق مشكلته الرئيسيَّة بسلوكه الدينيّ. وإذا ما تعمّقنا في تحليلنا، وجدنا حتّى إنّ كلًّا منهم يُمرض نفسه لأنّه أضاع ما قدّمته الأديان الحيّة للمؤمنين في جميع العصور. ولا أحد منهم يُشفى حقًّا إلّا إذا استعاد بُعده الدينيّ»[٢].

ويرى يونغ في العُصاب النفسيّ «ألمًا تعانيه الروح التي لم تجد معناها»، والتي تنتمي إلى إنسان «لا يعرف الحبّ، بل يمارس الجنس فحسب، ولا يملك الإيمان لأنّ العمى يخيفه، ولا يملك الأمل لأنّ العالم والحياة قد خيَّبا آماله، ولا يملك المعرفة لأنّه لم يكتشف معناه بعد»[٣].

ويحسب يونغ، تُطْرَحُ هنا إشكاليّة لا يمكننا مطلقًا أن نأخذها على مَحْمَلِ الجِدِّ بالقدر الكافي، وتضع المحلِّل النفسيّ في علاقة وثيقة مع الراعي الدينيّ. ولا يتعلّق الأمر هنا بالدافع الجنسيّ المكبوت فحسب، وإن كان النشاط الجنسيّ يضطرب فعلًا من جرّاء ذلك. المقصود هنا هو معنى الحياة الذي قد يُعتبر النشاط الغريزيّ ثانويًّا بالنسبة إليه. ويقول يونغ: «لذلك فإنّي أعتبر المشكلات الدينيّة التي يُعْرِبُ عنها المريض كمشكلات حقيقيّة وكسبب من أسباب العصاب»[٤].

---

(١) C.G. JUNG, *Psychologie und Religion*, Studienausgabe, Olten, 1971, p. 156; trad. it. *Psicologia e Religione*, Ed. Comunità, Milano, 1952.

(٢) يونغ، المرجع نفسه، ص ١٦٠.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٣٤.

(٤) المرجع نفسه، ص ١٤٢.

ويتّفق أدلر ويونغ وفروم في الرأي، إذ يُقدِّرون الإيمان بالله في مجال الصحّة النفسيّة الفرديّة والجماعيّة تقديرًا بالغ الإيجابيّة. ولكنّهم، إذ تأثّروا بالمذهب الوضعيّ السائد، يرون أنّ هذا الإيمان هبةٌ لا يدركها العقل، وبذلك فهم يُبدون رأيهم في دور الإيمان بالله، ولا بحقيقة الله.

ومن وجهة النظر هذه، يذهب ڤيكتور إ. فرانكل Viktor E. Frankl إلى أبعد ما ذهب إليه أدلر ويونغ وفروم. ويُعْرَف فرانكل، الذي وُلد في ڤيينّا عام ١٩٠٥، بأنّه مؤسِّس التيّار الڤيينّيّ الثالث في المعالجة النفسيّة، وهو ما يسمّى بـ «اللوغوتيرابيا» (أي المعالجة «الروحيّة» كما سيبيِّن ذلك) المعروفة في الولايات المتّحدة خاصّةً. وفي رأيه، «لا يقتصر ما يتحكَّم في الإنسان على الدوافع اللاشعوريَّة (فرويد) ولا البنية النفسيّة اللاشعوريّة (يونغ)، بل هو عالِم روحانيّ لاشعوريّ أو روحانيّة لاشعوريّة. ويواجه المعالج الروحيّ كلّ يوم في عيادته أسئلة... تتعلّق في الدرجة الأُولى بمعنى الحياة البشريّة، وهي مسألة أغفلها فرويد إغفالًا كاملًا، وتَسَرَّعَ أدلر ويونغ في تحويلها إلى حالة نفسيّة. وثمّة أمر واحد يجعل الشفاء ممكنًا، وهو أن لا ننطلق من النفس، بل من الروح، (من «اللُّوغوس»)، أي من ذلك التوجُّه الروحيّ الذي يحتاج إليه الإنسان من أجل صحّته ومن أجل توجيه حياته»[٥].

«وكانت مشكلة الكبت الجنسيّ تُطرح فعلًا في عصر «التعفّف» الفيكتوريّ، إذ كان «الهو» يحتاج في ذلك الوقت إلى تحليل عميق.

---

(٥) H. KÜNG, *Dieu existe-t-il?* Seuil, Paris, 1981, p. 373, Cf. V.E. FRANKL, *Dio nell'inconscio*, Morcelliana, Brescia, 1975; Id., *Logoterapia ed analisi esistenziale*, Morcelliana, Brescia, 1977; Id., *Alla ricerca di un significato della vita*, Mursia, Milano, 1974.

أمّا الآن فما يسترعي الانتباه هو «الأنا». ولا يمكننا أن نُغفِل الظروف الاجتماعيّة والثقافيّة التي يعيشها معظم المصابين بالعصاب. ولكن ألا يجدر بنا الآن أن نفكّر في مشكلة **الدافع الدينيّ المكبوت؟**».

«على كلّ حال، منذ منتصف القرن ومشكلة هويّة الإنسان تحتلّ الصدارة. ويمكننا أن نذكر في هذا الصدد العملَين التاليَين: **الطفولة والمجتمع** إريك إريكسن و**بحث الإنسان عن نفسه** لرولو ماي. فقد لاحظ ماي، انطلاقًا من تجاربه السريريّة ومن تجارب زملائه، أنّ «مشكلة الإنسان الأساسيّة في عقد منتصف القرن العشرين هي **الفراغ**. ولا يمكن الإنسان أن يعيش طويلًا في الفراغ. فإن لم يتطلّع إلى شيء ما، فإنّه لن يصبح في حالة ركود فحسب، بل تتحوّل طاقاته المكبوتة إلى أمراض وإلى يأس، وقد تتحوّل حتّى إلى أنشطة هدّامة»(٦).

وبعد بضع سنوات من ذلك، تَمَكَّنَ ماي من كتابة ما يلي: «إنّ القِيَم الثقافيّة التي منحت الإنسان وعيًا لهويّته قد زالت تمامًا».

«لا، لم يعد الكبت الجنسيّ والإحساس بالذنب يمثّلان العصاب الذي يتميّز به عصرنا، بل حَلَّ محلّهما انعدام التوجّه

---

(٦) R. MAY, *Man's Search for himself*, New York, 1953, p. 24; Id., *L'Amore e la volontà*, Astrolabio, Roma, 1971; Id., *Power and Innocence*, New York, 1972. Cf aussi E.H. ERIKSON, *Infanzia e società*, Armando, Roma, 1972, 5e éd.; Id. *Introspezione e responsabilità*, Armando, Roma, 1968; Id., *Gioventù e crisi di identità*, Armando, Roma, 1974; J. RUDIN, *Psicoterapia e religione*, Borla, Torino, 1968; E. WIESENHÜTTER, *Therapie der Person*, Stuttgart, 1969; E. FROMM, *Anatomia della distruttività umana*, Mondadori, Milano, 1975; Id., *Psicoanalisi e religione*, Ed. di Comunità, Milano, 1961; Id., *Dalla parte dell'uomo. Indagine sulla psicologia della morale*, Astrolabio, Roma, 1971.

والضوابط والدلالة والمعنى، وسواد الفراغ وبالتالي كبت الميول الأخلاقيّة والدينيّة»[٧].

ولا ينفكّ يزداد عدد المعالجين النفسيّين - باختلاف اتّجاهاتهم - الذين يستنكرون اليوم «هيمنة مبدأ اللذّة، الذي تصحبه اللامبالاة وكبت المبادئ الروحانيّة والدينيّة»[٨].

---

(٧) Hans KÜNG, *op.cit.* p. 374.

(٨) E. WIESENHÜTTER, *Kritic an Freud*, Darmstadt, 1974, p. 87.

١٧ - الإحصاء والإجرام

إستقصاء عن الإيمان بالله في أوروبّا المعاصرة

أفسد استنزافُ الحياة المعاصرة الفرحَ بحيث لم يبقَ منه إلّا النَّزْرُ اليسير.

بيد أنّ السبب الحقيقيّ لا يكمن في التصنيع أو المعلوماتيّة أو زيادة الدخل والإنتاج المفاجئة. فقد سبّبت هذه الأمور ارتفاعًا كبيرًا في عدد المغريات، إلّا أنّ ذوي الإيمان المتأصّل الراسخ لم يتأثّروا بها.

ويكمن الاختلاف الرئيسيّ بين المؤمن واللامبالي الدّيني في أنّ الأوّل يتخلّى عن جزء ممّا هو ثانويّ ليحصل على ما هو جوهريّ. أمّا الثاني، فإنّه يتخلّى عمّا هو جوهريّ في سبيل السعي إلى حيازة كلّ ما هو ثانويّ.

ويقول الأستاذ أدريانو بوسولا Adriano Bausola، رئيس الجامعة الكاثوليكيّة في ميلانو: «اللامبالي الدينيّ هو ذلك الذي يقبل بوجود الله، إلّا أنّه لا يرى أنّ الله مهمٌّ في حياته... بل يرى فيه صورة لذاته. ويسعى الملحد المناضل إلى المناداة بعقيدة إنسانيّة أرضيّة لا يرى في الله إلّا منافسًا لها. أمّا المؤمن المنسجم مع نفسه، فإنّه ينظّم كلّ حياته بحسب إيمانه بالله. إذن فاللّامبالي الدينيّ

بعيد عن هذا وعن ذاك»[١].

إن كان الله موجودًا، يصبح للحياة البشريّة معنى، ويكمن بذلك واجب الحياة الجوهريّ في سعي الإنسان إلى الاتّحاد بالله. لذلك فإنّ اللامبالاة الدينيّة تُعَدُّ أضعف حجّة تُستخدم ضدّ الدين، ولكنّها أصعب الحجج دحضًا.

معظم الغربيّين المعاصرين هم من اللامبالين الدينيّين، وهم يقفلون الأبواب أمام جميع الحجج لأنّهم «يؤمنون بالله»، ولكنّهم لا يرغبون في أن يوجّه خطاهم.

وبهذا الصدد، نجد في كتاب **الملل** لمورافيا حوارًا مُعَبِّرًا بين دينو وسيسيل:

- لا أستطيع أن أتخيَّل اليوم الذي أحسّ فيه بالحاجة إلى الدين. إنّه فائض، من النوافل.

- من النوافل؟

- نعم، كيف أعبِّر لك عن ذلك؟ إن كان الدين موجودًا، فيجب أن يظهر ذلك بوضوح، وبما أنَّه لا شيء يتغيَّر، إذن فهو أمر نافل»[٢].

ولا تمثِّل العلمانيّة الحاليّة الإلحاد في جوهرها، بل تمثِّل اللامبالاة الدينيَّة. ففي الاستقصاء الذي قامت بها «مجموعة دراسة نظام القِيَم الأوروبّيّ» European Value System Study Group، عام ١٩٨١ في البلدان الأوروبّيّة التسعة الأكثر تصنيعًا، تَبَيَّنَ أنّ ٨٧٪ من

---

(١) A. BAUSOLA, «Il vero damma è l'indifferenza», in *Famiglia Cristiana*, 1986, n. 40.

(٢) A. MORAVIA, *La noia*, Bompiani, Milano, 1965, p. 309.

الأوروبيّين «يؤمنون بالله»، وأنّ ممارسة الشعائر الدينيّة، التي هي دليل على إيمان لا يزال يسعى إلى إثبات تماسكه، لا تمثّل سوى ٨٪ عند البروتستانت، ومن ٢٠ إلى ٢٢٪ عند الكاثوليك. وهذا المعدَّل أدنى بنسبة الثلث ممّا كان عليه منذ ثلاثين سنة(٣). ويقول عالم الاجتماع دون سلفانو بورغالاسّي Don Silvano Burgalassi إنّ الاهتمام بالدين عند الشباب يأتي في المرتبة الأخيرة على قائمة القِيَم الأخلاقيّة والاجتماعيّة المتمثّلة في السلام، وحقوق الإنسان، ومكافحة البؤس، والحرّيّة الشخصيّة، والمحافظة على البيئة(٤).

وإذا أضفنا هذه المعطيات إلى ما نجده في كتاب الأمم المتّحدة السنويّ حول الديموغرافيا Demographic Yearbook of the United Nations الذي صدر عام ١٩٨٠، استنتجنا أنّ أوروبّا يمكن أن تُقسَم إلى ثلاث مناطق من حيث العلمنة:

أوّلًا: المنطقة العلمانيّة، ونسبة العلمانيّة فيها مرتفعة، وهي تضمّ: فرنسا وبلجيكا وهولندا، حيث يصرِّح ٢٦٪ من الناس بأنّهم لا يلتزمون بالدين.

ثانيًا: المنطقة البروتستانتيّة، ونسبة العلمانيّة فيها متوسِّطة، وهي تضمّ: بريطانيا العظمى وألمانيا البروتستانتيّة والدانمارك والسويد والنرويج، حيث يبلغ معدَّل غير المنتمين إلى الدين ٩٪.

ثالثًا: المنطقة الكاثوليكيّة، ونسبة العلمانيّة فيها أقلّ من سابقتها بقليل، وهي تضمّ: ألمانيا الكاثوليكيّة وإيرلندا وبولونيا

---

(٣) J. STROETZEL, *I valori del tempo presente, un'inchiesta europea*, SEI, Torino, 1984.

(٤) S. BURGALASSI, in *Famiglia cristiana*, n. 40, 1986, p. 29.

وإسبانيا وإيطاليا، حيث يصرّح ٧٪ من الناس بعدم التزامهم بأيّ دين.

ونلحظ في جميع هذه البلدان، بين عامَي ١٩٦٠ و١٩٨٠، انخفاضًا بالغًا في ممارسة الشعائر الدينيّة، يوازيه ازدياد في عدد جرائم القتل، والانتحار، وعمليّات الإجهاض، وحالات الطلاق، وتعاطي المخدّرات؛ كما نلحظ في السنوات العشر الأخيرة تزايدًا في عدد المصابين بالسّيدا (مرض نقص المناعة المكتسب).

إريك فرُوم والاستلاب الجماعيّ

الإنسان اللامباليّ أشبه بمظلّيّ لا يهتمّ بفتح مظلّته ولا يسعى إلى ذلك، إذ يرى إنّ الرحلة في الجوّ لا بأس بها، ولكنّه يقول: «عسى أن تدوم الرحلة».

ويكتب إريك فروم قائلًا: «لعلّ حضارتنا أوّل حضارة علمانيّة حقًّا في تاريخ البشريّة، إذ إنّنا رفضنا الوعي والاهتمام بمشكلات وجودنا الأساسيّة. ولم نعد نوجّه اهتمامنا إلى معنى الحياة، ولا إلى الحلول الممكنة. وفي نظرنا، يكمن الهدف الوحيد الذي ينبغي تحقيقه في أن نشحن حياتنا بأكبر عدد ممكن من الفرص، وأن نعيش مراحلها متفادين الحوادث الخطيرة.

معظمنا يؤمن بالله لأنّهم يعتبرون وجوده أمرًا مفروغًا منه، ويطرحون وجوده كمبدأ. أمّا الذين لا يؤمنون به، فيعتبرون أنّ عدم وجوده أمرٌ مفروغ منه. ففي جميع الأحوال، قد تمّ البَتُّ بالأمر، إذ لا أحد يتساءل جِدّيًا عن هذا الموضوع، وهذه القضيّة لا تمنع أحدًا من النوم. ففي الواقع، ينظر الناس إلى الإيمان بالله من زاوية نفسيّة بقدر ما ينظرون إليه من زاوية دينيّة. بيد أنّ الإنسان المعاصر لا

يبالي بالمشكلة، سَواءٌ أكانت تتعلّق بوجوده أم بوجود الله»[٥].

«وسوف تتنامى المجتمعات الموجَّهة، بسكّانها الجيّدي المأكل والملبس، والقادرين على إرضاء رغباتهم. وسيتحوَّل الأفراد إلى رجال آليّين، يطيعون الأوامر بدون اللجوء إلى القوّة، وحتّى بدون الحاجة إلى رؤساء. وسوف يصنعون آلات تسلك سلوكهم، إذ إنّ سلوكهم، هم أيضًا، سيصبح آليًّا. هكذا سيصبح الناس الذين سيختلّ عقلهم في الوقت الذي سينحو فيه ذكاؤهم، وبذلك سيتفاقم الوضع الخطير الذي ستوجده كائنات مزوّدةٌ بسلطة مادّيَّة هائلة ومجَّردة من الحكمة التي تمكّنهم من استخدام هذه السلطة».

ويؤدّي هذا الاستلاب وهذا التأكيل إلى جنونٍ لا ينفكّ يتزايد. فالحياة لا معنى لها، والإنسان يفتقر إلى الفرح والإيمان والواقع. وكلّ إنسان سعيدٌ، إلّا أنّه لا يُحِسُّ ولا يفكّر ولا يحبّ.

«وكانت مشكلة القرن التاسع عشر الأساسيّة تتلخَّص في ما يلي: **الله ميّت**؛ أمّا في القرن العشرين، فإنّها تتلخّص في العبارة التالية: **الإنسان ميّت**. كانت اللاإنسانيّة في القرن الماضي تعني القسوة، أمّا اليوم، فهي تعني الاستلاب الفصاميّ. «إنّ البشر، الذين كانوا يتعرَّضون في السابق لخطر التحوُّل إلى عبيد، محكومٌ عليهم اليوم بأن يصبحوا رجالًا آليّين، لا يعرفون التمرُّد. ولكنّ طبيعة الرجال الآليّين لا تتناسب مع الطبيعة البشريَّة ولا مع الصحّة العقليّة. والرجال الآليّون أشبه بـ «الأغوال»، إذ إنّهم قادرون على تدمير أنفسهم وعلى تدمير العالم الذي يعيشون فيه، لأنّهم لم يعودوا يستطيعون تحمُّل ملل الحياة المجرَّدة من المعنى»[٦].

---

(٥) E. FROMM, *Société aliénée et Société saine, Psychanalyse de la société contemporaine*, pp. 173-174.

(٦) إريك فروم، المرجع نفسه، ص ٣٣٧-٣٣٨.

طرق العالم كلّها سهلة

لا تكمن فعّاليّة دواء ما في تركيبه الكيميائيّ مثلما تكمن في التأثير الذي تُحدثه عند المرضى الذين يستعملون هذا الدواء حسب إرشادات الطبيب، بالمقارنة مع ما يحدث لأولئك الذين لم يتناولوه أو توقّفوا عن تناوله.

وكما يبيِّن إريك فروم في الكتاب المذكور، ليس الفرد هو الوحيد الذي يمرض نفسيًّا، بل قد يمرض المجتمع كذلك. ويفضِّل العديد من علماء الاجتماع اليوم التحدُّث عن نقص التكيُّف عند عدد متزايد من الأفراد إزاء نمط الحياة الذي يتغيَّر بسرعة كبيرة. ولكن حتّى بعض الأشخاص المتكيِّفين الذين نجحوا في الحياة يشعرون اليوم شعورًا حادًّا بعدم الرضى. ومع ذلك، لم تكن التحوُّلات الاجتماعيَّة والثقافيّة وصعوبات التكيُّف في القرن الماضي أدنى منها في النصف الأوَّل من قرننا هذا. ولكن، في الأماكن التي تسود فيها القِيَم الأخلاقيّة والدينيّة، يواجه الناس التضحيات - حتّى البطوليّة منها - بشجاعة. أمّا الإنسان الذي فقد كلّ دافع، فإنّه يقع في العُصاب.

ويتابع فروم قائلًا: «يتمتّع الإنسان بالصحّة العقليّة عندما يبلغ نضجه التامّ بحسب قوانين الطبيعة. ويمثِّل المرض العقليّ خللًا في هذا التطوُّر. وبالتالي فإنّ المعيار الذي تقاس به الصحّة العقليّة لا يقوم على تكيُّف الفرد مع نظام اجتماعيّ معيَّن، وإنّما هو عالميّ وصالح لجميع البشر، وهو يجيب على التساؤل بشأن الوجود البشريّ إجابةً مُرْضِيَة»(٧).

---

(٧) المرجع نفسه، ص ٣١.

ففي السنوات الخمسين الأخيرة، يمكننا أن نكشف علاقة تلازم، سنةً فسنة، بين تراجع ممارسة الشعائر الدينيّة وتزايد بعض الظواهر التي تدلّ على مرض خطير وانحطاط في المجتمع.

إليكم بعض المعطيات المأخوذة من الدليل السكّانيّ السنويّ الصادر عن الأمم المتّحدة والمتعلّقة بإيطاليا، وببلدين أقلّ علمنةً، هما إيرلندا وإسبانيا، وببلدين آخرَين تُعَدُّ فيهما حركة العلمنة أكثر تقدُّمًا ممّا هي عليه في إيطاليا، وهما فرنسا والولايات المتّحدة.

النسبة المعتمدة في الجدول هي ١ من ١٠٠ ٠٠٠ نسمة:

	الانتحار			جرائم القتل	
	١٩٦٠	١٩٦٢		١٩٦٠	١٩٦٢
إيطاليا	٦,٣	٧,٤	إيطاليا	١,٥	١,٩
إيرلندا	٣,٠	٦,٣	إيرلندا	٠,٢	٠,٧
إسبانيا	٥,٥	٦,٣	إسبانيا	٠,٣	١,٠
فرنسا	١٥,٨	١٩,٦	فرنسا	١,٧	١,٠
الولايات المتّحدة	١٠,٦	١٢,٢	الولايات المتّحدة	٤,٧	١٠,٥(٨)

«وتترافق هذه الزيادة الكمّيّة (ازداد عدد الجرائم في إيطاليا من ١٥١ ٢٥٥ ١ عام ١٩٧١ إلى ٩٨٦ ٢٠٤ ٢ عام ١٩٨٧ إلى ٩٣٠ ٢٣٣ ٢ عام ١٩٨٨) بزيادةٍ في شراسة الإجرام الرامي إلى

---

(٨) *Demographic Yearbook of U.N.O*, et *Annuario Statistico Italiano.*

تجريد الناس من ممتلكاتهم». «والجرائم التي كانت السلطة القضائيّة قد بدأت بتنفيذ العقوبات فيها بلغ عددها ٩٣٠ ٢٣٣ ٢ عام ١٩٨٨، وارتفع عددها إلى ٠٩٥ ٢٧٤ ٢ عام ١٩٨٩... ومن أسباب تزايد الجرائم، نذكر الاتّجار بالمخدّرات، واستغلال الدعارة، والاعتداءات الرامية إلى السرقة باستخدام السلاح، وانتشار عادة السعي إلى جمع المزيد من المال «بأيّ وسيلة»(٩).

أمّا حالات الطلاق، التي تبيّن عدم استقرار الحبّ والأسرة، وتسبّب أضرارًا جسيمة على صعيد تربية الأطفال وصحّتهم الجسديّة والأخلاقيّة، فإنّها ترتفع في إيطاليا، إذ انتقلت من ١٠٦٠٠ حالة (بالأرقام التقريبيّة لعدم توافر الأرقام الدقيقة) عام ١٩٧٥ إلى ١١٨٠٠ حالة عام ١٩٨٠. وفي عام ١٩٨٦، بلغ عدد هذه الحالات ٠٠٠ ١٨ حالة، وفي عام ١٩٨٨، ٠٠٠ ٣٠ حالة(١٠).

وفي إيطاليا كذلك، ازدادت حالات الإجهاض من ٠٠٠ ١٨٧ حالة عام ١٩٧٩ إلى ٠٠٠ ٢٣٤ حالة عام ١٩٨٢. ونحن نعلم جميعًا أنّ تعاطي المخدّرات يتزايد كلّ عام، ولا سيّما عند الشباب.

وثمّة مؤشّر آخر يدلّ على الأمراض الروحيّة التي تسبّبها العلمانيّة: وهو ازدياد عدد حاملي فيروس السّيدا والمصابين به.

ويُعلِمنا دليل الإحصاءات الإيطاليّ السنويّ بأنّ جرائم القتل في إيطاليا ازدادت بنسبة ٥١,٧٪ بين عامَي ١٩٧١ و١٩٨٧، كما ازدادت الجرائم التي تستهدف الأملاك الخاصّة بنسبة ٧٪ عام ١٩٨٧، وارتفع عدد عمليّات السلب والنهب بنسبة ٩٠٨,٤٪.

---

(٩) *Avvenire*, 29 déc. 1990, p. 8.
(١٠) *Il Giornale*, 29 nov. 1989, p. 8.

وفي مدّة لاحقة، ازداد عدد جرائم القتل في إيطاليا أيضًا، إذ إنّه انتقل من ١٠٩٦ جريمة عام ١٩٨٧ إلى ١٤٣٢ جريمة عام ١٩٨٩؛ كما انتقل عدد حالات الانتحار من ٢٣٢٦ حالة عام ١٩٧٤ إلى ٤٣٠٥ حالات عام ١٩٨٧، أي بلغت نسبة الزيادة ٩٠٪ خلال ١٣ سنة فقط.

إنّ الإنسان يقتل الله في ضميره، ويكمن الدليل على ذلك في ارتفاع نسبة عمليّات الانتحار.

طرق العالم سهلةٌ، ولكنّها تؤدّي بك إلى الحضيض.

ما يعنيه تزايد تعاطي المخدّرات

الآن وقد انهار الدينُ كأفيونِ الشعوب، أصبح الأفيون دين الشعوب.

ولا يخطئ فروم عندما يؤكّد أنّ المخدّرات نفسها تحتلّ شكلًا جنونيًا من أشكال الدين.

وتتمثّل «قِيَم» المجتمع الاستهلاكيّ في العمل ذي الدخل الجيّد، والأكل والشرب، وممارسة الحبّ والرياضة، والسفر، وتنمية الهوايات. ومع ذلك، فهي لا تنجح في إرضاء الإنسان، إذ إنّه يحتاج إلى أن يضع نصب عينيه قيمة روحيّة مطلقة يلمحها من بعيد: وهي الله. هذه هي القوّة الخفيّة التي طالما دفعت الحضارة إلى الأمام. وإن يُنكِر المجتمعُ القِيَم ويعبد التقنية والاقتصاد - وهذا أحقر أشكال الدين - فإمّا تتّجه الروح بعكس التيّار أو يصبح المرء مجنونًا.

وحتّى في حالة الترف، تصبح الأحداث اليوميّة، بسبب

التكرار، عاديّة ومملّة. وثمّة ما يفتح أمام الإنسان أفقًا تحمّسه، وهي المُثل العليا، التي تُعدّ أشكالًا دينيّة أسمى، رغم أنّها ناقصة.

والتطلّع إلى الله، الذي يتراءى لنا من بعيد، هو الذي دعم الأعمال الكبرى التي بذل فيها الناس جهودًا عظيمة من أجل هدف نبيل، وتقدّموا بصعوبة بفضل نضال مرير بلغ بهم حدّ التضحية بالذات.

وثمّة شكل آخر غير كامل من أشكال الدين، وهو السعي الدائم إلى الأفضل، ذلك السعي الذي دفع الإنسان إلى اختراع العجلة ونول النسيج والمحرّك الكهربائيّ والحاسوب، وإلى اكتشاف أمريكا والطاقة النوويّة، والذي ظهرت بفضله منحوتات مايكل أنجيلو وسيمفونيّات بيتهوفن ونظريّات أينشتاين وفلسفة بلوندل، والذي أفضى إلى حرب الاستقلال الأمريكيّة وإلى الثورة المجريّة وإلى القيام بحملات من أجل الحقّ والعدالة والديمقراطيّة.

أمّا أشكال الدين الأرقى، فهي تلك التي يكون فيها الله قوّةً جاذبة أقرب إلى الإنسان، وهي التي أفضت إلى أعمال بطوليّة قائمة على نشر القِيَم الروحيّة والأخلاقيّة والتبشير بالدين وبالإنجيل، وتطوير الشعوب البدائيّة حضاريًا ودينيًا، وعلى روائع أخلاقيّة تتمثّل في الأبطال العظماء والمبشِّرين والمحرِّرين والرسل والقدّيسين.

ولكن إن أطفأ مجتمع ماديّ جميع النجوم، فلن يبقى للبحار نورٌ يهتدي به في طريقه سوى أضواء السفن العابرة.

في القرون الماضية، كانت التجارة الأوروبيّة مزدهرة بفضل البلدان الاستوائيّة التي كانت مصدرًا للتوابل والتي هي الآن مصدر للمخدّرات؛ ولكن لم يتنشر إغراء المخدّرات على نحو مفاجئ إلّا

في عصرنا هذا. وليس من التسرُّع أن نعتقد بأنّ العصور الماضية لم تكن تعرف الفراغ الروحيّ الذي يسعى الناس إلى سَدِّهِ اليوم بالمخدّرات. وكتب الكردينال راتزِنْغِر يقول: «وبعبارة أخرى، كان تعطُّش الإنسان الروحيّ يجد ما يرويه وما يُزيل الحاجة إلى المخدّرات. ولكي نوضح هذه الفكرة، يمكننا اللجوء بدايةً إلى فكر إرْنست بلُوخ Ernst Bloch.

يرى بلوخ في عالم الوقائع عالمًا ناقصًا، إذ يعني «مبدأ الأمل» أنّ الإنسان يتعارض مع الوقائع تعارضًا شديدًا. ويرى أنّه مُلزم بتحدّيّ عالم الوقائع الناقص لكي يخلق عالمًا أفضل.

ويتابع الكاردينال راتزِنغِر قائلًا: «وأميل إلى الاعتقاد بأنّ المخدّرات شكلٌ من أشكال الاحتجاج على الوقائع وعلى الواقع، إذ إنّ متعاطي المخدّرات يرفض القبول بعالم الوقائع، ويبحث عن عالم أفضل...

«والرحلة الكبرى» التي يحاول أن يقوم بها بعض الناس عن طريق المخدّرات شكلٌ مشوَّه من أشكال الصوفيّة، وتشويه لحاجة الإنسان إلى المطلق، ورفضٌ لاستحالة تجاوز السموّ الإلهيّ، ومحاولةٌ لكسر حواجز الوجود البشريّ من أجل الانطلاق إلى العالَم اللانهائيّ. وهنا تُسْتَبْدَلُ مغامرة التَنَسُّكِ القائمة على الصبر والتواضع، والرامية إلى ارتقاء القمم بخطوات صغيرة شاقّة متّجهين نحو الله الذي ينزل من السماء، تُستبدَل بهذه المغامرة القوّة السحريّة، مفتاح المخدّرات السحريّ، وتُستبدل التقنيّة بالحياة الأخلاقيّة والدينيّة. المخدّرات هي الصوفيّة المزيّفة في عالم لا يؤمن، ولكنّه لا ينجح كذلك في التحرُّر من وسواس الجنّة. إذن فالمخدّرات إنذارٌ بعيد المدى، إذ لا تكشف، في مجتمعنا، فراغًا

لا نملك علاجًا له فحسب، بل تبيّن أيضًا حاجةً متأصّلة داخل الإنسان، وحقًّا إن لم نحصل عليه تحوّل إلى هذا الشكل المنحَطّ»[١١].

لذلك فإنّ المحاولات الرامية إلى استئصال هذا المرض الاجتماعيّ الخطير، يجعل الشباب يهتمّون فقط بالعمل والحبّ وبقيَم أخرى ليست القِيَم المطلقة، هي كمحاولة تخفيض حرارة جسم المصاب بالحمّى عن طريق تبريد ميزان الحرارة.

لم يُخلَق الإنسان من أجل أرض النعيم الخرافيّة، بل من أجل أرض الميعاد. وما من شابّ إلّا ويكتشف في نفسه تلك الرغبة المطلقة، وتلك الثقة الأساسيّة الفطريّة في الوصول إلى أرض الميعاد. ولكن ينبغي أن تبيِّن له التربية أنّه لا يستطيع أن يبلغ أرض الميعاد بدون أن يجتاز الصحراء. فالإنسان يحتاج إلى العلاقة القائمة على المحبّة المتبادلة مع الله، والتي أتى بها المسيح إلى العالم. ويحتاج الإنسان إلى تلك العلاقة بقدر ما يحتاج إلى الهواء والماء، لا بل حتّى أكثر. والاستغناء عنها لا يُعَدُّ تحرّرًا واستقلالًا، بل جنونًا وتدميرًا ذاتيًّا. ونجد في قرننا هذا أدلّة هامّة على هذا الأمر، ومنها: نهاية النازيّة المأسويّة، و«ضمور» الماركسيّة، وإفلاس القِيَم العلمانيّة، والفراغ الروحيّ الذي يعانيه العالم الغربيّ، والخطر الانتحاريّ الذي يتعرَّض له العالم بسبب التلوُّث، وانهيار الأسرة، وانتشار المخدّرات انتشارًا وبائيًّا.

ويمثِّل رفضُ الإنسانِ القانونَ الأخلاقيّ الصادر عن الله تخلّيًا عن الانتماء إلى الكيان الكونيّ الكبير، ويعني الخروج عن قانون

---

(١١) J. RATZINGER, «Il tramonto dell'uomo e la scommessa della fede», dans *Avvenire*, 11 mars 1988, p. 10.

الطبيعة الأساسيّ، أي القانون الأخلاقيّ، وإنكار مركز البيئة، أي البيئة البشريّة، وهو إنكارٌ يسبّب أضرارًا أخطر من أضرار أزالة الغابات وانقراض بعض الأجناس الحيوانيّة.

ويلخّص الأب هنري دي لوباك هذه الفكرة في كتابه **مأساة الأنسيّة الملحدة** على النحو التالي: «ليس من الصحيح أنّ الإنسان، كما يُقال أحيانًا، لا يستطيع أن ينظّم الأرض بدون الله. الصحيح هو أنّه لا يستطيع أن ينظّمها إلّا ضدّ الإنسان»(١٢).

---

(١٢) H. de LUBAC, *Le drame de l'humanisme athée.*

١٨ - الديمقراطيّة والإلحاد

إنّ الغرب بتخلّيه عن أصوله المسيحيّة، يُنكر حريّته كذلك

كانت الصحف تزخر بأعداد كبيرة من الأخبار الرهيبة المتعلّقة بالجرائم الفظيعة وبالمخدّرات، في الوقت الذي كانت الديمقراطيّة الغربيّة تبتهج بالنصر نتيجةً لانهيار عدوّها العالميّ، أي إمبراطوريّة الاشتراكيّة الحقيقيّة.

ويتوقّع فرنسيس فوكوياما Francis Fukuyama، وهو أحد مسؤولي إدارة الدولة الأمريكيّة، أن تعمّم الديمقراطيّة الليبراليّة الغربيّة العالم كشكل نهائيّ ووحيد من أشكال الحكم عند البشر».

ويتساءل موريس بلونديه Maurice Blondet قائلًا: «هل الأمر كذلك فعلًا؟» ويجيب قائلًا: «في المجتمع يتزايد الظلم والملل من الحياة وعدم استقرار العمل والأنانيّة والوحدة والعنف»[١].

والحكومات والبرلمانات أشبه بسوق يمثّل فيها النوّاب والوزراء تكتّلات مصلحيّة خاصّة، وأقلّيّات تطالب بحقوقها، وتجمّعات تأثير أقوى من الشعب. وبالنتيجة، إذا كانت الاشتراكيّة

---

(١) M. BLONDET, «E Gesù creò la democracy», dans *Avvenire*, 12 janv. 1990, p. 13.

الحقيقيّة قد زالت، فهل الديمقراطيّة الغربيّة في صحّة جيّدة حقًّا؟

ويطرح غلين تِندِر Glenn Tinder، أستاذ العلوم السياسيّة في جامعة ماساشوستس، السؤال التالي: «هل نستطيع، نحن الأمريكيّين، أن نبقى طيّبين بدون الله؟». ويجيب قائلًا: «إنّ فضائل الديمقراطيّة الليبراليّة التي نفخر بها، نحن الأمريكيّين، كالقناعة بالكرامة والمساواة بين جميع البشر، لها جذور عميقة في المسيحيّة. أمّا مجتمعنا اليوم الذي يزداد علمانيّةً باطّراد، فإنّه يقطع هذه الجذور. ولكنّه هل يستطيع بدونها أن يبقى مجتمعًا ديمقراطيًا ليبراليًّا؟».

وكَرَّسَ غلين تِندِر لهذا التساؤل الثاني كتابًا بعنوان **معنى المسيحيّة السياسيّ**[٢]، إذ ثمّة مَن يحتجّ على أنّ الإيمان في المسيحيّة أمر روحانيّ وخاصّ، أي أنّه «انعزال عن العالم». وبالتالي فهو على عكس السياسة التي هي نشاط عامّ يتّخذ العالمَ حقلًا له».

ويعترف تِندِر بأنّه «من الصحيح أنّ هذا هو رأي الناس اليوم... ولكن هذا الاعتقاد خاطئ. ففي المسيحيّة – وعلى عكس ما نجده في الأديان الشرقيّة – لم يخلق الله العالم فحسب، بل إنّه ملتزم بالعالم التزامًا عميقًا. والفكرة القائلة بأنّ الإنسان، إذ اتّصل بالله، وجب عليه أن ينفصل عن العالم، تتعارض مع مفهوم الله في الدين المسيحيّ». ونرى نتيجة هذا الانقطاع بين الإيمان والسياسة في المجتمع الحالي بالذات. ويفسِّر تِندِر هذه الفكرة قائلًا: «بما أنّ السياسة قد أصبحت علمانيّة تمامًا، فلا بد أن تنفصل عن الأخلاق،

---

(٢) G. TINDER, *The political Meaning of Christianity*, Louisiana University Press, 1989.

أي أن تفقد هدفها الأخلاقيّ». وتصبح السياسة قضيّة تجمّعات تأثير وطموحات شخصيّة. ولا تساعد الحكومة إلّا الناس المنظّمين وأصحاب التأثير... ولا تُحَدُّ سلطتها إلّا إذا تحكّمت فيها قوى معاكسة قادرة على مجاراتها. والمواطنون الذين لا يتنظّمون ضمن تجمّعات تأثير لا يُسْمَعُ صوتهم مطلقًا.

ويجيب المعترضون قائلين: «إنّ الإدّعاء بإقامة السياسة على المسيحيّة يمثّل هجومًا على التعدُّديّة والتسامح وحرّيّة الرأي. وهذا حنين رجعيّ يخبّئ شكلًا من أشكال الأصوليّة المتعفّنة»... ولا يضطرب تِنذِر لسماع هذا الكلام، بل يقول: «إنّ ما يدعو إلى السخرية هو أنّ الكثير من فضائل التعدُّديّة الأمريكيّة التي لا شكّ فيها، كاحترام الفرد والإيمان بمساواة البشر الجوهريّة، متأصّلةٌ حقًّا في وحدة ما هو سياسيّ وما هو روحيّ التي تتميّز بها المسيحيّة». وهل العلمانيّون متثبّتون حقًّا من أنّ هذه الفضائل والتعدُّديّة ذاتها يمكن أن تستمرّ في الحياة بدون تلك الجذور؟».

ويعترض بعضهم أيضًا مدّعين أنّ هذا الأمر أيضًا يحتاج إلى إثبات، وهو أنّ الديمقراطيّة الحديثة صادرة عن المسيحيّة حقًّا. ويجيب تِنذِر قائلًا: «لننظر في قلب المسيحيّة، أي في الحبّ، ذلك الحبّ الذي يدعو إليه المسيح كنموذج أمثل للعلاقة بين البشر. وبطبيعة الحال، لا يَمُتُّ هذا الحبّ إلى الصداقة ولا إلى العلاقة الجسديّة بأيّ صلة. وليس شعورًا نميل إليه بالطبيعة. وجوهره قائم على التضحية. فقد أحبّ الله العالم كثيرًا، حتّى إنّه أعطى ابنه الوحيد، كما ورد في إنجيل يوحنّا».

ولئن كان من الصحيح أنّ السياسة لم تَشهَد قَطُّ مثل هذه المحبّة الخالصة حتّى في العصور التي يمكن أن نطلق عليها صفة

المسيحيّة بوضوح، تبقى المحبّة مع ذلك الهدف الذي يجب أن يسعى إليه السياسيّ المسيحيّ، لأنّ كلّ إنسان، حتّى أقلّ الناس موهبة، مرسومٌ له أن يصل، بمساعدة الله، إلى **«المجد الإلهيّ»**.

وهذا يعني أنّه «يجب ألّا يُدان الناس دون أن يحاكَموا محاكمة عادلة. ويجب أن يُمْنَحوا الغذاء إذا جاعوا، وأن يُسمَعوا إذا تكلّموا. وهنا يترسَّخ حقّ التصويت الذي يتمتّع به كلّ مواطن في الديمقراطيّات. وعندما تضع الديمقراطيّة نصب عينيها هدف صون «كرامة الفرد» أو «قيمة الإنسان المطلقة»، فإنّها تستند إلى المحبّة المسيحيّة، وقد ترجع، دون أن تعلم، إلى بعض المفاهيم الأخرى كمفهومَي «الخلاص» و«النعمة».

«ويجب على الدولة أن تعامل الناس المُنصاعين لها معاملة عادلة بِغَضّ النظر عن الفروق الاجتماعيّة والطبيعيّة والأخلاقيّة. فلماذا ينبغي للدولة أن تقوم بذلك إن لم تكن تعترف ضِمْنًا بأنّ حساب كلّ شخص في الآخرة هو من شأن الله؟

ويتأمّل تِنِدِر قائلًا: «ترى إلى إيّ مدى لا نزال نتغذّى بالتراث الأخلاقيّ الذي خلّفته لنا المسيحيّة عبر العصور؟ وهو تراث «نستهلكه» ولم نعد «نغذّيه» مطلقًا»

ربّما يستمرّ بنا الأمر إلى أن نستنفِد هذا التراث كلّه. ويردِّد السياسيّون وصانعو الدعايات ومستشارو الصحافة والتلفزيون الغامضون على مسامعنا بأنّ لنا الحقّ في أن نحصل على ما نريد وفي أن نعيش كما يحلو لنا. وبذلك أصبحت المساواة في الحقوق و«تكافؤ الفرص» يقتصران على هذين الأمرين.

ولكن لم يعد هذا يمثّل الحرِّيَّة القائمة على مبدأ «نحن جميعًا

واحد في المسيح»... بل هذا نوع من العدميّة، عدميّة أولئك الذين يعيشون بحسب ما تفرض عليهم اللذّة والمصلحة. وأتساءل هل هذا الأمر يفضي إلى تغيير بنى المجتمع نفسه.

ويضيف بلونديه قائلًا: هذا إن لم يكن المجتمع قد بدأ يتغيَّر فعلًا. أفلا تبدو أمريكا الحاليّة (بل وأوروبّا التي تتبعها كذلك) زاخرةً بالاستهتار الأخلاقيّ والفراغ والسوقيّة، والظلم الذي يقبل به الناس، واليأس الذي يعيشه بعضهم أمام لامبالاة الأغنياء؟ ويجيب تِندِر قائلًا: «العدميّة بديهيّة في الأنظمة ذات النمط الهتلريّ، ولكنّ هناك عدميّة أو نازيّة مبتذلة ومعمّمة، حتّى عندما يعيش العديد من الناس بحسب ما تمليه عليهم المصلحة واللذّة».

وكما يقول أرنولد توينبي Arnold Toynbee، «الديمقراطيّة صفحةٌ اقتُلعتْ من الإنجيل».

ولا يُتوقّع من غصنٍ اقتُلع من شجرةٍ أن يعطي دُرَّاقًا أو خوخًا، بل أوراقًا يابسةً فحسب.

١٤ - الإيمان والحبّ بين الرجل والمرأة

تجاهل الأخلاق الطبيعيّة وانهيار الأسرة

تمثِّل السّيدا والمخدّرات رأس جبل من الجليد. فلنوجِّه اهتمامنا الآن إلى قطاع من الأخلاق ناتج عن غائيَّة الطبيعة، وهو قطاع النشاط الجنسيّ عند البشر.

في العالم الغربيّ المعاصر، يمثِّل هذا القطاع أكثر القطاعات التي تمّ التشكيك فيها وإزالتها. فيتّفق الجميع على استنكار تعاطي المخدّرات والإجرام والعنف وجشع المال والتعطُّش إلى السلطة، لأنّ نتائج هذه الرذائل فوريّة وظاهرة أكثر من غيرها. وعلى عكس ذلك، يتعامل الناس مع الإباحيّة الجنسيّة بكثير من التساهل، إذ تُعتبر خطيئة عَرَضيّة أو حاجةً طبيعيّة أو تَكَيُّفًا ضروريًّا مع العصر أو دليلًا على الحرِّيَّة إزاء المحظورات والأحكام المسبقة.

ولا يحاسب قانون العقوبات الناسَ دائمًا على تجاوزاتهم الجنسيّة. فبطبيعة الحال، لا يحاسب هذا القانون إلّا على الأضرار الفوريّة والمادِّيَّة التي يُلحقها المرءُ بالآخرين، وعلى انتهاك حرِّيَّة الغير. أمّا الأضرار الجنسيّة، فإنّها تضرّ، على المدى البعيد، المجتمعَ والشريكَ المحتمل والأولادَ القادمين، وتضرّ بقدر أكبر الإنسان الذي يرتكبها أو الذي يشارك فيها بحرِّيَّة. وهذه الأضرار

هي من النوع الداخليّ، إذ إنّها تُطفئ نار التطلّع إلى القِيَم الأخلاقيّة وإلى الله، وتلجم الإرادة، وتزيل القدرة على الحبّ الحقيقيّ والمستقرّ، وتُقوّض أركان المؤسّسة الرئيسيّة التي يقوم عليها المجتمع، ألا وهي الأسرة.

وبالتالي، ينبغي لنا اليوم ألّا نرمز إلى الأسرة وإلى الحبّ بين الرجل والمرأة بقلبين متّحدين، بل بفقّاعة صابون، ويجب أن نجعل إله الحبّ كوبيدون Cupidon يحمل بندقيّة ذات سبطانة قصيرة بدلًا من أن يحمل قوسًا وسهمًا.

الكنيسة قاطرة وليست عوّامة

يروي برُوس مارْشال في كتابه **العالم والجسد والأب سميث** أنّ الأب سميث رأى حُلمًا ذات ليلة، وجد فيه نفسه يُنتخَب بابا جديدًا ويُطلَق عليه اسمٌ غريب، وهو باستر الأوّل Buster I. وفي أوّل خطاب له باللغة الإنكليزيّة، أذيع في العالم أجمع، صرّح رسميًّا بأنّه، نظرًا إلى ظروف الحياة البشريّة الحاليّة، يجب أن نكفّ عن اعتبار الحبّ الحرّ خطيئةً، وأن نعتبره بالأحرى جانبًا مهمًّا من جوانب المحبّة الدينيّة.

ولم تلبث أن ظهرت نتائج هذا التصريح. فمنذ اليوم التالي، اكتظّت الكنائس الكاثوليكيّة في العالم أجمع بالمؤمنين الجدد الذين انضمّوا إلى المؤمنين الممارسين القدامى، وكانوا يريدون الإعلان عن انتمائهم إلى الدين والصلاة من أجل صحّة البابا الجديد. كما أنّ الأنغليكان واللوثريّين والأرثوذكس قد تجاوزوا الخلافات اللاهوتيّة واعتنقوا إيمان الكنيسة الكاثوليكيّة. وقد أرسلت تركيا وإيران والهند والصين واليابان بعثات إلى الڤاتيكان لتطلب المزيد

من المبشِّرين، وذاب الإلحاد والعلمانيّة كالثلج في النار. وأخيرًا، أرسل الاتّحاد السوفياتيّ تحت حكم ستالين سفيرًا إلى الڤاتيكان.

كان هذا الروائيّ الإسكوتلنديّ على حقّ، إذ إنّ منشأ الصعوبات التي يعانيها الغربيّون في ما يختصّ بالإيمان لا يكمن في الرأس، بل في أعضاء أخرى. ولا يرتكز محور العلمانيّة (وأحيانًا محور اللاهوت المُنشقّ) على الأفكار اللاهوتيّة بقدر ما يرتكز على قواعد السلوك، أي على الطريقة التي يُطْلَق بها الصاروخ نحو الله. ولا يرفض الإنسان الحالي السلعة، بل السعر الذي ينبغي دفعه. وإن تغضّ الكنيسة الطرف عن بعض «سفاسف الأخلاق» وتترك «الحرّيّة للضمير» في بعض المجالات، تحصل على الضوء الأخضر وتُملأ بالناس المناصرين.

ويتساءل إنسان الشارع قائلًا: كيف إذن يمكن أن يستمرّ هذا المفهوم المتخلِّف والمتعفِّف عن الجنس الذي يماثل مفهوم القرون الوسطى، والذي يُبعِد عن الأسرار، وحتّى عن الإيمان، الملايين من الناس الراغبين في الإيمان، وذلك بسبب بعض رجال الدين الذين يُثبتون، مع ذلك، اطّلاعهم وحداثتهم في سائر نواحي الحياة البشريّة؟

وفي الثاني من أيّار (مايو) ١٩٨٩، ألقى الكاردينال جوزيف راتزنغر، رئيس جمعيّة العقيدة والإيمان، مداخلة مهمّة في لقاء رؤساء اللجنة العقيديّة التابعة للأساقفة الأوروبيّين، وكان ذلك في لاكسنبورغ Laxenburg (ڤيينّا). وبيَّن فيها أنّ في العقليّة الاستهلاكيّة، وعند بعض اللاهوتيّين المتّفقين مع هذه العقليّة، قانونًا يقضي بالاحتجاج على ممارسة الشعائر الدينيّة وعلى إيمان الكنيسة، ويشمل هذا الاحتجاج خاصّةً وبالدرجة الأولى رفضهم

تعاليم الكنيسة المتعلّقة بمنع الحمل والإجهاض والطلاق والتحكُّم في المورثات والشذوذ الجنسيّ والخيانة الزوجيّة والعلاقات الجنسيّة السابقة للزواج.

جميع هذه الموضوعات «متعلّقة برؤية إنسانيّة مشتركة وبفكرة عن الحرّيّة الإنسانيّة تنطوي عليها تلك الرؤية». . . «وبحسب تلك الرؤية، اكتشفنا أخيرًا في وقتنا الحالي حقّ ضميرنا وحرّيّته، وبالتالي لن نقبل بإخضاعه لمجموعة من القواعد تُفرَض عليه من الخارج» (أي يفرضها الله عليه).

ويرجع السبب في ذلك الموقف، الذي نجده حتّى عند العديد من اللاهوتيّين، إلى زوال عقيدة الخلق من لاهوتهم. وإن لم تكن الطبيعة من خلق الله، بل نتيجة للصدفة المحضة، فمن المنطقيّ أن نعترض على اعتبارها سلطةً أخلاقيّة. وبذلك يُعتبَر الجسد ملكًا للفرد يتصرَّف به حسبما يبدو له مفيدًا في تحسين «نوعيّة حياته»:

وهكذا لا يرى الإنسان لماذا لا يمكنه أن يفصل على هواه:

- بين الجماع والإخصاب (مسألة منع الحمل)
- وبين الحمل وهبة الحياة (مسألة الإجهاض)
- وبين اللذّة الجنسيّة والرباط المقدَّس في الحبّ المستقرّ (مسألة الحبّ الحرّ)
- وبين الحبّ الجسديّ والتمييز الجنسيّ (مسألة الشذوذ الجنسيّ)
- وبين الجماع والإلقاح (مسألة الإلقاح في الأنبوب)
- وبين الوراثة والطفل (مسألة التحكُّم بالمورثات).

«وحيث يرحِّب الناس بهذا التوجُّه نحو الاستقلال عن الله ترحيبًا حارًّا، أصبح التمييز عمليًّا بين العلاقات داخل الجنس الواحد (الشذوذ) والعلاقات ما بين الجنسين، وكذلك بين الممارسة الجنسيّة خارج إطار الزواج أو داخله أمرًا تافهًا».

واليوم يخشى الناس – ولهم الحقّ في ذلك – أن يدمِّر الإنسان الطبيعة الخضراء التي تحيط بنا، ولكنّهم غير قادرين على تَلَقّي الرسالة الروحيّة الصادرة عن الطبيعة التي في باطننا. ونحن نعيش اليوم تمرُّد الخليقة على هيمنة الإنسان الجائرة، ولكنّنا نرفض الاعتراف بحدود سلوكنا وضوابطه في كنف الخليقة نفسها.

«إنّ تملُّك الطبيعة عقلانيّة رياضيّة أمرٌ أصبح ملموسًا إلى حدٍّ ما. أمّا الفكرة القائلة بأنّ هناك عقلانيّة أخلاقيّة تتجلّى كذلك في الطبيعة فإنّها تُرفَض كحُلمٍ ميتافيزيقيّ».

«وتبقى علاقة الإنسان مع الطبيعة (التي لم تعد تنتمي إلى الخليقة) علاقةَ تَحَكُّم ولا تصبح علاقة تفاهم. وتبقى علاقةَ سيطرة مبنيّة على الادّعاء بأنّ الحساب العقلانيّ قادر على أن يجاري «التطوُّر» في ذكائه، وأن يجعل العالم يتطوّر بطريقة أفضل ممّا تطوّر حتّى الآن بدون تدخُّل الإنسان».

وفي مقابل اضطرابات المجتمع الإباحيّ الخطيرة، نشأ لدى العديد من الناس وعيٌ صامت للحاجة إلى بديل. «إلّا أنّ هذا البديل لا يمكن أن يكون إلّا إذا أعيد طرح عقيدة الخلق».

«ينبغي لنا أن نبيِّن مرّة أخرى أنّ العالم قد خُلِقَ «بحكمة» وأنّ عظمة الإنسان لا تكمن في الاستقلاليّة البائسة التي يَدَّعيها قَزَمٌ يُنَصِّبُ نفسه سيِّدًا للعالم»، بل في أن يُستشَفَّ من كيانه الغاية المثلى، أي الارتقاء إلى ذي الكمال»(١).

ومن ناحية أخرى، ينسى المرء أنّ ما يستحيل على الإنسان بمفرده يصبح ممكنًا بقدرٍ كافٍ من الصلاة والنعمة.

---

(١) J. RATZINGER, in *L'Osservatore Romano*, 1 juillet, 1989, p. 7.

ومن المؤكّد أنّ نظريّة الصدفة المحضة والضمير المستقلّ أسهل للمرء، إلّا أنّها لا تفضي إلى الخلاص. وكان كذلك من الأسهل على السلطة العقائديّة أن تسعى إلى اكتساب الشعبيّة وتتفادى هروب الناس، ولكنّ الكنيسة واللاهوتيّين لا يستطيعون أن يستبدلوا بعلاج الإيمان المرّ علاجًا آخر حُبًّا للشّعبيَّة.

وكان تشيسترتُن يقول إنّ الله أرسل الكنيسة من أجل خلاص البشريَّة وأرادها قاطرة، لا مقطورة يجرُّها الرأي العامّ. ويجب أن يكون شعب الله مركبًا ذا محرِّك يبحر بعكس تيّار الغرائز السهل، وليس قاربًا محمَّلًا بالناس يجرفه التيّار الشديد نحو الهاوية.

هِرْبِرْت مركوز و«الحرِّيَّة» الجنسيّة

بحسب الكتاب المقدَّس، هناك تشابه بين الصلاة وزوج من العاشقين. فالصلاة هي الواقع، والثاني رمزٌ ضعيف يعكس هذا الواقع.

وإنّ السبب الرئيسيّ في انعدام الثقة بالكنيسة في ما يختصّ بالجنس لم يعد يكمن في الاتّهام - الذي أصبح الآن باليًا - بتملّق الأغنياء وذوي النفوذ، بل في الاتّهام بالشدّة المفرطة وبعدم التفهُّم في مجال الأخلاق الجنسيّة.

فمن بين القواعد الأخلاقيّة التي تفسِّرها الكنيسة بهذا الخصوص باسم تعاليم المسيح الشاملة، هناك قواعد تبدو بوضوح ضروريّة لتنقية المجتمع، الأمر الذي يعترف به حتّى بعض المفكِّرين وعلماء الاجتماع «العلمانيّين». وهناك قواعد أخرى تبدو مستعصية على الفهم استعصاءً شبه كامل، ومستحيلة التطبيق في معظمها، لأنّها جزء لا يتجزّأ من مجموعة جوانب تنتمي إلى الوحي

الإلهيّ الذي لا يمكن أن يُبيِّنه ويجعله قابلًا للتحقيق إلّا تَعمُّقٌ جادٌّ في الإيمان بالتأمُّل والصلاة الشخصيّة والتنسُّك المسيحيّ.

ولا يعرِف ضعيفُ الإيمان كم الجنس مقدَّس ومرتبط بالله وبهدف الوجود الأوَّل. ولا يدرك بالقدر الكافي أنّ الجنس ليس زيتًا يسهِّل عمل الآلة، ولا لهوًا يمنح الحياة لونًا وطعمًا، ولا تسلية أو رياضة يمكن أن نتقبَّل فيها بعض «الطيش». ويُعَدُّ الجنس، باعتراف الكثير من علماء النفس وعلماء الاجتماع اليوم، أهمَّ آليّة نفسيّة تقوم عليها صحّة الناس النفسيّة والروحيّة وحتّى الجسديّة، كما تقوم عليها خاصّةً حياة تلك المؤسَّسة التي لا بديل لها، والتي هي الأسرة.

«لأيِّ سبب يظهر الجنس على أنّه القوّة الرئيسيّة التي تكوِّن الشخصيّة تكوينًا يكفي لتنمية الأنا أو تضليلها؟ الجنس جوهر طبيعيّ يؤثِّر الحبّ من خلاله في الأنا. وإذا كان الجنس ينشِّط بدافع الحبّ المبنيّ على التضحية أو يتمزَّق بسبب حبّ آسر أنانيّ، فإنّه يُحيي الطاقات البشريَّة العميقة، في الحالة الأولى، ويصيبها بالعقم في الحالة الثانية... إذ إنّ الجنس يمثِّل الحركة التي تبثّ الروحانيّة في كامل الأنا، شرط أن يكون هو نفسه قابلًا لتشرُّب الحبّ النبيل»[٢].

وبحسب تعريف أُوتّو Otto[٣]، تُضفي القُدسيَّة على الشيء الذي يستند إلى ما هو إلهيّ، أو إلى ما يتعلَّق، بطريقة ما، بنظام الأشياء الألهيّة».

أمّا اليوم، فإنّ الملحدين وضعيفي الإيمان نزعوا من الجنس

---

(٢) T. GOFFI, *Sessualità*, dans *Nuovo dizionario di spiritualità*, Ed. Paoline, Roma, 1979, pp. 1444-1445.

(٣) R. OTTO, *Il Sacro*, Feltrinelli, Milano, 1960.

صفة القدسيّة. «ويؤدّي نزع صفة القدسيّة من الجنس إلى جعله أمرًا عاديًا ووضعه في مصافّ الأشياء القابلة للتحكّم، والخاضعة تمامًا لحرّيّة الإبداع البشريّ». فالإنسان يريد أن يستخدم الأجهزة بدون أن يضع في اعتباره تعليمات المُصَنِّع.

«وهذا الابتذال ناتج عن ابتذال أعمّ قائم على نزع القدسيّة، وعن أزمة في القِيَم وفي اليقين لا تزال قائمة، ولا يمكن توقُّع نهايتها».

وكان للجنس على الدوام طابع دينيّ، على الأقلّ لأنّه خاضع لقوانين أخلاقيّة... ولمّا كانت الحقائق الدينيّة موضع نقاش، فإنّ الأخلاق تراجعت بالتدريج، إذ جرفتها أزمة القِيَم الشاملة»(٤).

ولا يدعو فرويد مطلقًا إلى حرّيّة الجنس الكاملة، على عكس ما يبدو من خلال ابتذال فكره وتضخيمه في ثقافتنا الشائعة. فهو يعرف أنّ هذا الأمر يؤدّي إلى نهاية الحضارة، كما يؤدّي إلى تدهور النشاط الجنسيّ نفسه. ويكتفي بالتحذير من بعض أشكال القمع التي تنطوي عليها الأخلاق التقليديّة، وينوّه بالدور الذي يقوم به تصعيد الرغبات في تحرير الشخصيّة وتكوينها(٥).

أمّا الذي يحلم بتحرير مبدأ اللذّة تحريرًا كاملًا فهو ماركوز. فإنّ التقدُّم التقنولوجيّ واحتمال تعميم الترف، بحسب ماركوز، قد أزالا كلّ مبرِّر للقمع الجنسيّ الذي لا يستمرّ إلّا باستمرار سيطرة

---

(٤) G. GATTI, *Morale sessuale, educazione dell'amore*. Elle Di Ci, Leumann (Torino), 1979, p. 50.

(٥) Cf S. FREUD, «La morale sessuale civile e il nervosissimo moderno», dans *Opere*, Boringhieri, Torino, 1967, vol V., pp. 411-430.

الإنسان على الإنسان، إذ يكون أداةً للاستعباد والاضطهاد(٦).

كلام معسول يُخفي وراءه الاستعباد والوحدة وعدم القدرة على الحبّ العميق والدائم، تلك الأمور التي تسود العالم «المحرَّر جنسيًّا».

مَن اخترع الحبّ؟

من الأمور التي تبدو بديهيّة ويقبل بها الجميع أنّ المصادر الرئيسيّة التي تنشأ عنها المودّة البشريَّة تتمثَّل في المحبّة القائمة بين الأب والأمّ والولد وبين الرجل والمرأة. وتمثِّل هذه المصادر الحبّ العظيم، والوحي القويّ الذي يتجلّى في الجمال والشِّعر والموسيقى والابتسامة واللعب والرقص والعمل والأسرة والفنون والدين(٧).

وبدون ربيع الحبّ العظيم الذي يتجدَّد على مستويات تزداد روحانيّة وأصالة على الدوام، يبدو الوجود البشريّ قاتمًا ومجرَّدًا من المعنى، ومن الحرارة، ومن الحيويّة والسحر الضروريّ للحياة.

فالحبّ العظيم، ولا سيّما ذلك الذي يربط بين الرجل والمرأة في بداياته المثاليّة، يُلقي الأنا خارج الذات في انطلاقة اتّحاد وثقة مطلقة تُلهِب الذكاء، وتنشِّط الإبداع، وتدعم العمل، وترسِّخ المثابرة، وتُوَلِّدُ الفضيلة، وتُتيح فرص التضحية، وفضلًا عن ذلك يغذّي الفرح بالحياة.

يؤدّي تأمُّل الحبّ العظيم إلى الإيمان بالله، وإلى فهم شيء من الله، وإلى الشعور بالانجذاب إليه. وإنّ اختراع التكامل الجنسيّ

---

(٦) Cf H. MARCUSE, *Eros e civiltà*, Einaudi, Torino, 1968.

(٧) O. TRIBAUDT, *L'amore, questo sconosciuto*, Gribaudi, Torino, 1967.

الذكريّ الأنثويّ هو أكثر الاختراعات إبداعًا وفنًّا على الإطلاق، فهو اختراع لا يفقد جدّته وسحره أبدًا، إذ إنّه يُبعِد، في تكوين أوائل الكائنات، الصدفة العمياء التي لا تقودها أيّة إرادة إلهيّة، من جهة، ويمتنع، من جهة أخرى، عن اعتبار هذه الكائنات آلات فيزيائيّة كيميائيّة، ذلك أنّ اللذّة والفرح والجمال والجنس والحبّ بمختلف مستوياته البيولوجيّة والعاطفيّة والروحانيّة تمثّل حقائق ذات طبيعة تختلف كلّ الاختلاف عن طبيعة القوى الفيزيائيّة الكيميائيّة.

ومن وجهة النظر المسيحيّة، يمثّل التكامل الجنسيّ الذكريّ الأنثويّ والحياة نفسها آثارًا واضحة للتدخُّل الإلهيّ، أي تدخُّل مخترعٍ طبع على جسم الكائنات وعواطفها علامته وتوقيعه.

فإنّ الله، في دين المسيح، حبٌّ روحانيّ شديد النقاء، حبّ يجمع الأقانيم الثلاثة في كيان واحد وذكاء واحد وإرادة واحدة.

فأوّلًا، نجد في كلّ كائن حيّ متميّز ما نجده في كلّ الخليقة، إذ ثمّة تناغمٌ وتعاون يجتاح أعضاء الجسم اجتياحًا غامضًا، وكأنّ هذه الأعضاء يحبّ بعضها بعضًا، وكأنّ ذلك الحبّ يجعلها كائنًا واحدًا.

وثانيًا، تتحقّق في الكائنات التي هي أدنى من الإنسان فاتحة السيمفونيّة المتمثّلة في التجاذب واللذّة والتعاون بين الذكر والأنثى لدى الحيوانات.

أمّا الحبّ البشريّ العميق، فيمثّل الانفتاح. وهنا نلحظ تشابهًا حقيقيًّا مع الله: إذ يميل الرجل والمرأة إلى وهب كلّ حياتهما وكلّ كيانهما وهبًا نهائيًّا، وبذلك يؤلّفان قلبًا واحدًا وروحًا واحدة.

ولكن هناك أمر يفوق ذلك بكثير. ففي الكتاب المقدّس، يهب

الله حبَّه للكائن البشريّ؛ وهو حبّ يتناسب طردًا مع درجة انفتاح الإنسان على الله.

فمَن يكون مستعدًّا لقبول ذلك الحبّ وتقاسمه إلى حدّ ما فقط، يهبه الله الإخلاص المتبادل والسلوك ويكافئه كما يكافئ الملك الطيّب فردًا مخلصًا من أفراد شعبه.

ثمّ يأتي ذلك الذي يكرِّس نفسه لله بسخاء. وفي هذه الحالة، يقدِّم له اللهُ نفسَه كصديق مخلص وأب بعيد النظر.

أمّا الذي يُخْضِعُ ذاته للحبّ الإلهيّ بلا حدود، أي يهب نفسه وهبًا كاملًا، فإنّ الله يعرض عليه اتّحادًا معه يشبه العطاء المتبادل بين شابّ وشابّة يكرِّس كلّ منهما حياته للآخر.

الرجل والمرأة المتحابّان رمز لله(٨)

أثناء تفتُّح الحبّ بين الرجل والمرأة وازدهاره، يشعر كلّ منهما بأنّه مدفوع إلى السعي إلى الاتّحاد الكامل بالآخر. وتتّجه تطلّعاتهما - بدافع إراديّ أو لاإراديّ - نحو شيء مطلق ولا نهائيّ وإلهيّ. وينتج عن ذلك مواقف تتّسم بالحماسة، وإضفاء هالة مثاليّة حول الآخر، والتفاني الكامل والخالد، وتكاد تبلغ حدّ العبادة. ولكن مع الزمن، تزول تلك الهالة ويكتشف كلاهما التناقض بين المطلق الذي كانا يحلمان به وحدود الواقع.

فلماذا هذه التوقّعات المغالى فيها وتلك الخيبات التي غالبًا ما تكون شديدة المرارة؟ لأنّه كُتِبَ للكائن البشريّ - على حدّ قول المسيح - أن يطوف للأبد على المحيطات اللانهائيّة التي تمثّل

---

(٨) C. CARRETTO, *Famiglia piccola chiesa*, Ave, Roma, 1974.

الحبّ الزوجيّ والكامل الذي يربط الإنسان بالله نفسه. ولم يكن الطلب مبالغًا فيه، بل كان العنوان خطأً فحسب.

لا شكّ أنّ الله لا يقوم بأيّ تمييز بين الجنسين، بل هو في جوهره «علاقة بين المتكلّم والمخاطب». والعلاقة بين الرجل والمرأة مرتبطة بالله لأنّهما، بحسب الكتاب المقدّس، خُلقا على صورته(٩). فإنّ كلًّا من الرجل والمرأة يتيح للآخر - بحسب عمق الحبّ الذي يربطهما - فرصةَ انفتاح نحو العالم السامي الذي يفوقهما. فإنّ اكتشاف ثروات الآخر الروحيّة لا يمكن أن يرضيهما إرضاءً تامًّا، لأنّهما كائنان محدودان، في حين تسعى روحهما إلى الجمال وإلى الحبّ الجذريّ. وبذلك يُفتَح بالتدريج طريقٌ يؤدّي إلى اللقاء مع النبع، أي مع ذلك الذي اسمه الحبّ.

وهنا ينشأ رمز الحبّ الزوجيّ الذي اقترحه الله على الإنسان، والذي استخدمه المسيح كذلك، إذ أطلق على نفسه اسم **الزوج**. الرجل والمرأة صورة عن الله لأنّ كلًّا منهما يسعى إلى الاتّحاد بالآخر، ولكنّ الاتّحاد الحقيقيّ الذي يفضي إلى السعادة هو ذلك الذي يقدّم لكلّ كائن خارج إطار الصورة، أي في الواقع الإلهيّ(١٠).

---

(٩) «فخلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه، ذكرًا وأُنثى خلقهم» (تك ١ : ٢٧).

(١٠) Cf. P. GRELOT, *La coppia umana nella Sacra Scrittura*, Vita e pensiero, Milano, 1976; O. LEVASSORT, *Felicità d'amare*, Città Nuova, Roma, 1978; Aa Vv., *La sessualitá umana*, Queriniana, Brescia, 1978.

مقياس الحبّ الحقيقيّ يشير إلى زواج مستقرّ

يمثّل الحبّ بين الرجل والمرأة رمزًا للعلاقة بالله وتمهيدًا لها، كما يمثّل محور القِيَم الجماليّة والاجتماعيّة والأخلاقيّة والروحيّة على الأرض، وأساس أهمّ مؤسّسة بشريّة، ألا وهي الأسرة. والحبّ بصفاته المميَّزة هو الذي يمثّل ركائز القواعد الأخلاقيّة التي تقوم عليها صحّته.

وتتمثّل أهمّ سمة من سمات الحبّ في مبدأ **الحبيب الواحد**، أي مبدأ **«أحبّك أنتَ وحدَكَ، وأنتِ وحدكِ»**. فَمَنْ يحبّ يسعى إلى امتلاك الحبيب امتلاكًا كاملًا. ومجرّد وجود شخص ثالث بينهما يُهين المُحبّ. ويكفي أن يفكّر هذا المُحبّ بأنّ الحبيب قد يشعر بالمَيل إلى شخص آخر حتّى تثور ثائرته غيرةً. فحبّ الحبيب يستقطب جميع الأحاسيس بحيث لا يبقى إلّا القليل من المَيل إلى الآخرين.

ويُوَلِّدُ الحبُّ الرغبةَ الشديدة في حضور الحبيب والتَّوْقَ إلى العيش معه. ثمّ يتجلّى في القُبَلِ والمداعبات وإشارات المحبّة الرقيقة التي، إن لم تُضبَط، تؤدّي بسرعة إلى **الجماع**.

في الحبّ المتبادل يتحقّق **توحُّد المصالح**، إذ يميل الطرفان إلى أن يحبّا ويرفضا الأشياء نفسها، ويحتاجان إلى تقاسم كلّ شيء والتشارك في كلّ شيء.

والحبّ يحجز القلبين ويريد كلّ منهما أن يدوم هذا الوضع للأبد («أحبّك للأبد»)، وبالتالي لا يرغبان إلّا في أن يبنيا حياةً مشتركة في أسرع وقت ممكن.

ويتفرّد الحبّ باتّجاهه **الطبيعيّ**، أي الخاضع لإرادة الله، نحو

الزواج، والإخلاص المتبادل، وإنجاب الأولاد وتربيتهم، والتكامل الروحيّ. وإن لم يكن الزواج هدف ذلك التجاذب بين الرجل والمرأة، فلماذا تُولَد الرغبة في أسر قلب شخص ما دون غيره؟ الزواج هو الحالة الوحيدة التي يقتضيها هذا الحبّ: **فالزواج هو الرابط الوحيد الذي يتمتّع بميزات كهذه**[١١].

فرانسواز ساغان والحبّ فقّاعة الصابون

يضع الإنجيل قانون الأخلاق الجنسيّة في إطار استقرار الزواج والأسرة. فعندما يسأل الفرّيسيّون يسوع عمّا هل يُسمح للرجل أن يطلّق زوجته، يذكّرهم بما هو قائم في قصّة الخلق: «فما جمعه الله فلا يُفَرِّقَنَّه الإنسان» (مر ١٠/٩)، ثمّ يقول: «مَن طلّق امرأته وتزوّج غيرها فقد زنى عليها. وإن طلّقت المرأة زوجها وتزوّجت غيره فقد زنت» (مر ١٠/١١-١٢).

وَرَدًّا على اعتراض بعضهم بأنّه من المستحيل أن نقاوم حبًّا جديدًا، يبيِّن المسيح أنّ الحلّ يكمن في ضبط الحواس ومنعها من التفتّح. لذلك فهو يصرِّح بقوله: «سمعتم أنّه قيل: «لا تَزْنِ». أمّا أنا فأقول لكم: مَن نظر إلى امرأةٍ بشهوة زنى بها في قلبه» (متّى ٥/٢٧-٢٨).

إنّ قسوة المسيح والكنيسة في ما يختصّ بالحبّ والجنس ليست صادرة عن نزعة تعفّفيّة ولا عن عجزٍ عن فهم الإنسان، بل إنّها، على العكس، صادرة عن معرفة عميقة للطبيعة البشريّة: فالرجل والمرأة يحتاجان إلى حبّ عميق ومستقرّ لكي يكبرا إنسانيًّا

---

(١١) G. PERICO, G. KELLY, *L'amore nei giovani*, Centro Studi Sociali, Milano, 1969, pp. 27-30.

ودينيًّا وأخلاقيًّا. ولكي لا يقع الأولاد في الرذائل، ولكي يتلقّوا تربية أخلاقيّة متينة، ولكي يكبروا وهم يمتلكون شخصيّة سليمة نفسيًّا، يحتاجون إلى أن يَتَحابَّ والداهم محبّة قويّة ومستديمة. ولا يحصل هذا إلّا برباط الزواج الذي لا يُفسَخ، والذي يقوم على العادة المتمثّلة في تغذية الحبّ المتبادل، وفي التسامح، والسيطرة على الغرائز، وعدم إثارة علاقات عاطفيّة جديدة[١٢].

أمّا اليوم، فإنّ العقليّة السائدة، القائمة على الإباحيّة والفطريّة والشهوانيّة، تجعل الحبّ ينبت ويذبل بسرعة مثل الفطر، ويُشعل ويُطفأ كأعواد الثقاب، ويؤكّد عبارة: «أحبّكِ حبًّا جنونيًّا، وأريد أن تصبحي زوجتي الأولى».

ومن الشائع أن يقال اليوم: «ينبغي أن ينشأ الحبّ عفويًّا، وعندما يوجد يجب ألّا نحُدّه بأيّ ضابط أخلاقيّ أو دينيّ». ولكن إذا فعلنا ذلك، لا يكبر الحبّ ولا يصبح عميقًا ولا يقوم على التضحية، بل يبقى غريزة حيوانيّة، ويموت بسرعة، ويخلّف وراءه الوحدة.

يتّسم الحبّ العميق بالفرح المستقرّ، لا سيّما إذا كنّا نعرف الشخص الذي يجعل هذا الحبّ ممكنًا، ونعلم إلى أيّ أفق يقودنا. ويكفي أن نمرّ من أمام صالة سينما حتّى ندرك ماذا يَحُلُّ بذاك الحبّ عندما ننسى أصله (أندريه فرُوسّار).

نعم، إنّ حبّ الإنسان المعاصر، الذي غالبًا ما يكون حبًّا جنسيًّا، يكلّف قليلًا ولكنّه لا يساوي إلّا القليل أيضًا.

تتحدّث فرانسواز ساغان عن الوحدة الوجوديّة الناتجة عن

---

(١٢) G. MARTELET, *Existence humaine et Amour.*

زوال علاقات الحبّ الأهوائيّة باستمرار، إذ تقول: «ولكن لحظات الفرح تلك، أي لحظات الانتماء إلى الحياة، تؤلّف في النهاية نوعًا من الغطاء أو اللباس المريح الذي نضعه على جسد وحدتنا العاري والمنهك والمرتعش. والكلمة الهامّة التي أقصدها هنا هي: الوحدة»(١٣).

وانهيار الأسرة المستقرّة بسبب الإباحيّة الجنسيّة الحديثة هو السبب الأساسيّ في أزمة القِيَم وفي ازدياد عدد جرائم القتل والسرقات، وتكاثر الفساد وتعاطي المخدّرات وحالات العُصاب.

ويتّفق الجميع على أنّه من الواجب ومن الضروريّ أن نضبط أنفسنا في حالات الخوف والغضب والكراهية وثبوط العزائم والحزن والانجذاب إلى الأشياء التي تعجبنا والتي قد تؤذينا. ولكن من الغريب أن يصرّ بعضهم على القول بأنّ السيطرة على الذات لم تعد تُمارَس قياسًا إلى عاطفة أخرى يمكنها كذلك أن تصبح مصدرًا لعدد لانهائيّ من الأخطاء والصدمات والجروح النفسيّة والجرائم: «يجب أن يكون الحبّ حرًّا».

نعم، يجب أن يكون الحبّ حرًّا، ولكن عندما يكون إخلاصًا للحبّ فحسب.

متى وكيف يمكننا التحكُّم في الحبّ الجنسيّ(١٤)

كتبت شابّة إلى مديرة مجلّة نسائيّة كبيرة قائلة: «عزيزتي آبي Abby، أودّ أن أتعرّف إلى شابّ من عمري يملك فكرة سامية عن الحبّ. التوقيع: روزي». فأجابت المديرة قائلة: «عزيزتي روزي،

---

(١٣) F. SAGAN, *Lividi sull'anima*, Rizzoli, Milano, 1975, p. 42.

(١٤) T. GOFFI, *Etica sessuale cristiana*, Ed. Dehoniane, Bologna, 1972.

وأنا أيضًا. التوقيع: آبي».

وثمّة شعاران في وسائل الإعلام بحروف من ذهب في عقول الشباب، وهما: «عندما نحبّ، لا يعود من الممكن ولا من السليم أن نضبط الحبّ» و«عندما نحبّ الواحد الآخر، ونتزوّج، يبقى هناك العلاج بالطلاق».

أمّا حياة المتزوّجين الحقيقيّة، فتؤكّد أنّه، عندما لا نمسك بزمام الحبّ ونُقدِم على الزواج، يحدث خَلَل في الغالب، ويأتي الطلاق علاجًا أسوأ من المرض نفسه.

وعلى عكس ذلك، تُعلِّم الكنيسة أنّ الحبّ، شأنه شأن سائر العواطف، يمكن أن يوجَّه بحسب تعاليم الإنجيل وعلم النفس، وأنّ المرء، في معظم الحالات، يستطيع أن يتفادى الزواج الفاشل.

كما أنّ إدراك المرء لكون الزواج، بحسب الإرادة الإلهيّة، حبًّا لا يمكن فسخه يدفعه إلى التثبُّت بعناية، قبل تأجُّج الهوى، من أنّ العلاقة قائمة على حبٍّ مدَعَّم بالصداقة الحقيقيّة، ومن أنّ طباعه تتناسب مع طباع الآخر. وبعد الزواج، يدفع عدم شرعيّة الطلاق المرءَ إلى تقبُّل التضحيات التي لا بدّ منها والعيوب المتوقّعة في الآخر، وإلى فعل المستحيل من أجل إنقاذ الحبّ وتعميقه بترميم الصدوع فور ظهورها.

وأخيرًا فإنّ الحبّ الذي لا يُفسَخ يدفع المحبّين، قبل الارتباط المقدَّس، إلى فتح العينين تمامًا، وإلى إغماض إحدى العينين بعد الزواج.

ومن أجل السيطرة على عاطفة الحبّ وجعلها قاعدة لأسرة من أسعد ما يمكن، يجب - كما في جميع الأمور الهامّة - ألا يركن

المرء إلى انطباعه ولا إلى ما يعجبه، بل ينبغي له أن يراعي قواعد سلوكيّة محدَّدة.

ويجب أن نعلم قبل كلّ شيء أنّ الانجذاب الجنسيّ في اندفاعه الانفعاليّ أعمى وغير خاضع للعقل، ولذلك ينبغي أن يُوَجَّه. فقد يحبّ المرء شخصًا متزوِّجًا، أو في سنّ صغيرة أو كبيرة غير مناسبة، أو منحرفًا، أو غير شريف، أو مدمنًا على المخدِّرات لا أمل منه، أو شابّة لا تناسب أبدًا أن تكون زوجةً لأحد. والانجذاب الجنسيّ لا يُتيح فرصة تحليل صفات الشريك الروحيّة وطباعه، بل هو أشبه بالغضب والخوف، أي أنّه يعتمد على الغريزة.

في هذه الحالات، يجب ويمكن أن نبعد الانجذاب الجنسيّ عن الشخص العاجز عن صدّه قبل أن يصبح قوّة لا تُقاوم ويشوّه القدرة على التمييز بين الأمور. ففي الواقع، لا يُعَدُّ الانجذاب الجنسيّ حبًّا حقيقيًّا، بل هو مجرَّد ذهول غريزيّ عاجز تمامًا عن بناء لُحمة قويّة وتحقيق اندماج حقيقيّ بين الطرفين(١٥).

وباختصار، لئن كان الله يرسم حدودًا للجنس، فإنّه يفعل ذلك لكي يبرِّر قيمة الحبّ.

أدْلِر ويونغ وفرانكل ومنشأ العُصاب

إكتسب فَهمنا الدوافع البشريَّةَ بعدًا جديدًا تمامًا منذ أن بدأت تنتشر أفكار فرويد عن تأثير الجنس في الشخصيّة.

بيد أنّ زعماء مدارس علم النفس بعد فرويد قدَّموا البراهين

---

(١٥) D. TETTAMANZI, *Sposarsi nel Signore*, AVE, Roma, 1975.

الكافية على أنّه من الخطأ أن لا نرى في الحاجات النفسيّة البشرية سوى الرغبات الجنسيّة والليبيدو، وأنّه من الجمود أن نعتقد بعدم وجود بديل بين كبت الرغبات وإرضائها، وبأنّ الإنسان الذي لا يُرضي هذه الرغبات جسديًّا أو فكريًّا يتعرَّض لخطر العُصاب ولغير ذلك من الاضطرابات النفسيّة. وحتّى فرويد يرى أنّ الصحّة والسعادة الداخليّة وتحقيق الذات يمكن أن نحصل عليها من خلال **التصعيد**، وهو عمليّة نفسيّة تُستبدل عن طريقها ببعض أشكال الإرضاء الجنسيّ الجسديّة أو الفكريّة أنشطة مفيدة اجتماعيًّا، كالفنّ والعلم والعمل والتضامن البشريّ والصداقة. وفي هذه الحالات، يقوم الليبيدو بعمله في اللاشعور(١٦).

وأثبت أدلر ويونغ وفرانكل وغيرهم من المحلّلين النفسيّين أنّ الرغبة الجنسيّة ليست حاجةً مطلقة لا بديل لها كالأكل والتنفُّس والنوم. فالصداقة ومساعدة الآخرين والالتزام والإيمان والنشاط الدينيّ، جميع هذه الأمور قادرة على تخفيف الرغبة الجنسيّة تخفيفًا إيجابيًّا والاستبدال بها بدون أيّ ضرر يصيب الصحّة أو السعادة بالوجود. فإنّ هذه الأنشطة تشترك مع الحبّ بين الرجل والمرأة في نقطة لا تنشأ في طبقة واحدة من الشخصيّة (الليبيدو)، بل في حاجة أشمل منها وأعمق، وهي الاتّحاد المتبادل مع سائر البشر ومع «الأَنتَ» المثاليّ، أي الله. والشعور الذي نعيشه في هذه الأشكال العاطفيّة نجد تفسيرًا له في ظاهرة يُطلق عليها اسم **النقل العاطفيّ**، وهو العمليّة التي ينتقل من خلالها الانجذاب أو اللذّة الباطنيّة التي نشعر بها أو نتخيّلها في الحبّ الجنسيّ إلى عناصر خاصّة بالحياة

---

(١٦) S. FREUD, *L'Io e i meccanismi di difesa*, Boringhieri, Torino, 1970; Id., *Introduzione allo studio della psicanalisi*, ibid, 1969.

الروحانيّة تملك نقاط تشابه به على مستوى أرقى[17].

أمّا حاجات الإنسان الحقيقيّة التي لا بديل لها، والتي تؤدّي إلى العُصاب إن لم تُسَدَّ، فقد درسها المحلّلون النفسيُّون المذكورون أعلاه درسًا مستفيضًا.

كرّس ألفرِد أدلر (١٨٧٠-١٩٣٧) جهوده لدرس الحاجات الاجتماعيّة، وبيِّن أنّ الحالة الطبيعيّة حقًّا التي تقع على نقيض حالة العُصاب هي التركيز على الجماعة، بفضل «الحسّ الجماعيّ»، وعلى المهمّة التي يفرضها الإنسان على نفسه بالجهود المتكرِّرة (تحقيق الذات و«الرغبة في الكمال»)[18].

وركّز كارل غوستاف يونغ (١٨٧٥-١٩٦١) دروسه على الحاجات النفسيّة اللاشعوريّة (كالفكر والحقيقة، والمشاعر والفرح، والأحاسيس والمعطيات الخارجيّة، والحدس ومعرفة الذات الحقيقيّة)[19].

أمّا ڤيكتور أ. فرانكل، مؤسّس «التيّار الڤيينّيّ الثالث في المعالجة النفسيّة»، فيرى أنّ ما يسيطر على الإنسان لا يتمثّل في الدوافع اللاشعوريّة (فرويد) أو في العوامل النفسيّة اللاشعوريّة فحسب، بل يتمثّل كذلك في أمر روحانيّ لاشعوريّ، أي في الروحانيّة اللاشعوريّة. وفي رأي فرانكل، لا بدّ للمعالج النفسيّ من

---

(١٧) J. NUTTIN, *Psicanalisi e personalità*, Ed. Paoline, Alba, 1953, pp. 78-79 e 183.

(١٨) A. ADLER, *Il temperamento nervoso. Principi di psicologia individuale comparate e applicazioni alla psicoterapia*, Astrolabio, Roma, 1950; Id; *Conoscenza dell'uomo*, Mondadori, Milano, 1954; Id., *Prassi e teoria della psicologia individuale*, Astrolabio, Roma, 1967.

(١٩) C.G. JUNG, *Psicologia e religione*, Comunità, Milano, 1962; Id., *Opere*, Boringhieri, Torino, 1965.

أن يواجه، في ممارسته اليوميّة، بعض المشكلات المتعلّقة بمعنى الحياة البشريّة. ولا يكمن سبب العُصاب في كبت الدوافع الجنسيّة أو العوامل النفسيّة فحسب، بل يكمن أيضًا في كبت النزعة الدينيّة، وهذا ما يحدث غالبًا في عصرنا الحالي(٢٠).

رُولّو ماي واستنكار الحبّ النرجسيّ

الحبّ زهرة سريعة العطب والجنس سمادٌ لها. ويمكن لهذه الزهرة أن تنمو بدون سماد، أمّا السماد فلا يمكن أن يُكسِب الحياة جمالًا ومعنى بدون تلك الزهرة.

وفي عصرنا الحالي، نطلق اسم الزهرة على السماد، إذ يتركّز اهتمامنا على السماد. وبالتالي ينبغي ألّا نستغرب من أن يسود انعدام التواصل غالبًا بدلًا من الحبّ.

ويبيّن بعض المحلّلين النفسيّين الرفيعي المستوى أنّ الامتناع عن العلاقات الجسديّة لا ينطوي بالضرورة على الكبت، ولا على غياب الحياة والمُتَع المرتبطة بالجنس، كما أنّه من المستبعد أن يؤدّي إلى الاضطرابات النفسيّة.

وفي الواقع، تحدث الاضطرابات عندما نثير الغريزة أوّلًا باللقاءات والصور والتخيّلات الإراديّة، ثمّ نَدَّعي أنّنا نسيطر عليها. ونكون بذلك كالمروِّض الذي يريد أن يهدّئ الأسد بعد أن جعله يشمّ رائحة الدم.

الرغبة الجنسيّة لا تُكبت، ولكن إن لم نُرد أو لم نستطع أن

---

(٢٠) V.E. FRANKL, *Dio nell'inconscio*, Morcelliana, Brescia, 1975; Id., *Logoterapia ed analisi esistenziale*, Morcelliana, Brescia, 1977; Id., *Alla ricerca di un significato della vita*, Mursia, Milano, 1974.

نمارسَها جسديًّا لأسباب معقولة، فإنّنا نستطيع أن نُصَعِّدَها، وذلك بأن نغذّي ونعيش الحبّ الروحيّ الذي ينتشر على عدّة أشخاص ويمثّل الزهرة الحقيقيّة التي تمنح الحياة معنىً. فليس من الصريح إذن أن نتحدَّث، من وجهة النظر العلميّة، عن «حاجاتٍ جنسيّة لا تُقاوَم»(٢١).

إنّ تضخُّم الجانب الحيوانيّ في الإنسان يؤدّي إلى ضمور العقل: ومن هنا ينشأ العجز عن الحبّ وما يدّعيه المرء بشأن «صمت الله». ولكن ثمّة ظاهرة معاكسة إلى حَدٍّ ما تُعَدُّ صحيحة كذلك: وهي ظاهرة الحبّ الروحيّ، الذي قد يكون حتّى بدون علاقات جسديّة، والذي يسبِّب فرحًا يجتاح المشاعر والجهاز العصبيّ والجسد كله.

وفي التحليل القاسيّ الذي قام به المحلِّل النفسيّ الأمريكيّ الشهير رولو ماي، تنهار أسطورة الثورة الجنسيّة من حيث هي تحريرٌ للإنسان. فهو يقول إنّ المفارقة في تلك الحرِّيَّة الجنسيّة الشهيرة هي أنّ «غياب الضوابط» لم ينجح حقًّا في حلِّ مشكلاتنا، بل زادت حالات العُصاب، وتضخُّم القلق والشعور بالذنب بحيث جعلا الفرد يرزح تحت عبء أثقل من العبء السابق.

واستنادًا إلى مُسلَّمة شائعة جدًّا في أيّامنا هذه، يجب أن «تخرج» المشاعر والانفعالات وأن «تتدفّق» في أيِّ لحظة نشعر فيها بالحاجة إلى إخراجها، وبذلك نجد أنفسنا نعيش في حالة من الفسق الجنسيّ تدفع المرء إلى الاكتئاب. وتعتمد هذه المُسلَّمة على فكرة

---

(٢١) J. NUTTIN, *Psicanalisi e personalità*, cit., pp. 183ss; M. VIDAL, *Morale dell'amore e della sessualità*, Citadella, Assisi, 1973; S. BASTÍANEL, *Il carattere specifico della morale cristiana*, ibid., 1975.

أنّ «إفرازات الغدد تتحكَّم بالإنسان. . . وهذا مطابق للصورة التي يكوِّنها عامّة الناس عن الجسم البشريّ. . . والمقصود هنا هو أنّ الجسم نظام قائم على مركزيّة الأنا وعلى الفُصام. وهو يتركنا مفرّقين كعناصر الوجود الأوّليّة، بدون جسر يصلنا بالآخرين الذين يحيطون بنا. وبذلك يصبح من العبث أن ننفعل وأن نقيم العلاقات الجنسيّة حتّى نهاية حياتنا، إذ لن ننجح في إقامة أيّة علاقة حقيقيّة مع شخص آخر، ولن تَخِفَّ فظاعة الوضع إذا علمَ المرءُ أنّ العديد من الناس، إن لم نَقُلْ معظم مجتمعنا، تنتابهم المشاعر نفسها في هذا العالم الوحيد»(٢٢).

يجعلنا السعي إلى الجنس نفقد الحبّ الحقيقيّ الذي هو الطريق إلى الحبّ الإلهيّ، ذلك الهدف الأوّل الذي خُلِقنا من أجله. فالغاية التي يسعى إليها المرء من خلال الجنس هي إرضاء النزعة الأنانيّة. أمّا الحبّ فإنّه، على عكس ذلك، يؤدّي إلى بذل الذات وإلى الاتّحاد العميق مع «الأَنت»، ممّا يهيِّئنا للحبّ السعيد الذي يصهرنا مع الأَنتَ المتمثّلة في الله ويمهّد لنا سبيل الأخوّة البشريَّة. الروح في عصرنا الحالي ضعيفة لأنّ الجسد قويّ. ويتقهقر الحبّ لأنّ الجنس احتلّ مكانه وسلب اسمه. والأسرة تتفكّك وتتفتّت لأنّ الشهوات التي لا رقابة عليها تتعطّش دائمًا إلى مغامرات جديدة وتقف عائقًا في وجه نموّ الحبّ العميق(٢٣).

ويريد الناس اليوم بلوغ قمّة الحبّ التي تتمثّل في الله حتّى ولو

---

(٢٢) ROLLO MAY, *Amour et volonté* (titre original *Love and Will*) Stock, Paris, 1971, p. 107.

(٢٣) L. TYSMANS, *Vivere la sessualità*, Borla, Torino, 1977; G. GATTI, *Morale sessuale, educazione all'amore*, Elle Di Ci, Leumann, (Torino), 1979.

قضوا حياتهم كلّها وهم ينزلقون بالزلّاجة السريعة.

يجب ألّا نوقظ النمر النائم

يجبر العالمُ الإنسانَ المسيحيَّ أن يبقى مسيحيًّا حتّى النهاية، إذ إنّ هذا الإنسان مدعوٌّ إلى القيام باختيار جذريّ بين الفقر الروحيّ وعبادة المال، وبين العفّة ومبدأ اللذّة، وبين البطولة والبطلة.

ولا يمكننا أن نتجاهل الصعوبة الكبيرة التي يواجهها المؤمنون في تطبيق تعاليم الإنجيل في العالم الحالي، ولا سيّما الأخلاق الجنسيّة التي تنطوي عليها تلك التعاليم. وإنّ صفة «الكبيرة» التي نطلقها على «الصعوبة» صفة نسبيّة إلى حدٍّ بعيد. فلكي نحدِّد درجة الصعوبة، ينبغي أن نعرف مَن هم المؤمنون المقصودون، وما هي المواقف التي يتعرَّضون لها، وما هو الدرع الذي يُلبسهم اللهُ إيّاه. ولكن ممّا لا شكّ فيه أنّ الصعوبة بالغة في ما يختصّ بالأخلاق الجنسيّة بسبب انتشار الرذائل المتعلِّقة بهذا الأمر انتشارًا واسعًا، والحكم اللامباليّ أو الإيجابيّ الذي يطلقهُ الرأي العامّ على هذه الرذائل.

وفي عالمنا الذي يشارف على تدمير ذاته أخلاقيًّا، يشبه المؤمنون المتلزمون بالكنيسة نوحَ الذي سخر منه جيرانه عندما كان يبني سفينة. وعلى الرغم من أنّ السماء اسودّت اسودادًا مخيفًا، فإنّهم كانوا يفضِّلون الاعتقاد بأنّ ذلك كان يُنذر بعواصف رعديّة عاديّة.

وبدلًا من أن نتحدَّث عن صعوبة الأخلاق الجنسيّة، ينبغي لنا أن نتحدَّث عن **عجز القوى البشريَّة**، لا في هذا العصر فحسب، بل منذ الأزل، ولا في ما يختصّ بالأخلاق الجنسيّة وبعذوبية الكهنة

فقط، بل في ما يختصّ كذلك بالتسامح أمام الإهانات البالغة، وقبول التجارب الكبيرة، والاستعداد للاستشهاد عند الضرورة، وحتّى الإيمان بدون إثباتات مطلقة اعتمادًا على تقلبّات الحَدْس، وفي جوٍّ تسوده شكوك الناس وسخريتهم.

ومع ذلك، تتجلّى قوّة نعمة الله - والمؤمنون الذين يُصَلُّون بحرارة يستطيعون إدراك ذلك من خلال تجربتهم - أكثر ممّا تتجلّى في تحويل بعض العلاقات السببيّة غير المعقولة إلى علاقات فعّالة. فعلى سبيل المثال، إنّها تجعل داود، الصبيّ الصغير، يتغلّب بمقلاعٍ على محاربٍ عملاق مُتمرِّس، وتُضَلِّلُ بِسِحرِ أرملةٍ شابّةٍ الجيشَ الذي كان يحاصر بيت إيل، وتُغذّي بخمسةِ أرغفة وسمكتين آلافًا من الأشخاص، وتجعل امرأةً مُسِنَّة عاقرًا (وهي ساره) تُنجب شعبًا بعدد النجوم.

لا تكفي الوسائل البشريَّة مطلقًا لكي نحقِّق ما يطلبه الله منّا. فكأنّه يأمرنا باجتياز المحيط الأطلسي سباحةً أو بالقفز إلى القمر بعد أن نركض عشرة أمتار استعدادًا للقفز. ويريد الله أن يستعمل الإنسان إمكاناته الخاصّة الهزيلة التي تشبه المقلاع، إذا ما استُخدِم في مواجهة الصواريخ الموجَّهة، لأنّه يمنح الإنسان ما ينقصه من قوّة. ولا تكمن حسنة الإنسان الرئيسيّة في الاكتفاء الذاتيّ، بل في الاعتراف بالنقص الهائل، وفي الثقة بالدور التربويّ الإلهيّ. «تسلّحوا بسلاح الله لتستطيعوا مقاومة مكايد إبليس» (أف ٦/ ١١).

ولكن يعلم المسيحيّ أنّه لكي يستطيع الحصول على قوّة النعمة التي تحوّل الإنسان، يجب أن يقوم بما يستطيع. وعليه أوّلًا أن يُبعد المثيرات التي تتحكّم فيه. «فإذا كانت عينك اليمنى سببَ عثرةٍ لك، فاقلعها» (متّى ٥/ ٢٧).

من الحكمة أن نبني السدّ قبل حصول الطوفان المتوقَّع، لا بعده، وكلّ غريزة تنشط بفعل المحرِّضات البصريّة أو السمعيّة أو التخيّليّة التي تُولِّد دوافع سلوكيّة معيّنة عند الإنسان. وإذ تثير هذه الدوافع جزءًا من الدماغ، تتزايد طردًا مع عدد المحرِّضات وشدّتها حتّى تصبح قويّة لا تُقاوَم. وتستطيع قوّة الإرادة أن تسيطر على المشاعر والسلوك. ولا يتمّ ذلك بكبت الدوافع بعد أن تكون قد أصبحت قويّة لا تقاوم، بل بإبقائها في مستوى يُتيح لنا فرصة التحكُّم فيها. ويتمّ ذلك - بحسب تعاليم علم النفس - بطريقة إبعاد المحرِّضات، أو بطريقة النقل العاطفيّ، أي السعي إلى الاتّحاد بالله وبالآخرين، أو بطريقة التصعيد، أي توجيه الطاقات نحو أنماط سامية من الحبّ والعمل.

لا توقظ النمر النائم: تلك النصيحة البسيطة القائمة على الحسّ السليم لا يتبعها جميع الرجال ولا جميع النساء، إذ يُقبلون على تحريض حبٍّ وليد، وعندما يصحو النمر من نومه تمامًا، يريدون أن يعود إلى النوم ولا يفترس أفراد الأسرة.

العازبون الذين يحرسون غرف النوم

نشرت اللاهوتيّة الألمانيّة أُوتا رانكِه هاينْمان Uta Ranke Heinemann محاولةً فلسفيّة عن موقف الكنيسة من المرأة والجنس[٢٤]. ولقِيَ الكتاب شيئًا من النجاح بسبب «الاستفزازات الكثيرة (أو الزائدة) التي يحتويها...»[٢٥]. الكتاب مُوثَّق ومكتوب بأسلوب حيويّ وصحافيّ (غير مألوف عند اللاهوتيّين). وهو

---

(٢٤) عنوان الترجمة الإيطاليّة:
Eunuchi per il regno dei cieli, Rizzoli, Milano, 1990.

(٢٥) A. MONTANATI, in *Jésus*, avril 1990, p. 56.

يستنكر عن حقّ بعض النواقص والمبالغات التي اعترفت بها الكنيسة منذ عشرات السنين وتسعى إلى تصحيحها وتسويتها.

بيد أنّ أحكام اللاهوتيّة المذكورة - وإن كان لها أساس من الصحّة - جذريّة وتقريبيّة وتعميميّة، إذ إنَّها وُضِعتْ خارج الإطار التاريخيّ الذي يجب أن توضع فيه. أمّا ماريّا كريستينا بارتولوماي Maria Cristina Bartolomei، وهي أستاذة فلسفة شابّة ولامعة من جامعة الدولة في ميلانو، فتعلِّق قائلة: «إنّ موقف أوتا رانكه هاينمان جذريّ وحتّى تقريبيّ، إذ إنّها لا تضع في اعتبارها التقدُّم الذي تمَّ في هذا المجال، سواءٌ على صعيد العلم أم على صعيد الكنيسة»(٢٦).

وتتّهم اللاهوتيّة هاينمان الكنيسة الكاثوليكيّة بـ «الخوف المَرَضيّ من الجنس»، وبـ «الاشمئزاز الأخلاقيّ من اللذّة (الجنسيّة)»، وبـ «الاشمئزاز من المرأة والزواج والجسد»، وبـ «سيطرة فئة من العازبين» نصَّبت نفسها «مراقِبةً على غرف النوم» و«تفرض سلطتها على جمهور غير ناضج ومعظمه من المتزوِّجين».

ومن الصحيح أنّ المرأة في الماضي كانت قليلة الاعتبار، ولكن ذلك لا يرجع إلى عقائد دينيّة علَّمتها الكنيسة كما هي، بل إلى آراء بعض اللاهوتيّين المنتمين إلى قرون مختلفة، تلك الآراء التي تعكس عقليّة العصور التي كانوا يعيشون فيها. أمّا الآراء التي نجدها عند الشعوب غير المسيحيّة، وإلى حدٍّ ما عند البروتستانت والأرثوذكس في القرون الماضية، فكانت أكثر إجحافًا بالمرأة.

---

(٢٦) المرجع السابق.

وكما يبيِّن لنا التاريخ، يحظى أولئك الذين يديرون معهد المسيح بإذن منه، بمساعدة الروح القدس، بحسب وعده، في تفسير تعاليمه الصريحة، إلّا أنّهم في غير ذلك كسائر البشر، يخضعون لتطوُّر الزمن ويتبنّون مواقف بمستوى الرأي العامّ الشائع، بل تكون هذه المواقف متأخِّرة عنه في الغالب عند المحافظين منهم.

ولكن، في ما يختصّ بالموقف من المرأة كذلك، تذكر وتُبرز اللاهوتيّة رانِكه غالبًا النقاط المظلمة دون أن تذكُّر بالنقاط المضيئة، وهي بذلك كالرسّام الذي لا يرى في الفهد سوى البقع السوداء، فيلوّنه بالأسود كاملًا. ويَرُدُّ ڤِيتُّوريو مِيسُّورِي عليها في صحيفة أَڤِينِيرِه *Avvenire*، (نيسان/أبريل ١٩٩٠)، مبرزًا الأعمال الرائعة التي قام بها بعض رجال الكنيسة ونسائها في القرون الوسطى من أجل إعلاء قدر المرأة وإبراز أهمِّيَّتها.

ونهج رانكِه هو النهج الذي يتبعه المعارضون المحترفون عادةً: وهو أن يصرِّح المرءُ بمديح عقيدة المسيح والقبول بها، وأن يستنكر في الوقت نفسه عقيدة ممثّليها «غير الجديرين» بذلك التمثيل، إذ يُعتقد بأنّهم قاموا بتشويهها. ولئن كان من المستحيل أن ننكر أنّ بعض رجال الكنيسة لم يكونوا جديرين بثوبهم في الحياة العمليّة، فإنّ غيرهم من رجال دين العصر نفسه لم يكونوا كذلك، وأنّ العقيدة الكاثوليكيّة المتعلِّقة بالعزوبيّة والجنس صدرت عن المسيح نفسه ولم تقم الكنيسة سوى بالمحافظة عليها، رغم حدوث بعض المغالات في الماضي. ويبدو هذا جليًّا من خلال أمر آخر، وهو أنّه لم يكن في مصلحة رجال الكنيسة مطلقًا أن ينسبوا تلك العقيدة إلى المسيح، وأن يَعِظوا بها ويقدِّموها للناس على أنّها من تعاليم الله، علمًا بأنّهم كانوا يستصعبون تطبيقها هم أنفسهم، أو حتّى يفشلون فيه.

ما من أحد - إلّا إذا كان مجنونًا - يختلق لنفسه نظامًا وهميًّا يفرض عليه بلا فائدة قواعد وضوابط سلوكيّة قاسية وصعبة، ثمّ يواظب على ذلك، إذ يفرضها على نفسه مدى الحياة. ولئن كان البشر قد تناقلوا هذه القواعد عبر العصور حتّى يومنا هذا، فإنّ في ذلك دليلًا على أنّها من أصل إلهيّ.

ولا تذكر رانكِه إلّا المبالغات في الحظر الجنسيّ، إذ تشير إليها بالإصبع أمام سخرية الناس الذين يعشقون الجنس، دون أن تبيِّن كذلك أنّ الانتقال إلى النقيض قد أدّى بالمجتمع المعاصر إلى الغرق الأخلاقيّ الذي نعيشه الآن.

وتتناسب العفّة والعزوبيّة القائمتان على المحبّة مع سائر تعاليم المسيح التي لا تلقى شعبيّة كبيرة، ومنها: الزهد بالدنيا والتنزّه عن جميع الثروات الغريزة والفانية، كالغنى والجنس والمعالي والسلطة والعمل واللهو، واستخدامها كوسائل فقط، وذلك لكي نركّز كلّ قوانا العاطفيّة على الله الذي يحبّنا وعلى إخوتنا الذين نتّجه معهم نحو الحياة الإلهيّة.

وفي الواقع، المسيح نفسه ومريم وبولس وجميع قدّيسي التاريخ تقريبًا اختاروا العزوبيّة الدائمة والعذريّة من أجل ملكوت الله. كما أنّ المسيح نفسه - ويمكن إثبات ذلك لاهوتيًّا - نصح بهذا الأمر «مَن هم قادرون على الفهم»، أي أولئك الذين يشعرون في باطنهم بدعوة الله[٢٧].

وفي نظر مَن لا يؤمن بجميع تعاليم المسيح، تبدو العزوبيّة

---

(٢٧) E. BIANCHI, «Celibato e Verginità», dans *Nuovo Dizionario di spiritualità*, Ed. Paoline, Roma, 1979. =

الدائمة غير معقولة ومستحيلة الفهم، شأنها شأن الإخلاص في الزواج وغير ذلك من «حماقات» الأخلاق المُنزَلة التي تهيّئ الإنسان للحياة الأخرى حيث «لا الرجال يتزوّجون ولا النساء يُزوَّجنَ، بل يكونون مثل الملائكة في السماء» (متّى ٢٢/ ٣٠). في الحقيقة، هذا هو الثمن الذي يجب دفعه من أجل دخول ذلك الواقع المطلق الذي لا يمثّل الحبّ البشريّ إلّا رمزًا له. ولا شكّ أنّ هذا الثمن مرتفع، ولكنّه لا يبدو باهظًا إلّا لأولئك الذين لا يصلحون بعمق لكي يعيشوا هذا الواقع منذ الآن.

قليل من الزّبائن في مراكز مبيعات السلع المقدّسة

إنّ اللاهوتيّين الذين يسايرون الواقع ويلغون الشدّة التقليديّة في ميدان الأسرة، يسعون إلى بيع المذهب الكاثوليكيّ بسعر إفلاسيّ أملًا منهم في جلب اللامبالين بالدّين. ولكنّ الغريب في الأمر هو أنّ ذلك «العرض الاستثنائيّ الذي يقدّم تنزيلات نهاية الموسم» يجعل مراكزهم تخلو من الزّبائن أكثر ممّا كانت عليه في السابق، ويزيد عدد المشترين في المؤسّسات التقليديّة التي بقيت فيها الأسعار على ما كانت عليه، أي مرتفعة، والتي تتمّ فيها بالمقابل صفقات جيّدة حقًّا.

وبعبارة أخرى، نسبة حضور المؤمنين في كنائس الكهنة «التقدّميّين» أقلّ بكثير من نسبة الحضور في الكنائس التقليديّة (٨٪ في شمال أوروبّا، وهي نسبةٌ تقارب ما نجده في الكنائس البروتستانتيّة)، كما أنّ الدعوات الكهنوتيّة فيها معدومة. أمّا عند

=ولا بدّ من أن يرجع القارئ، بدون أحكام مسبقة، إلى المقاطع التالية: متّى ٢٢: ٢٣-٣٣؛ ١٩: ٣-١٢؛ لوقا ١٨: ٢٩-٣٠؛ ١ قور ٧.

الكاثوليك التقليديّين - ولا نتحدّث هنا عن أتباع المطران لُوفيڤر Lefebvre - فإنّ نسبة ممارسي الشعائر الدينيّة أعلى من ذلك بكثير (٢٠٪ وأكثر) منهم عدد كبير من الشبّان والشابّات، فضلًا عن بعض الدعوات الكهنوتيّة والدينيّة.

وثمّة ما يؤكّد هذه الظاهرة نفسها، وهي الجموع الغفيرة - بما فيها الشبيبة - التي تتجمّع في مدن مختلفة أثناء زيارات البابا يوحنّا بولس الثاني. وهذا ما يُثبت أنّ العالم لا يتصوَّر الله إلّا من خلال بشارة المسيح الكاملة وتفسير الكنيسة الأصيل، وإن كانا مُزعجَين ومُتعبَين، لا سيّما وأنّهما يتّجهان بعكس التيّار الذي يجرف عالم اليوم.

كتب مالكُولْم ماغيريدج ما يلي: «تُبيِّن الرسائل التي تلقّيتها (عندما علم الناس باهتدائي إلى الدين)... الجوعَ الروحيّ البالغ الذي نجده اليوم في جميع طبقات البشر وفئاتهم... والذي لا يهدئه الإجهاض المشروع ولا الشذوذ الجنسيّ، ولا يخفّفه منع الحمل ولا الرأي العامّ السائد عند الأغلبيّة... والوسيلة الوحيدة لسدّ هذا الجوع تبقى خبز الحياة الذي قدّمه المسيح ووعد بأنّ الذين يأكلون منه لا يجوعون أبدًا. ولا يزال الوعد قائمًا»[٢٨].

وفي نظر مَن يؤمن بموت الله، يموت الله فعلًا ولكن في باطنه فقط. ويفقد ملح الإنجيل طعمه عندما يبقى بمستوى أحد التيّارات الإنسانيّة النظريّة وغير الفعّالة التي يمكن أن يُنشئها الإلحاد نفسه. فالمسيحيّة التي لا تملك إلّا أن تقول: «لنحبّ بعضنا بعضًا ولنناضل من أجل عالم أعدل» لا تثير الاهتمام لأنّه - كما تبيّن التجربة اليوميّة

---

(٢٨) M. MUGGERIDGE, *Cristo ripcoperto*, Rusconi Ed., Milano, 1971, p. 22.

- بدون عقيدة المسيح كاملةً، يبقى ذلك التضامن مجرَّد كلام، ولا يحلّ مشكلات البشر الأساسيّة. فالإنسان بحاجة إلى الله.

ونجد في يوميّات داغ هامارشولد، أمين سرّ الأمم المتّحدة ما يلي: «لا يموت الله عندما نهجره ونكفّ عن الإيمان به، بل نحن نموت، إذ ينفكّ اتّحادنا بنبع روحنا العميق»(٢٩).

كما كتب جان دلومو قائلًا: «وهكذا تتّجه الكنيسة الكاثوليكيّة بعكس تيّار حضارتنا (التي تبتذل الجنس وتهدره)، وتدعو إلى «صون البيئة الروحيّة». وبذلك فهي تتّفق مع عدد لا بأس به من الشبّان والبالغين الذين يرغبون في حلول ثقافة جديدة معاكسة لثقافة عصرنا هذا، التي تقوم على الرغبة في المتعةِ والمُلْك فحسب. فهم يبحثون عن طريقة مختلفة في الحياة ويسعون إلى الصحّة الأخلاقيّة. إذن ينبغي ألّا يستسلم المسيحيّون أمام الاستهتار السائد حاليًّا... فما يجهر به البابا أمام البشريّة هو أنّ الإنسان خُلق على صورة الله. وما من أمر بشريّ حقًّا يمكن أن يُحلّ بالتقنية وحدها. والحبّ نوع من الأسرار الغامضة، ويجب أن نتعامل معه بالاحترام العظيم الجدير بالكائن البشريّ. وثمّة معركة من أهمّ معارك عصرنا تدور حول الزواج والحبّ. ومصير الإنسان والمجتمع المستقبليّ مرهون بنتائج هذه المعركة» (يوحنّا بولس الثاني)(٣٠).

---

(٢٩) Dag HAMMARSKJÖLD, *Zeichen am Weg*, München-Zurich, 1965.

(٣٠) Jean DELUMEAU, *Ce que je crois*, p. 311.

٢٠ - المؤسّسة التي تعمل بتخويل من المسيح

شركة تجهيز الاتّصالات السماويّة

جميع المعاصرين يُقَدِّرون المسيح تقديرًا عاليًا، سَواءٌ أكانوا مؤمنين أم قليلي الإيمان أم مُشَكِّكين. وبالمقابل، هناك الكثيرون - ولا سيّما في الفئة الأخيرة - مِمَّنْ ينتقدون الكنيسة انتقادًا عنيفًا، حتّى إنّهم يرفضون خدماتها ولا يريدون الانتماء إليها.

ومن الصحيح أيضًا أنّ هناك فرقًا واضحًا بين المسيح وتلاميذه. ولا ينتقد الناس الكنيسة لأنّها تتبع المسيح، بل لأنّ اتّباعها إيّاه أقلُّ من اللازم. وفي ما يختصّ بطريقة الحياة، هم محقّون أحيانًا، إذ إنّ اتّهاماتهم لها أساس من الصحّة، ولا سيّما في الماضي. ولكنّ النقطة التي يتناقضون فيها تناقضًا واضحًا هي عندما يتذرّعون بأنّ الكنيسة لا تتبع تعاليم المسيح كما يجب فيأذنون لأنفسهم بأن لا يتبعوها البَتَّة.

لا يمكن أن نؤمن بالمسيح ونرفض خدمات الكنيسة. فبذلك يكون شأننا شأن الذي يريد الماء ويرفض الأنابيب التي تنقل الماء، تلك الأنابيب التي يضمنها صاحب النبع نفسه. فالمسيح أمر الرسل بأن يبشّروا بالدين لدى جميع الشعوب، وأكّد لهم أنّه سيساعدهم في تعليمهم «إلى نهاية العالم» (متّى ٢٨/ ٢٠).

ولم يقل المسيح قَطُّ إنّ الرسل ومَن يأتون بعدهم سيكونون مُخْلصين له دائمًا في طريقة حياتهم، **بل في تعليمهم فقط**. وعلاوةً على ذلك، فإنّ الأمثلة على ضعف الكنيسة كانت واضحة منذ البداية، في ما يختصّ بالسلوك: «الحقّ أقول لك: في هذه الليلة، قبل أن يصيح الديك تنكرني ثلاث مرّات» (متّى ٢٦/ ٣٤). ولكنّ المسيح أضاف فورًا أنّه سوف يدعم إيمان بطرس حتّى يتمكّن هو أيضًا من تعزيز إيمان إخوته: «ولكنّي دعوت لك ألّا تفقد إيمانك. وأنت ثبّت إخوانك متى رجعت» (لو ٢٢/ ٣٢).

الإنجيل زجاجة مشروب كحوليّ ممتاز يحيط بها العديد من الأقداح الصغيرة الفارغة. ولكن، لكي نستطيع تذوُّق هذا المشروب، تلزمنا فَتّاحة الكنيسة.

عقيدة المسيح ملخَّصة في الأناجيل وفي رسائل الرسل. ولكن، مَنْ الذي غيرُ الكنيسة أنتج هذه الكتابات؟ ومَن الذي أكّد ويؤكّد للمؤمنين أنّ هذه الكتابات أصيلة ومُنزلة؟ ومَنْ الذي سهر ويسهر على نقلها بأمانة وتفسيرها غيرُ سلطة المعهد الذي يعمل بتخويل من المسيح؟

كان يسوع يعلم جيّدًا بأنّ تلك الكتابات قد تُفسَّر تفسيرات كثيرة مختلفة وحتّى متناقضة من شأنها أن تقضي على رسالته السماويّة. لذلك فقد ألّفَ مجموعةً من المعلّمين قام، هو نفسه، بمساعدتهم وتوجيههم في المسائل الأساسيّة الضروريّة لخلاص البشر.

الكنيسة هي الوكيل العالميّ الوحيد المعتمَد في استيراد أجهزة الاتّصال بالله وتوزيعها، والمسؤول عن تقنيات تركيب تلك الأجهزة واستخدامها.

إنّ مبدأ الاعتماد على كلام الله الذي في الكتاب المقدّس فقط، ولا في التعليم الحيّ الذي يقوم به الأساقفة المتّحدون بالبابا، استُخدم أساسًا لعقائد لوثر وكلْفين وزفِينغِل Zwingle في القرن السادس عشر، وأصبح مصدرًا للعديد من الشقاقات المخالفة لإرادة المسيح، بحيث أصبحنا نجد اليوم، خارج الكنيسة الكاثوليكيّة، مئات الأنظمة المختلفة الرامية إلى تفسير الكتاب المقدّس، وكلّ نظام منها تدعمه كنيسة أو هيئة مختلفة عن الأخرى.

إثباتات حيّة على الحقيقة المسيحيّة

في كلّ جيل، هناك مَن يقرع الأجراس داعيًا جميع الناس إلى جنازة الكنيسة، ولكن سرعان ما تُقرع أجراسه هو. فالكنيسة هي الدليل الدائم التجدُّد على أنّ المسيح حيّ. فقد شهدت عدّة انبعاثات لا يمكن تفسيرها تاريخيًّا ولا بشريًّا، كان أوّلها إيمان الرسل وحماستهم بعد صلب المسيح. ولو لم يكن يسوع قد قام حقًّا من بين الأموات لما كان هذا الأمر ممكنًا.

وقد وعد المسيح الكنيسة بأن يكون معها الروح القدس للأبد: «وأنا سأسأل الآب فيهب لكم مؤيّدًا آخر يكون معكم للأبد، روح الحقّ الذي لا يستطيع العالم أن يتلقّاه لأنّه لا يراه ولا يعرفه» (يو ١٤/١٦-١٧).

وتحمل يقظة الإيمان الكاثوليكيّ في العالم حاليًّا مغزى كبيرًا، لا سيّما وأنّها لا تتّخذ أشكالًا مزيّنة ومتناسبة مع العالم الحالي، بل تحافظ على كامل العقيدة وطريقة الحياة في جميع الأوساط، وبالدرجة الأولى عند الشبّان، وهذا دليل على صحّة ممتازة. ويبيّن ذلك أنّ الإيمان الحقيقيّ لا يتعارض مع التقنولوجيا والعلوم والديمقراطيّة والرفاهيّة الاقتصاديّة، وأنّ السبب في ابتعاد معظم

الناس عنه لا يكمن في أنّه لا يناسب الإنسان المعاصر، بل في أنّه لا يناسب الناس المعاصرين الذين يختارون دائمًا الحلّ الأسهل.

وكتب مورياك يقول: «لا تبدو لنا هذه الشجرة الكاثوليكيّة الكبيرة بهذا الجمال إلّا لأنّها حيّة حقًّا، ولأنّها مليئة بالنُّسْغ، على الرغم من أنّها تضمّ العديد من الأغصان الميتة، ولأنّ دم المسيح لا يزال يجري في عروقها من الجذور إلى أدقّ أغصانها وأصغر أوراقها. وليست الكاثوليكيّة بدون المسيح سوى قوقعة فارغة غريبة التكوين. وعلى العكس، فإن تلاطمت الأمواج ودمَّرت المعابد والأديرة والقصور والتحف، فلن يُدَمَّرَ شيءٌ في الحقيقة، إذ سيبقى حَمَل الله»(١).

وفي كلّ قرن من القرون، أنجب الإيمان المسيحيّ، ولا سيّما الكاثوليكيّ منه، رجالًا ونساءً كانوا أدلّة حيّة على حقيقته. عندما أُرسِل غراهام غرين عام ١٩٣٨ إلى المكسيك بصفة مراسل لصحيفة لندنيّة كبيرة، كان كاثوليكيًّا بالزواج فحسب، أي بدون قناعة ولا التزام. ولكنّه ذُهِلَ ذهولًا بالغًا ببطولة الكاثوليكيّين المكسيكيّين الذين كانوا يقاومون الاضطهاد، فكتب يقول: «إنّ إيمانًا يُنتج مثل هذه الشهادات يجب أن يُؤْخَذَ على محمل الجِدّ. وتنامى ذهولي حتّى أصبح لا يقاوَم عندما اهتممت بحياة الكنيسة الخفيّة. وشيئًا فشيئًا شعرت بالرغبة في تعميق معرفتي للعقيدة، وبضرورة تغيير حياتي»(٢). ويُعتبَر غراهام غرين اليوم أعظم كاتب كاثوليكيّ إنكليزيّ.

---

(١) F. MAURIAC, *Vie de Jésus*, Flammarion, Paris, Préf, p. XX.

(٢) G. GREEN, «La mia conversione», cit. dans *Enciclopedia apologetica*, Ed. Paoline, Alba, 1954, p. 895.

كتب فرُوسّار يتحدَّث عن نفسه قبل اهتدائه قائلًا: «عندما كنت لا أبالي بالله، كان البحث عن معنى الحياة، في نظري، يختلط بالمسائل الميتافيزيقيّة العويصة، التي تُعَدُّ أكثر طرق ملء الفراغ خيبةً. وإذا قرَّرنا مسبقًا أنّ الله لغز لا حلَّ له، تضاف إلى تلك الاعتراضات النظريَّة، عند الحاجة، الاعتراضات التي يولّدها ألم الأبرياء وعيوب الكنيسة. إلّا أنّ تلك الحاجة كانت نادرة... وعلى كلّ حال، إن كنت أعتقد بأنّ ثمّة حقيقة، فالكهنة هم آخر الأشخاص الذين أقصدهم للسؤال عن تلك الحقيقة. والكنيسة، التي لا أعرفها إلّا من خلال بعض عيوبها الزمنيّة، هي آخر مكان أقصده بحثًا عن تلك الحقيقة»[٣].

وفي القرنين الأخيرين، استخدم الله أُناسًا من خارج الكنيسة ليُعيد الكنيسة إلى الإنجيل. ففي الحقيقة، كانت الانتقادات المتعلّقة بعدم إخلاص بعض رجال الكنيسة للمسيح ذات تأثير إيجابيّ، ومن الإيجابيّ أيضًا أن تستمرّ. ولكن، قبل كلّ شيء، ليس من الضروريّ أن نختلق العيوب أو أن نضخّمها، إذ إنّ هناك منها أعدادًا كبيرة موثّقة. ثمّ إنّ الانتقادات الموجَّهة إلى الكنيسة لا تحول دون دخولها والانتماء إليها.

ولئن كان بعض رجال الكنيسة قد انحرفوا، في القرون الماضية، انحرافًا خطيرًا أحيانًا عن تعاليم الربّ، فليس في هذا حجّة كافية لحرماننا من خدمات الكنيسة الحاليّة. وقد حصلت فضائح خاصّةً في الفترات التي أراد فيها قادة الكنيسة أن يفلتوا من

---

٣) A. FROSSARD, *Dieu existe, je l'ai rencontré*, Fayard, Paris, 1969, p. 90 et 142.

السيطرة الملكيّة في ما يختصّ بشؤون العقيدة والرعيّة، فتسلّموا زمام السلطة السياسيّة واحتفظوا بها. ونتج عن ذلك أمران: أوّلهما استقلال السلطة الدينيّة عن التدخّلات الخارجيّة، وثانيهما هو الأمر الخطير المتمثّل في سعي بعض الرجال إلى تَسَلُّمِ مهامّ خلفاء الرسل من أجل مصالح دنيويّة. ولكن لم تكن تلك المَصالح مسيطرة على الجميع. فكثير منهم كانوا أساقفة أتقياء وباباوات أتقياء. والأهمّ من ذلك هو أنّ العقيدة والتعاليم قد جُدِّدَتْ عبر القرون. وبقيت أمينةً للمسيح في جوهرها.

وثمّة ظاهرة مدهشة تحدث اليوم. فإبّان القرون التي كانت فيها الفضائح فعليّة وكثيرة، لم يكن الناس يفقدون إيمانهم. أمّا اليوم فعلى الرغم من أنّ رجال الكنيسة، على العموم، يكرّسون أنفسهم لمؤسَّستهم الروحيّة، يبتعد الكثيرون عن الكنيسة بسبب فضائح الماضي. ولكنّ هذا الأمر ليس إلّا ذريعة، وهو كذلك سلاح مُرتدّ على صاحبه وعقوبة ذاتيّة. ومَن يسلك هذا السلوك كمَن يحرم نفسه من الماء في بيته لأنّ عامل التمديدات الصحّيّة وقع في مشكلات مع الشرطة منذ قرنين.

مع أنّ المسيح يعلم بأنّ عددًا محدودًا من خلفاء الرسل فقط سيكونون قدّيسين، فإنّه قال لجميع رعاة النفوس: «مَن قَبلَكم قَبِلَني أنا، ومَن قَبِلَني قَبِلَ الذي أرسلني» (متّى ١٠/ ٤٠). ولم يكن يتحدَّث هنا عن كهنة الكتاب المقدَّس فحسب، إذ يجب ألا يقتصر نقل رسالته إلى البشر على الكتاب المقدَّس، كما يريد البروتستانت. ويقول أيضًا: «إنّي أوليت كلَّ سلطان في السماء والأرض. فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم، وعمّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس، وعلّموهم أن يحفظوا كلّ ما أوصيتكم به، وهاءنذا معكم

طوال الأيّام إلى نهاية العالم» (متّى ٢٨/١٨-٢٠). إذن تقضي المهمّة بأن نُعلِّم الدين حتّى نهاية العالم، وسوف يبقى المسيح مع رجال الدين الذين يقومون بدور الرسل في عصرنا الحالي. ولدينا نصوص أخرى مشابهة بأعداد كبيرة(٤).

إنّ السعي إلى الله دفع بابّيني إلى أن يتجاوز عيوب البشر ليرى عظمة الكنيسة التي تفوق البشر، إذ يقول: «ما إن انتهى (أي تاريخ المسيح) حتّى بدا لي من الضروريّ الانتماء إلى المجتمع الذي أسَّسه المسيح. ومن بين الكنائس الكثيرة التي تعتبر نفسها أمينة في نقل تعاليم المعلِّم، اخترت - ولم يَخْلُ الأمر من بعض المعارضات الباطنة وبعض الاشمئزاز الذي تجاوزته الآن - الكنيسة الكاثوليكيّة، ذلك بأنّها تمثِّل حقًّا الجذع الرئيسيّ في الشجرة التي زرعها المسيح، ولكن أيضًا لأنّها، على الرغم من حالات الضعف والأخطاء البشريَّة التي وقع فيها أبناؤها، تمثِّل، في رأيي، الكنيسة التي قدَّمت للإنسان الظروف المثلى من أجل السموّ بكيانه سموًّا كاملًا، ولأنّي لم أجد إلّا فيها الأمثلة الكثيرة والرائعة على نموذج البطل الذي أعتبره أسمى الأبطال، وهو القدّيس»(٥).

فبدلًا من أن تنتقد بشدّة مَن يرسم دوائر متعرِّجة، حاول أنت أن ترسم دائرة كاملة. وهذا ما فعله القدّيسون، الذين حَسَّنوا العالم بأنفسهم أكثر ممّا فعلت الانتقادات السامّة. وهذا ما يريد أن يقوله غيتُّون: «لمّا كنت مَيّالًا بطبيعتي إلى النقد، لاحظت أنّه يوجد في

---

(٤) مرقس ١٦/١٥-٢٠ وأعمال ١/٨ وغل ٢/٢ وأعمال ١٥/٢٤-٢٨ ومتّى ١٦/١٥-١٩ ويوحنّا ٢١/١٥ وما يليها و٢ طيم ١/١٤ و٢/٢ و٤/٢ و١ طيم ٤/١٣ وما يليها وطي ١/٥ و٧-٩ و٢/١٥ و٣/١٠ وأف ٤/٧-١٤ وأعمال ٢٠/٢٨-٣١.

(٥) G. PAPPINI, *La pietra infernale*, Vallecchi, Firenze, 1934, p. 132.

باطني ذلك العيب الذي أحسن في وصفه القدّيس بولس، والذي يقضي بأن تكون سعيدًا بسوء الأحوال. . . ولكن عندما أعود إلى وضعي الطبيعيّ وأستعيد رشدي، أقول في نفسي: «لولا الكنيسة. . . لما كنت على ما أنا عليه. فالانتقادات التي قمت بتوجيهها عن حقّ لا تمثّل شيئًا بالنسبة إلى الحسنات، فهذه لا تقارن في حجمها مع تلك»(٦).

حائزو جائزة نوبل في شؤون الروح

الكنيسة مشفى كبير للخطأة، ولكن ممرّضيه وأطبّاءه من الأتقياء، وإن كان الناس لا يهتمّون بمعرفتهم، بل يفضّلون الفضائح وإبراز السلبيّات. ولعلّ السبب في ذلك يرجع إلى أنّ قراءة سيَر القدّيسين تجعلهم يرغبون في أن يتشبّهوا بهم، وهذا أمرٌ يزعجهم. ولكن ما يُكسِب المشفى عظمته هو رئيس الأطبّاء، أي المسيح.

ويرى برُوس مارشال أنّ الكنيسة سفينة شراعيّة قديمة تتداعى كلّما مَرَّتْ عليها العصور. . . ولكنّ الدود والصدأ يأتيان من البشر، ولا من الله. بل ما يأتي من الله هو ذلك الأمر الذي لا تفسير له والمتمثّل في أنّ السفينة قاومت الأمواج عبر كلّ تلك القرون، ولا تزال قادرة على الإبحار.

ويكتب فروسّار قائلًا: «هذا الإحساس بالاتّفاق بين الكنيسة والله كان قويًّا بحيث لم يمنعني من الحكم على الأخطاء التي ارتكبها أهل الكنيسة عبر القرون، ولكنّه منعني من التعميم على الكلّ انطلاقًا من الجزء، أي أن أخلط بين أجران القدّيس بطرس،

---

(٦) J. GUITTON, *Ce que je crois*, p. 181.

وبحيرة طبريّة»(٧).

يمثّل قدّيسو الكنيسة تطبيقًا عمليًّا لوجود الله. وإذا ما وضعنا في اعتبارنا الضعف البشريّ، دُهِشْنا لكثرة عددهم.

ويكتب مُورياك قائلًا: «إنّي أُدهَش لرؤية العديد من الناس يغتاظون من تقهقر الجانب الإنسانيّ في الكنيسة، ومن التجاوزات والسقطات والجحود، وتاريخ الكنيسة، في نظري، يقتصر يومًا بعد يوم على تاريخ القدّيسين والقدّيسات. كما أنّ سرّ الكنيسة يختلط في ذهني يومًا بعد يوم بِسِرِّ المسيح. ويكفيني أن يكون في الكنيسة، وبالكنيسة، وبفضل الأسرار التي تمتلكها، قد تحقَّق الاتّحاد التامّ بالله الذي حظِيَ به القدّيس فرنسيس الأسّيزيّ وكاترينا السيانيّة، وتريزيا الأفيليّة، وخوري آرس. وأرى أنّ هذه العقائد الراسخة وتلك الأخلاق الصارمة تمثِّل، دون غيرها، الأرض التي تفتّح فيها ذلك الحبّ العظيم، والتي يتمّ فيها الاتّحاد الروحيّ الذي ينصهر فيه المخلوق بخالقه»(٨).

ويرى فروسّار أنّ الذين يقولون: إنّ فكر الله يسلبنا عقولنا ويمنعنا من تحسين العالم، يرتكبون حماقة كحماقة مَن يدّعي أنّ القدّيسين والأبطال المسيحيّين الكثيرين، الذين قاوموا ضدّ الظلم وعاشوا للآخرين، لو قلّلوا الصلاة لكانوا أكثر انفتاحًا على المشكلات الاجتماعيّة.

فريق متسلّقي الجبال الكبير

ليس الإنسان قادرًا على أن يحقّق بمفرده القِيَم الأخلاقيّة

---

(٧) A. FROSSARD, *Il y a un autre monde*, p. 65.

(٨) F. MAURIAC, *Paroles catholiques*, Plon, Paris, 1954, p. 41.

ومعنى الحياة، إن لم يتّحد بمصدر طاقة إلهيّ، ويكمن الدليل على ذلك في المجتمع الحالي. فالكنيسة هي عبارة عن مؤسّسة كهرباء وطنيّة تُقيم وتصلح تمديدات الوصل بمحطّة توليد الكهرباء.

ونجد في كتابات كارلُو كارّيتّو Carlo Carretto ما يلي: «الكنيسة كالأسرة التي تمنحنا المساعدة الأُولى والدعم الأوّل من أجل القيام بخطواتنا الأُولى. كما أنّها تساعدنا وتدعمنا في جميع خطواتنا، ولا سيّما تلك التي نخطوها في سبيل محاربة الشرّ... وإن كان إيماني ضعيفًا، فإنّ إيمان الآخرين يأتي إليّ. ولأنّ الأمثلة السلبيّة كثيرة، فإنّ الشهادات الإيجابيّة الصادرة عن بعض الفقراء والمتواضعين والكهنة الأتقياء كثيرة كذلك»(٩).

وإذ نعود إلى كتابات فروسّار، نجد ما يلي: «إنّ ما تملكه الكنيسة من قداسة في الأمور السماويّة يُدهشني، وإن ما تملكه من ضعف وعيوب في الأمور الدنيويّة يطمئنني ويقرّبني منها، لأنّني لست كاملًا أنا أيضًا».

والكنيسة الكاثوليكيّة محافظة بطبيعتها لأنّ المسيح عهد إليها في مهمّة الحفاظ على وحدة المؤمنين به وعلى كامل عقيدته عبر القرون.

ويبدو من المستحيل، في نظر الإنسان الغربيّ، أن يكون الأفراد أحرارًا وديمقراطيّين، وهم يخضعون لسلطة دينيّة تُعرب عن عقيدتها بعبارات واثقة ولا جدال فيها. ولكن الغريب في الأمر هو أنّهم يعتبرون أنفسهم أحرارًا عندما يقبلون بدون نقاش معطيات

---

(٩) C. CARRETTO, *J'ai cherché et j'ai trouvé*, Ed. du Cerf, Paris, 1983, p. 41.

التاريخ والفيزياء وعلم الاجتماع الصادرة عن الخبراء، ويرون فيها أمورًا أكيدة وغير قابلة للجدل. ولا يعتقدون بأنّ رعاة الكنيسة يمكن أن يكونوا خبراء، وبأنّه من الممكن تقديم الدليل على تبعيّتهم لخبير عظيم وعدهم بأن يساعدهم حتّى نهاية العالم.

ويفضّل الإنسان الغربيّ المعاصر أن يجرّب إطلاق الصاروخ نحو الله بدون أن يراعي تعليمات الأشخاص المكلّفين بالأعمال مراعاةً دقيقة، بل بالاعتماد على أفكاره الخاصّة وعلى الأفكار التي جمعها وهو يحتسي القهوة في المقهى.

وينسى المرء اليوم أنّ اللاهوتيّين كذلك لا يمكنهم أن ينصبوا مِنَصَّةَ إطلاق خاصّة بهم ومستقلّة. ويقول البابا يوحنّا بولس الثاني بهذا الخصوص: «هناك العديد من اللاهوتيّين الذين لا يعلنون حقيقة المسيح، بل نظريّاتهم الخاصّة».

وفي مقال نُشِرَ في مجلّة تايم *Time*، يبيِّن رتشارد أوستلينغ Richard Ostling أنّ المنصب الباباويّ يتمتّع اليوم في العالم أجمع بسلطة أخلاقيّة أعلى من سلطة شخصيّة أو مؤسَّسة. وفي الوقت نفسه، تستمرّ، خلف مظاهر السلطة الباباويّة المبهرة، معركة عميقة، معركة حاسمة في نظر الثمانمائة مليون كاثوليكيّ، وسوف يكون لها أثر إيجابيّ أو سلبيّ في إيمان سائر البشر[١٠].

المقصود هو الحفاظ على رسالة المسيح التي يعرّضها للخطر تعدُّدُ التفسيرات الصادرة عن مئات الطوائف البروتستانتيّة، وكذلك عن بذور الشقاق التي تنمو في مختلف أنحاء العالم الكاثوليكيّ.

---

(١٠) R.N. OSTLING, «Il Papa e la Chiesa di domani», du *Time* du 4 février 1985 et de *Selezione*, juillet 1986, p. 53.

ففي كلّ بلد، تشهد تعاليم المسيح مشكلات ونزعات تقسيميّة مختلفة. ولكنّها جميعًا تتّفق في نقطة واحدة، وهي محاولة إلغاء إحدى النقاط الأساسيّة المزعجة في الإنجيل من أجل التكيُّف مع النظريّات السائدة في البلد.

في أمريكا اللاتينيّة، يختلف أصحاب المراتب الكنسيّة بشأن التأثير المتنامي الذي تمارسه الحركة الجذريّة المعروفة باسم **لاهوت التحرير** على ٣٢٠ مليون كاثوليكيّ في ذلك الجزء من القارّة.

ويشدِّد البابا يوحنّا بولس الثاني في جميع خطاباته على موضوعات الفقر وحقوق الإنسان والعدالة الاجتماعيّة. أمّا في لاهوت التحرير، فإنّ النضال من أجل التحرُّر الاجتماعيّ والاقتصاديّ يجب أن يكون بإدارة مسيحيّين مدنيّين، في حين ينبغي أن يصبّ الكهنة اهتمامهم على بشارة الإنجيل الكاملة. وينادي بعض اللاهوتيّين والكهنة بهذا النضال على أنّه الهدف الأساسيّ أو الوحيد.

أمّا في الولايات المتّحدة فإنّ الموقف المتصلِّب الذي يتبنّاه البابا والأساقفة المتّحدون به إزاء الأخلاق الجنسيّة يُثير سخط الناس، ولا سيّما في ما يختصّ بالإجهاض والشذوذ الجنسيّ والتحكُّم في النسل (أي طرق ذلك التحكُّم)، وكذلك في ما يتعلّق بالنظام الكهنوتيّ وبدخول النساء في الكهنوت.

ويواجه البابا ومعاونوه في أوروبّا، كما في الولايات المتّحدة، انحراف بعض اللاهوتيّين عن النهج القويم، إذ إنّ تفسيرَهم تعاليمَ الكتاب المقدَّس الأساسيّة يتجاوز الحدود ويدخل في مجال ما تعتبره الكنيسة الرومانيّة هرطقة.

أمّا في العالم الثالث، ولا سيّما في أفريقيا والهند، فهناك

مشكلات «التكيُّف الثقافيّ»، أي صعوبة تكيُّف العقيدة الكاثوليكيّة مع الأديان المحلّيّة.

وأيّد البابا يوحنّا بولس الثاني فكرة التعدُّديّة، ولكن شرط أن لا تَمَسَّ تعاليم المسيح الصريحة الواضحة والتي أشار إليها آباء الكنيسة والمجامع الدينيّة والباباوات. وتقوم مهمّة البابا «بالضبط على خدمة قضيّة وحدة شعب الله العالميّة» في ما يختصّ بالأمور التي لا بدّ من معرفتها من أجل الخلاص.

الكنيسة أشبه بفريق كبير من متسلّقي الجبال المبتدئين الذين يتسلّقون جبل الله الشاهق الارتفاع، إذ تؤدّي أيّة زَلَّةِ قدم إلى خطرٍ بالغ. ويدير هذه العمليّة من بعيد المسيحُ، الذي قد بلغ القمّة، أمّا البابا فهو القائم بالاتّصالات اللاسلكيّة. فإذا أراد بعض المتسلّقين أن يسلكوا، ضمن مجموعة صغيرة، طريقًا يختارونه لأنفسهم، فإنّ الدليل الموجود في القمّة لن يستطيع، بحسب ما صرَّح به، تحمُّل مسؤوليّة أمن المشاركين في هذه العمليّة.

ليس من الضروريّ استكشاف كل المنزل

بحسب ما يقتضيه الإيمان بالمسيح من خلال الكنيسة، يجب ألّا تطرح النقاط التفصيليّة أو دقائق العقائد مشكلات كبيرة، إذا ما آمنّا بمجمل العقيدة، أي أنّه ليس من الحكمة أن نتفحَّص تلك التفاصيل نقطةً نقطة على ضوء العقل مدّعين استيضاح إمكانيّة تحقُّق تلك النقاط. فيلزمنا للقيام بذلك عدّة قرون من الدرس، ويلزمنا خاصّةً ذكاءٌ يفوق ذكاء البشر. ويقول پسكال بهذا الصدد: «إنّ أقصى ما يمكن أن يدركه العقل هو الاعتراف بأنّ هناك عددًا لانهائيًّا من الأمور التي تتجاوزه».

قيامة المسيح ووجوده في القربان المقدّس، وبتولّية مريم وأمومتها، وصعودها إلى السماء، وعصمة البابا من الخطأ - البابا الذي يكتفي بالإشراف على القرارات الدينيّة الرسميّة «من خلف المنبر» - وقيامة البشر في نهاية العالم، تمثّل جميع هذه الأمور عقائد دينيّة (العقيدة = حقيقة أكيدة لأنّ الله بيّنها بوضوح) ليس من الضروريّ أن نعرف كيفيّة حدوثها.

وتكفي القوّة الإلهيّة المطلقة لإحداث وقائع غامضة لا نستطيع إدراكها، شأنها شأن العديد من مسائل الفيزياء وعلم الأحياء التي تبقى غامضة في أنظارنا؛ إذ يكفيني أن أعرف وجود قول صرّح به المسيح وفسّرته الكنيسة تفسيرًا رسميًّا، وبأنّه يتناسب مع سائر الأقوال في ما يختصّ بمحبّة الله للإنسان وسعي الإنسان بحرّيّة إلى الله.

وعندما نتحقّق من الأسس في جميع أركانها ونتثبّت من متانتها، ليس من الضروريّ أن نُشرّح كامل البناء.

مؤمن غير ممارس

المحبّة هي إثبات وجود الله عن طريق الفعل، وهي كذلك الصلاة اليوميّة النابعة من القلب والصلاة الأسبوعيّة مع الإخوة في الإيمان. فبدون ممارسة الشعائر الدينيّة يبقى الإيمان كلامًا فارغًا أو كاذبًا.

أعتقد أنّكِ أمّي، ولكنّني لا أكلّمكِ. وأعتقد أنّكَ أبي، ولكنّني لا أزورك. وأعتقد أنّك معلّم كبير، ولكنّني لا أطلب منك أن تعلّمني. وأعتقد بأنّي أملك كنزًا كبيرًا، ولكنّني لا أهتمّ بإخراجه من تحت الأرض. وأعتقد أنّ لديّ علاجًا لآلامي، ولكنّني لا

أتناوله. وأعتقد بفعّاليّة نظم الصحّة الطبيعيّة، ولكنّني لا أتبعها. وأعتقد بفائدة مدارس تعليم قيادة السيّارات، ولكنّني أقود السيّارة بدون أن أتعلَّم القيادة.

فإذا آمن المرء بدون أن يغذّي إيمانه بكلام الله وبتناول القربان المقدَّس وبالمشاركة في الحياة الجماعيّة المسيحيّة، فإنّ ذلك يؤدّي إلى إيمان يتزايد غموضًا ويفرغ من محتواه، ثمّ ينطفئ بفعل الاحتكاك بالعالم. وإذا أخرجنا حطبة متأجّجة من المدفأة، فإنّها تنطفئ بسرعة.

فمَن يؤمن بدون أن يمارس الشعائر الدينيّة هو كمَن يؤمن بوجبة الطعام من دون أن يأكل.

إحتجاجات على بَرّاد الكلام المُنْزل

في مقابلة نُشِرَت في صحيفة مدينة بال Bâle المعروفة بـ **بازلر تسايتونغ** **Basler Zeitung**، ونالت شهرة كبيرة، صرَّح اللاهوتيّ والفيلسوف الميّال إلى البروتستانتيّة هانْس كونغ، بعد أن اقتلعت ريح الديمقراطيّة الأنظمة الاشتراكيّة، بما يلي: «يبدو لي أنّ آخر المتشرّدين مقيمون الآن في الڤاتيكان، وهم أواخر الذين لم يدركوا بعد أنّ العالم لم يعُد يقبل بالأنظمة الطاغية والتوتاليتاريّة»(١١).

أراد المسيح كنيسة يحظى فيها بطرس والرسل المتّحدون معه وحدهم بمساعدة من أجل تفسير تعاليمه تفسيرًا يقوم على الأنظمة الجوهريّة. ولا يمكن للكنيسة أن تكون ديمقراطيّة، لا لأنّ الديمقراطيّة لم يكن لها وجود في عصر المسيح - فالمجلس الأعلى

---

(١١) Il «Le Vatican, pour le théologien Küng, a besoin d'une perestroïka»; Giornale, 14 décembre 1989, p. 10

كان يحكم الدين اليهوديّ مجمعيًا - بل لأنّ الكنيسة تملك مخزونًا من الوحي الإلهيّ يفوق تمامًا الآراء البشريّة، في حين تعتمد الديمقراطيّة، بشتّى أشكالها، على تغيّرات هذه الآراء. وفي مجال مجهول وغامض كالطريق المؤدّي إلى الله، لم يَسْعَ القدّيسون والمسيحيّون الأقوياء الإيمان إلى الأعداد الكبيرة من الآراء المختلفة التي كان يدعو إليها اللاهوتيّون المتأثّرون إلى حدٍّ ما بالنظريّات السائدة في عصرهم، بل لجأوا إلى الشرح المضمون الذي قام به أولئك الذين وعدهم المسيح بأن يساعدهم حتّى نهاية العالم.

ولوثر هو الذي دعا للمرّة الأُولى إلى مبدأ الكنيسة الديمقراطيّة، إذ رأى أنّ خلفاء بطرس والرسل ليسوا الوحيدين المخوّلين بتفسير الكتاب المقدّس، أكّد، على العكس، أنّ الجميع يستطيعون أن يفسّروه بمساعدة الروح القدس («الفحص الحرّ»).

وَلَّدَتْ هذه العقيدة تفتّتًا هائلًا في الكنائس المسيحيّة وفي التعاليم التي تُعلن انتماءها إلى المسيح، وهذا أمر يتعارض مع إرادة المؤمنين ومصالحهم الروحيّة. ويبلغ عدد التسميات أو الكنائس المسيحيّة المستقلّة، التي يملك كلّ منها تعاليمه، عدّة مئات. ويبدو أنّ انتشار الإلحاد واللامبالاة الدينيّة في البلدان البروتستانتيّة، الذي هو أكثر ممّا في البلدان الكاثوليكيّة، يبيّن قيمة العقيدة الكاثوليكيّة، التي تحافظ على سلوك الكنيسة، الذي نشأ منذ القرون الأُولى.

ويبيّن استقصاء عام ١٩٨١، الذي قام به «نظام القيمة الأُوروبيّ» European Value System في تسعة بلدان أوروبيّة غربيّة، أنّ ٢٢٪ من الكاثوليك يلتزمون بصلاة الأحد مقابل ٨٪ لدى البروتستانت، وأنّ الكاثوليك يصمدون على وجه أفضل للتغيير،

وهذا يعني أنّ المنطقة المسمّاة الكاثوليكيّة تبقى أكثر تعلُّقًا بمعتقداتها الدينيّة»[١٢].

وإنّ إخوتنا الإنجيليّين (أو البروتستانت)، والأرثوذكس، والآن أتباع لُوفِيڤر يشتركون معنا في الجوهر. والأمر الذي نختلف فيه هو طريقة معالجة هذا الجوهر.

المسيح هو القادم من فضاء الله الذي جلب إلى كوكبنا مورثات الإنسان الجديد، التي تضمّ الصيغة الدقيقة الكفيلة بتقريب الإنسان من الله تدريجيًّا. ويمثّل الأرثوذكس وأتباع لوفيڤر، الذين هم من أشدّ المحافظين، الجمادة، ويمثّل البروتستانت واللاهوتيّون المعارضون والتقدّميّون التحكُّم بالمورثات. أمّا الكنيسة الكاثوليكيّة المحافظة، فتمثّل البرّاد.

المسافرون والقبطان

منذ القرون الأُولى، طبَّق رجال الكنيسة على البابا قول المسيح التالي وغيره من الأقوال: «أنت صخرٌ وعلى الصخر هذا سأبني كنيستي، فلن يقوى عليها سلطان الموت. وسأعطيك مفاتيح ملكوت السموات. فما ربطته في الأرض رُبِطَ في السموات. وما حللته في الأرض حُلَّ في السموات» (متّى ١٦/١٨-١٩).

وفي تلك الكلمات، التي يعترف جميع المتخصّصين بأنّ المسيح قد لفظها حرفيًّا، تتجلّى بوضوح سلطة البابا ومهمّته. الوحدة ضروريّة، ويريد المسيح أن يكون البناء مُوَحَّدًا لأنّه أُسِّسَ على صخر بطرس المتين. وسوف يكون هناك بذورُ شِقاقٍ (وهي

---

(١٢) J. STOETZEL, *I valore del tempo presente: un'inchiesta europea*, trad. it.., SEI, Torino, 1984, p. 95.

أبواب الجحيم، أي قوّة الشرّ)، ولكنّها لن تزيل تلك الكنيسة التي يعتبر المسيح أنّها تنتمي إليه. ويُعَدُّ اتّخاذ القرارات من صلاحيّات البابا، الذي يساعده المسيح نفسه في تفسير تعاليمه. وتمثِّل كلمات **مفاتيح وربَط وحلّ**، في ذلك الزمان، السلطةَ الإلهيّة. ومن البديهي أن المسيح لم يُرِدْ أن تتحقَّق وحدة الكنيسة في عصر بطرس فحسب. وبالتالي، يجب أن يكون لبطرس خلفاء يُكَلَّفون بالمهمّة نفسها ويتمتّعون بالسطلة نفسها(١٣).

وإذ يتحلّى المجمع الڤاتيكانيّ الثاني (١٩٦٢-١٩٦٥) بوعي اجتماعيّ أعمق، يوصي **بالحوار** مع سائر المسيحيّين من غير الكاثوليك، ومع الأديان الأخرى وحتّى مع غير المؤمنين، وذلك من أجل أن تُنقل إليهم الثروات الروحيّة التي تلقّاها الكاثوليك وحافظوا عليها، ومن أجل أن تغتني الكنيسة الكاثوليكيّة بالقِيَم الأخلاقيّة والدينيّة الموجودة في سائر الروحانيّات.

ومع ذلك، فإنّ المجمع يصرِّح في ما يختصّ بسلطة البابا والأساقفة المتّحدين معه بأنّ هؤلاء هم المسؤولون عن تفسير فكر المسيح تفسيرًا أصيلًا في مسائل الإيمان والأخلاق.

وعلى عكس ذلك، انتقل اللاهوتيّون «التقدّميّون» من النقيض الأوّل، وهو كنيسة ما قبل المجامع التي كان يصعب أن ينسب المرء إليها أي عيب، إلى النقيض الثاني، وهو الكنيسة التي لم يعد لديها ما تقوله للعالم أو تعطيه، ولسائر الأديان، وللإخوة من الكنائس الأخرى، والتي لم يعد لديها سوى أن تتعلّم وأن تتخلّى عن جميع

---

(١٣) W. KASPER, «L'ecclesialità della fede», dans *Giornale di Teologia*, Queriniana, Brescia, 1985; n. 65; F.A. SULLIVAN, *Il magistero nella Chiesa Cattolica*, Cittadella, Assisi, 1986.

العقائد التقليديّة. وثمّة أمر له مغزى، وهو أنّ الكلمات الفرنسيّة Etats (دول) وNations (أمم) وPays (بلدان) وSénat (مجلس شيوخ) وUniversité (جامعة) وغيرها تُكتب بحرف كبير في أوّلها (تقديرًا لها)؛ أمّا الكلمات التالية: église (كنيسة) وpape (البابا) وévangile (إنجيل) وsacrements (أسرار الكنيسة) وgrâce (نعمة)، فتُكتب بأحرف صغيرة في بدايتها. ومَن يدري، قد تُكتب قريبًا كلمة dieu (الله) أيضًا بحرف صغير في بدايتها. فيا للتواضع!

ولم ينوِ المجمع أن يأذن لركّاب السفينة، ولا للضبّاط الذين يعملون على متنها، بأن ينفّذوا آراءهم الخاصّة في إدارة السفينة بما يتعارض مع رأي القبطان. فالبقاء مع المجمع لا يعني في الحقيقة أن نتقبّل جميع نظريّات العالم.

يقظة الإيمان الحاليّة

لئن كانت الكنيسة تواجه اليوم مشكلات وصعوبات، فلا يمكننا أن ننكر كذلك أنّها تعيش مرحلة عجيبة من اليقظة الروحيّة والحيويّة. ويكتب المؤرّخ دلومو قائلًا: «هناك انطباع لدى معاصرينا بأنّ المسيحيّة قد بلغت ذروتها في الماضي - أي في القرون الوسطى أو في القرن السابع عشر - وبأنّ منحنى مصيرها يتّجه الآن نحو الأسفل لا محالة... تقوم هذه الرؤية... الساذجة على مُسَلَّمَةٍ ضعيفة، وهي أنّ جميع الناس في المسيحيّة القديمة كانوا مسيحيّين حقًّا... ومن الصحيح تاريخيًّا أن نستبدل بالمنحنى الصاعد... خطًّا على شكل أسنان المنشار يبيّن على مر العصور سلسلة من «اليقظات»[١٤].

---

(١٤) J. DELUMEAU, *Le ragioni di un credente*, cit., p. 243.

وإن كان المجمع الدينيّ قد مثّل في نظر بعضهم، كما رأينا، فرصة للانحراف عن الخطّ القويم، فإنّه مثّل في نظر غيرهم ربيعًا إيمانيًّا حقيقيًّا.

ويتابع دلومو قائلًا: «من الصحيح أنّ المسيحيّة الغربيّة قد فقدت الكثير من ناحية الكمّيّة، ولكنّه ألَمْ يربح من ناحية النوعيّة، أي في ما يختصّ بحياة المؤمنين الباطنيّة وكَرَمَهم؟»...

«وثمّة خطأ تاريخيّ آخر يزداد انتشاره حاليًّا، وهو أنّ أزمة الإيمان ترجع إلى مجمع الڤاتيكان الثاني. ومن البديهي أنّ هذا المجمع مثّل نقطة تحوّل صعبة. ولكنّني أتبنّى صيغة الأسقفيّة الكنديّة، إذ يبدو لي أنّها تمثّل جيّدًا وضع المسيحيّة الغربيّة: «إنّ المنزل القديم الذي يُجَدَّد يُشبه - ولفترة طويلة - منزلًا مهدَّمًا». وأنا مقتنع، مع پيير دانتان Pierre Dentin، بأنّ هناك شيئًا ما يتفتّح في قلب الشعب المسيحيّ - بما في ذلك مسيحيّو الغرب - وهو اهتمامٌ جديد بالإنجيل ومعه كنيسة فقيرة وخدومة، مضيافة وبسيطة، تمثّل أقلّيّة ولكنّها تُثير الحماسة»(١٥).

وثمّة أمر تجدر ملاحظته، وهو أنّ هذه النهضة، التي تشمل الإيمان والصلاة العفويّة والالتزام بمساعدة القريب والاهتمام بكلام الله وبالإيمان وبالدعوات الكهنوتيّة أو الدينيّة، تتجلّى اليوم خاصّةً في «الحركات» الدينيّة، ومنها: «التجدُّد في الروح» Rénovation dans l'Esprit، و«المشاركة والتحرُّر» Communion et Libération، و«مراكز الوحدة (فوكولاري)» Foyers d'Unité، و«جماعة الحياة المسيحيّة» Communauté de Vie Chrétienne، و«نور وحياة»

---

(١٥) المرجع السابق، ص ٢٦٦-٢٦٧؛ P. DENTIN, *Quel christianisme pour demain?*, Cerf, Paris, 1983.

Communauté S. «جماعة القدّيس إيجيديو» و Lumière et Vie، Egide، إلخ. وكلّ هذه جماعات منتشرة في بلاد بأكملها أو في العالم أجمع، وتتّصف باستقامة عقائديّة ملحوظة وبإخلاص للبابا.

فمن الطبيعيّ أنّ الموسيقى الجيِّدة لا تنتج عن عزف كلّ عازف على هواه، بل عن التزام الجميع باتّباع مقطوعة المؤلِّف المكتوبة على الورق، وبمراعاة توجيهات رئيس الفرقة.

لا تزال الكنيسة التي أرادها المسيح ضروريّة للعالم المعاصر. وإن لم تلتزم في الماضي دائمًا بالمحاربة في صفّ العدالة، فإنّها حافظت أقلّه على الإيمان الذي يكفي لإضفاء معنى على الحياة البشريَّة ونشر الأخُوَّة على الأرض. كما أنّ الكنيسة تمنحنا وجهًا، إذ إنّنا لم نعد نعرف تمامًا هل نحن التاج الأسمى الذي يزيِّن العالم أم دوّامة ضعيفة من الجزيئات. وهي تثبت لنا بقدّيسيها أنّنا أبناء الله المتّجهون نحو جماعة حبّ حقيقيّ أبديّ، وأنّنا لسنا قرودًا عارية تسافر إلى مقبرة القرية حيث تنتظرها حجرة صغيرة توضع فيها. وقد أنقذتنا الكنيسة من جميع الاضطرابات التي نعانيها منذ أن كفَّت الأغلبيّة عن اتّباعها، كما أنّها تمثِّل اليوم أيضًا في نظر مَن يفتح عينيه قاطرة تجرّنا نحو الينابيع بدلًا من أن تكون - كما يريد أحدهم - عَوّامة تؤدّي بنا إلى هاوية الشلّال. والنوافذ الوحيدة التي فُتحت في جدار الليل الذي يحيط بنا كانت تلك التي تمثِّل عقائد الكنيسة التي بُنيت على أساس من الحكمة. وأرض الكنائس التي حَتَّتها الدموع هي الطريق الوحيد الذي شُقَّ نحو الفرح. والكنيسة هي المؤسَّسة الوحيدة في وقتنا الحالي التي لا تُكيِّف عروضها بحسب تحليلات السوق، لأنّ الذي يُديرها يريد أن يرقى بالبشريَّة، لا أن يتركها تهبط بحسب مؤشّرات السوق.

ولعلّ الكنيسة تمثّل اليوم مكبِّر الصوت الوحيد الذي يعمل بدلًا من صوت الضمائر الذي أضحى بالغ الضعف(١٦).

---

(١٦) إقتباس بتصرّف من كتاب A. FROSSARD, *Il y a un autre monde*, pp. 69-70.

٢١ - المَسُّ الشيطانيّ

المسُّ الشيطانيّ وعبادة الشيطان

لاحظ تشيسترتن أنّه من الممكن الاعتقاد بأنّ الإنسان الذي يكفّ عن الإيمان بالله لا يعود يؤمن بشيء. وليس هذا ما يجري في الواقع، إذ إنّ الإنسان الذي لم يعد يؤمن بالله مستعدٌّ للإيمان بأيِّ شيء، كالصحون الطائرة والزعماء الروحيّين وجلسات تحضير الأرواح والسَّحَرة، كما أنّه مستعدّ لعبادة الشيطان.

«هذا ليس صحيحًا ولكنّي أؤمن به». في وقتنا الحالي، لا أحد يؤمن بالشيطان رسميًّا، ولكنّ الروايات والأفلام التي تتحدَّث عن الشيطان منتشرة على أشرطة الفيديو. ويزداد عدد الناس الذين يؤمنون بأنّهم مصابون بِمَسٍّ من الشيطان، كما أنّ ممثّلي الفئات التي تعبد الشيطان يظهرون دائمًا في مقابلات تلفزيونيّة ويصفون قداديسهم السوداء.

وكتب اللاهوتيّ لُويجي سارْتُورِي Luigi Sartori يقول: «إذا أخطأ الإنسان في الماضي بسبب «السذاجة»، إذ ظَنَّ أنّ الشيطان يلازم الإنسان فعلًا في كلّ خطوة يخطوها، فإنّنا اليوم قد نقع في الخطر المعاكس... في نظر المؤمنين، كلام الله هو الأساس الذي يُعتمَد عليه. ففيه نجد اختبار الله، إله المحبّة والخلاص، ومن

خلاله نستشفّ وجود روح الشرّ في العالم»[١].

واستنادًا إلى الكتاب المقدَّس، تعلِّم الكنيسة وجود الشيطان من حيث هو مُسبِّب للتجربة. فهناك أرواح خلقها الله خَيِّرَةً، ولكنّها اختارت بحرِّيَّةٍ الاستقلال عن الله والتمرُّد عليه، فانفصلت عنه وهي تدعو الإنسان إلى فعل الشيء نفسه. أمّا المَسُّ الشيطانيّ فليس أكيدًا بالدرجة نفسها، إذ يتبيَّن من الأناجيل أنّ المسيح قد حرَّر بعض الناس من الشيطان، ولكنّنا لا نعرف بالتأكيد هل المَسُّ الشيطانيّ لا يزال موجودًا وكم عدد الناس المصابين به. ومن الصعب كشف هذه الحالات لأنّ الظواهر التي تُشاهَد عند مَن يُظَنُّ أنَّهم ممسوسون ناتجة في الغالب عن أمراض نفسيّة: كالانهيار العصبيّ الوسواسيّ والبارانويا والفُصام ولا سيّما الهسترة، وقد يضاف إلى هذه الحالات بعض ظواهر القدرات الغريبة: كتوارد الخواطر والتنبّؤ وتحريك الأجسام عن بعد.

ويمكن أن نُرجِّح وجود مَسٍّ شيطانيّ عندما نلحظ وجود العناصر التالية في آن معًا: ١) اشمئزاز غريب وعنيف من الله في لحظات نشاط المسّ المزعوم؛ ٢) تناوب الشخصيّة (أي أن يتحوَّل الممسوس من الحالة الطبيعيّة إلى شخصيّة مختلفة تمامًا) مع عدم وجود أيّ أعراضِ أمراضٍ نفسيّة؛ ٣) وجود ظواهر غير طبيعيّة: كإتقان اللغات الأجنبيّة بدون تعلّمها، والتنبّؤ، وتحريك الأجسام عن بعد. وفي بعض الحالات تجتمع هذه العناصر الثلاثة. ولعلّ الله يسمح بحدوث المسّ الشيطانيّ كنتيجة لبعض الخطايا وجلسات تحضير الأرواح، أو كتجربة من أجل تطهير النفوس والحثّ على

---

(١) L. SARTORI, «Esorcismi e presenza demoniaca», dans *Famiglia cristiana*, 1988, n° 20.

الصلاة، أو حتّى كدليل على وجود الشيطان وعلى قدرة النعمة على تحرير الإنسان من تلك الحالة[٢]. وعلى كلّ حال، لا يظهر وجود الشيطان في حالات المسّ بقدر ما يظهر في الإنجيل، وفي ما يصيب العالم حاليًّا، وفي غرف القتل بالغاز، وفي معتقلات السجناء السياسيّين، وفي تفتّت الأسرة والحبّ، وفي المافيا العالميّة وفي عبادة الشيطان. وألغى الإنسان صورة الشيطان بقرنيه وقدميه الظلفاوين ليستبدل بها الفكرة الشيطانيّة الداعية إلى التحرُّر من الله، تلك الفكرة التي تدور حولها أفكار الإنسان المعاصر.

---

(٢) C. BALDUCCI, *La possessione diabolica*, Ed. Mediterranee, Roma 1986; Id., *Adoratori del Diavolo e rock satanico*, PIEMME, Casale Monf., 1991.

٢٢ - العصر الجديد أو عصر برج الدلو

العصر الجديد ومخزن الظواهر الغامضة الكبير

«يقول جاكُوبُو بِلْبو Jacobo Belbo، أحد الأبطال الثلاثة في رواية أُمبيرتو إيكو Umberto Eco **رقّاص ساعة فُوكُو**: «غالبًا ما يتوجَّب علينا أن نموت في سبيل إثبات شيءٍ ما. وماذا يثبت الموت شنقًا على رقّاص ساعة فوكو؟ إنّه يثبت أوّلًا الأمر التالي: بما أن الإنسان لا يستطيع القبول بالعيش محرومًا من القِيَم في الإلحاد والعدميّة، وبما أنه يستصعب الطريق الذي رسمه المسيح، يسعى لاهثًا إلى اكتشاف معانٍ خفيّة ومستويات غامضة، وإلى محاولات هروب باطنيّة. ثمّ تخيِّب هذه الأمور آماله، مع مرور الزمن، خيبةً شديدة. والناس متعطِّشون إلى التجارب الجديدة. فإذا عُرِضت عليهم واحدة، تهافتوا عليها كَرَهْطٍ من الذئاب. فأنت تبتدع، وهم يؤمنون»[١].

إنّ ما يميِّز التاريخ هو ظاهرة عودة القداسة إلى الطرقات المنحرفة عودةً منتظمة. أمّا اليوم، فكلّ العالم الغربيّ يعجُّ بالبدع الدينيّة، ويعود الناس إلى الانبهار بالأسرار الغامضة، ويتلَّوث الجوّ

---

(١) U. ECO, *Il pendolo di Foucault*, Bompiani, Milano, 1988, p. 490.

بالهوس بالشيطان والهوس بالمقدّسات. وتشهد الولايات المتّحدة وكندا وأمريكا اللاتينيّة وحتّى أوروبّا تزايدًا حقيقيًّا وهائلًا في عدد البدع: ككنيسة مون Moon، وهاري كريشنا Hare Krishna، والسيانتولوجيا، ولا سيّما بدعة «العصر الجديد» Nouvel Age، ورسل الشؤون الخفيّة، والنزعة الدينيّة المتناوبة وغير المنظّمة، وعبادة الشيطان.

وفي البدع الجديدة ذات الانتشار الواسع، وأهمّها بدعة «العصر الجديد» أو «عصر برج الدلو» التي يسودها جوٌّ من الفرديّة والتوفيقيّة يجمع بين أمور مختلفة: من الاتّصالات بكائنات الكواكب الأخرى إلى الصوفيّة البيئيّة، ومن التأمُّل المتسامي إلى أغرب أشكال الشفاء الذاتيّ و«الصلاة الشافية»، وإلى إنتاج العديد من الكتب عن الأمور الباطنيّة والسحر. ويكتب جان فرانسوا ماير Jean - François Mayer – وهو من أكبر العارفين بهذه الظاهرة – قائلًا: «هذا ما يُطلَق عليه في أمريكا اسم «وسط العبادة»، وهو الوسط الذي تسود فيه إيديولوجيّة «عصر برج الدلو»، والذي تؤمّه أعداد هائلة من الناس المتعطّشين إلى التجارب والأسرار الغامضة والظواهر الخارقة.

ويستطيع كلّ زبون، بشيء من الحرفة الفرديّة، أن يفصل دينه الخاصّ به بالكمّيّات التي تناسبه من التقمُّص والعِرافة عن طريق ورق لعب التارو، يضيف إلى ذلك إصبعين من نزعة حماية البيئة، وأربع نقاط من التنجيم، وقليل من الزِن Zen واليوغا. فبينما تملك الأديان الكبيرة، كالمسيحيّة الكاثوليكيّة والإسلام، مدخلًا واحدًا وطريقًا محدَّدًا يجب اتّباعه، تملك هذه البدعة الدينيّة الجديدة نحو عشرة أبواب مختلفة للدخول. ويجرِّب المرء فيها كلّ شيء دون

التزام»(٢).

هذا النوع من الأديان هو الذي يستحقّه المجتمع الاستهلاكيّ، ولا يقدر هذا، على تغييره، بل على توطيده في نزعاته. وورد في افتتاحيّة صحيفة لاتشِيفِيلْتا كاتُّوليكا *La Civiltà Cattolica* الصادرة في ٦ تشرين الأوّل (أكتوبر) ١٩٨٤، ما مفاده أنّ الموجة الحاليّة القائمة على القوّة الخفيّة يجب أن تُفهَم كإشارة من إشارات الزمان تدلّ على حاجة زُيِّفت وشُوِّهت، وهي الحاجة إلى التقرُّب ممّا هو «إلهيّ». وهي بالتحديد حاجة إلى التقرُّب عن طريق بعض الظواهر والإشارات ودلائل المصداقيّة التي تدركها والتي هي في متناول الجميع.

وتملك الكنيسة في تاريخها الطويل وفي كتبها المقدَّسة تراثًا واسعًا من حالات الظهور والمعجزات، أكثر جدّيّة وإقناعًا من تلك الظواهر بكثير، ولكنّ الناس يحاولون اليوم وضعها في حجرة المهملات بكاملها دونما تمييز. وعلى العكس، يمكن لأجدر الناس بالإيمان اليوم أن يلقوا قليلًا من الضوء على درب إيمان الإنسان الذي تعيقه المادّيّة الشائعة. وكما يلاحظة ماير: «يجب أن نتذكّر بأنّ جميع هذه الحركات الصوفيّة الجديدة (أي البدع) تقدِّم «تجربة في اكتشاف المقدّسات» والمعجزات والأمور التي لا تُفَسَّر: كشفاء المرضى وحالات الظهور والاتّصالات. وتكاد تصبح التجربة القائمة على هذه الأمور معيار الحقيقة الأوحد. وفي تقليد الكنيسة، نجد كلّ ما يلزم لتلبية هذه الحاجة، إذ هناك معرفة عريقة

---

(٢) J.F. MAYER (de l'Univ. de Fribourg) «Supermarket del mistero» in *Avvenire*, septembre 1989. Cf M. INTROVIGNE E ALTRI, *I nuovi movimenti religiosi. Sette cristiane e nuovi culti*, Elle Di Ci, Leumann (Torino), 1990.

بالحالات الروحيّة وحالات نزول الوحي والظواهر الفيزيائيّة التي ترافق عمليّة التنسُّك. ويا للأسف! استُبْدِلَ بهذه الحكمة لاهوت مقتصر على تمرين ذهنيّ يجهل الحياة الروحيّة الملموسة»[٣].

شهود يهوه وتأجيل نهاية العالم

وهناك أيضًا البِدع التي تستوحي فكرها من الكتاب المقدَّس، ولا تتخلّى عن تفسيرات السلطة الدينيّة التي خوَّلها المسيح بذلك فحسب، بل تتخلّى أيضًا عن دراسات الكتاب المقدَّس العلميّة الجادّة التي نجدها بكثرة عند المسيحيّين البروتستانت وعند الكاثوليك. وتفسِّر هذه البدع الكتاب المقدَّس بكثير من السطحيّة بحيث يرى الجميع أنّ المنتمين إليها لا يمكن أن يُعتبروا من المسيحيّين.

ومن أشدّ هذه البدع مراسًا شهود يهوه. وهم يستشهدون دائمًا ببعض مقاطع الكتاب المقدَّس ويأخذون بمعناها الحرفيّ. وبذلك يُفرغون سائر أجزاء الكتاب المقدَّس من محتواها، ويُغلقون أبواب الجنّة أمام جميع الذين لا يشاركونهم في إيمانهم، ويثيرون الخوف من نهاية العالم الوشيكة، ويؤجِّلونها سنةً فسنةً كلّما تبيَّن أنّ تأكيداتهم كانت خاطئة[٤].

---

(٣)ماير: المرجع السابق.

(٤) G. CROCETTI, *I testimoni di Geova a confronto con la Bibbia*, E. Ancora, Milano; P. SCONOCCHINI, *La Bibbia dei Testimoni di Geova: traduzione o manipolazione?*, Elle Di Ci, Leumann (Torino), 1991.

٢٣ - حالات الظهور

ظهور العذراء وجماعات التجديد الروحيّ

إنّ حاجة الإنسان المعاصر إلى تجربة استكشاف المقدَّسات تجد تلبيةً لها في حالات الظهور الجديرة بالإيمان وفي حركات التجديد الروحيّ.

وتُعَدُّ حالات الظهور المزعومة، ولا سيّما ظهور العذراء، كثيرة جدًّا اليوم، ولكن معظمها لا يعطي الضمانات الكافية لإثبات صحّتها. أمّا بعضها - وهو يمثّل الحالات التي اعترفت الكنيسة بصحّتها - فقد أدّى إلى إنشاء مزارات يؤمّها الملايين من الناس ويُحْدِثون تغيّرات إيجابيّة ومُذهلة في حياتهم بفضل الصلاة والتقرُّب من سرّ مغفرة الخطايا.

فالحجّ إلى مِدْيُوغُورِيه Medjugorje يُوَلِّدُ اليوم تيّارًا قويًّا من الهدايات وحالات تجديد الحياة بالمسيح. وما من شيء جديد ومذهل في رسائل العذراء التي ترمي إلى إحياء تعاليم المسيح الأساسيّة والتذكير بها.

وما يجدر ذكره خاصّةً هو العدد الكبير من حركات الإيمان الحيّة التي ظهرت فجأة، لا سيّما منذ انعقاد مجمع الڤاتيكان الثاني. فالإنسان المعاصر لا يكتفي بحياة دينيّة مقتصرة على

قداديس الأحد التي «يصغي إليها» من باب الواجب، وهو جالس مع أناس لا يعرفهم، ويستمع إلى صلوات باردة وجامدة (كما تبدو له)، تُقرأ في كتاب، وإلى عِظَةٍ غالبًا ما تكون بعيدةً عن طريق تفكيره ومشكلاته. ويكتب كارلو كارّيتّو قائلًا: «يريد الإنسان كنيسة ودّيّة وبسيطة تقوم على علاقات حقيقيّة، ومبادلات فعليّة، وأشياء صغيرة... كنيسة لها نكهة أصولها».

لهذا السبب تلقى البدع الشرقيّة وشهود يهوه كلّ هذا النجاح، إذ تملك حماسة البدايات. ولكنّنا نجد الشيء نفسه في حركات التجديد الكاثوليكيّة الناشئة التي تؤيّدها الكنيسة.

«لا أحد يفكّر في تغيير الكنيسة إن منحته ما يبحث عنه وما يتعطّش إليه، أي الحقيقة والحبّ والصداقة والتواصل... فلو قابل أحد الفوكولاري (أي أحد أعضاء «مراكز الوحدة» Foyers d'Unité)، أو أحد الناشطين في «العمل الكاثوليكيّ» Action Catholique، أو أحد أعضاء «التجدُّد في الروح»، أو أحد الكشّافة (إن كان صبيًّا صغيرًا)، بدلًا من أن يقابل أحد شهود يهوه، لجرت الأمور على غير ذلك.

وفي هذه الحركات، يعيش الإنسان تجربةً، وهي أوّلًا تجربة معنى الجماعة وحرارتها، ثمّ تجربة الصلاة الحيّة والعفويّة والجماعيّة، ثمّ تجربة الفرح، الذي يُعَدُّ من أبرز صفات الإيمان عندما يكون حيًّا وعندما نعيشه مع الجماعة.

«نشوء هذه الحركات هو الدليل المُدهش على فعل الروح القدس وإحدى أكثر الوسائل فعاليّة من أجل بناء كنيسة المستقبل... ويُعدّ نموّ ظاهرة الجماعة بالغًا، وهو الدليل على قوّة المسيحيّة المعاصرة، كما أنّه تلبيةٌ لحاجة يشعر بها الإنسان

حقًّا...» ويستنتج كارّيتّو قائلًا: «إذا اختبرت ذلك، فلن تعود ترغب في المشاركة بأيّ ليترجيّة في جوّ من البرود واللامبالاة، ومع أُناس لم يعرفوا التعليم المسيحيّ، بل عرفوا الرسميّات والتصنُّع»[1]. والأفضل من ذلك هو أن تشارك في ذلك لكي لا تنفصل عن رعيّتك التي هي خليّة شعب الله، وأن تدعم مشاركتك بالرغبة في إحياء هذه الرعيّة.

---

(١) H. CARRETTO, *J'ai cherché et j'ai trouvé*, cit. p. 47.

٢٤ - ليس اللّه كذلك

عندما تصادف عبارة «قاسية» في الكتاب المقدَّس

أعزّاءنا الملحدين، فويرباخ وماركس ونيتشه وفرويد وسارتر...! نحن المؤمنين نشكركم جزيل الشكر، فقد خدمتم كثيرًا قضيّة الإيمان الحقيقيّ. ومع أنّكم كنتم فاقدي العين اليمنى، ولم تكونوا قادرين على رؤية صحّة الإيمان وصوابه في الوقائع، فقد رأيتم بوضوح بعينكم اليسرى، وساعدتمونا على كشف المحاولات البديلة التي كانت ولا تزال تأتي مهرَّبةً تحت ستار منتوجات أصليّة. فقد شرح الملحدون لماذا يرى الناس الإيمان بشكله المزيَّف، وغالبًا ما يكون هؤلاء الناس من الجديرين بكلّ احترام، إذ إنّ هناك العديد من الأقنعة والصور المزيَّفة لله، كما أنّه هناك العديد من المؤمنين الذين التحقوا بالطرف الصحيح، ولكن تلبيةً لدافع خاطئ.

ويصدر عدد من أقنعة الله عن تفسير الكتاب المقدَّس تفسيرًا حرفيًّا. وما مِنْ بدعةٍ أو شكلٍ من أشكال التزييف - وشهود يهوه مثال على ذلك - وإلّا ويجدُ أساسًا له في إحدى جمل الكتاب المقدَّس تفسَّر حرفيًّا ولا تقارَن بما تبَقّى.

وليس من المُدهش أن نجد في مجموعة الكتب البالغ عددها

٧٢ كتابًا، والتي كتبها عدد من المؤلِّفين المختلفين منذ آلاف السنين، في منطقة بعيدة عنّا، ليس من المدهش أن نجد الكثير من العبارات التي تصدم حساسيّتنا أو تبدو متعارضة مع مفهوم الله من حيث هو أبٌ خَيِّر وحَكَم عادل، كما صوَّره لنا المسيح.

وثمّة سبب آخر يبيِّن ضرورة سلطة الكنيسة، وهو غموض الكتاب المقدَّس الذي يمكن أن يؤدّي تفسيره الفرديّ إلى العديد من حالات اللُّبْس.

ويقوم أحد المبادئ التي تُتيح فهم عبارات الكتاب المقدَّس على مقارنتها بمقاطع الكتاب الأخرى التي تعالج الموضوع نفسه، أو التي قد نجد فيها الكلمة نفسها مستعملة في سياق مختلف. ويجب أن نضع في اعتبارنا لغة ذلك العصر والعقليّة الساميّة السائدة فيه، وحقيقةَ أنّ الوحي الإلهيّ نزل بالتدريج وتَكَيَّفَ مع مستوى فهم اليهود القدامى، وحَضَّرهم تدريجيًّا للنور الساطع الذي جلبه المسيح.

صور خاطئة عن الله

يقوم الحبّ بين الرجل والمرأة على المغالاة في تضخيم الفرق بين شخصٍ ما وسائر الأشخاص. أمّا حبّ الله فلا يقوم على الشيء نفسه.

ينجذب كلّ كائن بشريّ، في لاشعوره الروحيّ، إلى الله كما ينجذب البطّ إلى البحيرة والنحل إلى الرحيق. ولكنّ معظم الناس لا يتنبّهون إلى هذا الانجذاب، ويكوّنون عن الله صورةً باردة وقاسية تمثّله كسيِّد أنانيّ يقف في أعلى قصره ويطلّ على خدّام أرضه الجائعين.

ويكتب جان غيتون ما يلي: «قرأت في كرّاسات ڤاليري Valéry فكرة لم أعد أجد مثلها، ومفاد هذه الفكرة هو التالي: إن كان الله موجودًا، أو إن كنت أستطيع فقط أن أؤمن بوجوده، فسأكون سعيدًا للأبد، إذ لن أستطيع أن أهتمّ بشيء آخر غيره. وسأشعر بأنّني محاط بالحنان والرعاية، ولن تمثّل ملذّات العالم شيئًا في نظري، ولن يكون الموت شيئًا يُذكر. وإن كنت أعرف أنّ الله موجود، وإن لم تكن حياتي إلّا تأخيرًا للقائه - وإن كانت هذه الحياة مؤلمةً - فإنّها ستكون ممتعة كانتظار الحبيبة انتظارًا طويلًا مع الثقة التامّة بأنّها ستأتي. وإن كان الله موجودًا، فلا شيء يخلو من المعنى. وإن كان الله موجودًا، فيبدو لي أنّني سأكون طيّبًا بالطبيعة مع جميع الناس، شأني شأن إنسان يصبح فجأة من أصحاب المليارات ويلقي بأكياس النقود في جميع الاتّجاهات، وذلك للمتعة فحسب. وإن كان الله موجودًا، فيبدو لي أنّه سيستوعب ذنوبي الماضية ويغفرها لي، لأنّني أعترف بأنّها ذنوب... ولكنّ الله لا يثبت وجوده للناس، وكلّ شيء يجري في نظرهم، وحتّى في نظر المؤمنين به، وكأنّه غير موجود»[1].

وفي ما عدا الحنان والرعاية، اللذين يجب ألّا يُفهما على أنّهما ملاذٌ طفوليّ، فإنّ صورة الله عند ڤاليري صحيحة. ونحن نعلم أنّ الله يُثبت وجوده في المسيح بهذه الطريقة. ولكن يبدو أنّ المؤمن العادي يجهل - يا للأسف! - أنّ الله موجود وأنّ كل هذه السعادة التي تتراءى في الأفق حقيقيّة. ويا للأسف! ينتشر الكثير من الصور المُنْفِرَة عن الله، ولعلّ بعض أشكال التبشير الشائعة هي السبب في ذلك.

---

(١) J. GUITTON, *Ce que je crois*, cit. pp. 168-169.

وثمّة طريقة جيِّدة لتنقية صور الله المشوَّهة، وهي اللجوء إلى الملحدين. فكما يبيِّن اللاهوتيّ مُولْتمان، تلقّى الدين إسهامات منقِّية وتحريضات إبداعيّة من الخارج، ولا سيّما من الفكر والنشاط الصادرين عن أولئك الذين كانوا يريدون تهديم الدين. ويبدو أنّ الله استخدم غير المؤمنين ليدفع المؤمنين إلى تحسين إيمانهم.

تقوم أبسط طرق غسل الأيقونات المدنَّسة وأكثرها فعاليّة على تفسير أيّ حدث أو عبارة على ضوء وحي المسيح الأساسيّ. الله هو المثل الأعلى الذي هو واقع في الوقت نفسه. الله حبّ كامل، وهو يدعو الإنسان إلى أن يتعاون معه بحرِّيَّة ليتحوَّل ويستطيع دخول أسرته (ولا يمثِّل الحبّ هنا بالطبع شعورًا، بل يمثِّل إرادة الخير).

ويصف عالِم الرياضيّات والفيلسوف وايتهِيد طبيعة الله على أنّها العناية الفائقة التي لا يُنسى معها شيءٌ، والحكمة المتسامحة والصبر اللّانهائيّ. ويرى الله على أنّه «شاعر العالم» الذي يحقِّق، مع مَن ينفتح عليه، «رؤيته عن الحقيقة والجمال والطيبة»(٢).

لا يقتصر الدين على الإيمان بالله، إذ ينبغي أيضًا أن نكوِّن فكرة جيِّدة عنه. وليس من الضروريّ أن نهدر كلّ هذا الكلام من أجل تصحيح الصور الخاطئة المتداولة بين الناس. فكلّ إنسان يمكنه أن يقوم بذلك كلّما صادف عبارة «فاضحة» من عبارات الكتاب المقدَّس. وبالتالي فإنّه عندما يقرأ صفحات أخرى من النصّ المقدَّس ويتأمَّل فيها، يكتشف أنّ هناك عبارات أخرى تعدِّل الأُولى. وإن تابع أبحاثه، وجد أنّ التفسير الذي يقوم به اختصاصيّو

---

(٢) A.N. WHITEHEAD, *Process and Reality. An Essay in Cosmology* (1929), New York 1960; trad. it. *Il processo e la realità*, Bompiani, Milano, 1965, p. 524.

الكتاب المقدَّس وتقوم به الكنيسة يبرِّر هذه العبارات وتلك.

وسأقتصر هنا على التذكير ببعض تلك العبارات.

يمثِّل الله **البديل** عن الأب بالنسبة إلى الولد. وعندما يصبح الولد بالغًا، «يستمرّ عجز الإنسان وتستمرّ معه رغبته الشديدة في الأب وفي الآلهة»(٣). ودور الله يقوم (وهميًّا) على إزالة الخوف من الطبيعة، ومصالحة الإنسان مع القدر والموت، ومواساته في كلّ حرمانه وآلامه التي عاناها طيلة حياته وسط البشر، أي أنّه باختصار سَدٌّ لنقص الحياة الجسديّة.

ولعلّ الله يمثِّل **إسقاط** الرغبات الأرضيّة التي لم تتحقَّق (فويرباخ)، أو **أفيون** لبني البروليتاريّة يُمَكِّنُهم من تحمُّل ظلم الرأسماليّين بدون معارضة (ماركس)، أو **مواساة** للضعفاء غير القادرين على إبراز قيمتهم في الحياة (نيتشه).

وفي نظر غيرهم، فإنَّ الله هو **تاجر** المكاسب الأرضيّة: كالصحّة والحبّ والأسرة والنجاح، وبذلك تمثِّل الصلاة والقدّاس العملة المتداولة، أو لعلّه **السيِّد الأعلى** الذي يفرض هيمنته الجائرة على مصير الأفراد والشعوب، ويغضب على الذي لا يخضع له، ويهدِّده بالعقاب الرهيب، أو قد يكون **القاضي الصارم** الذي يحكم بالتضحية والموت من خلال عذابات ابنه، ليكفِّر عن خطايا العالم.

وعلى حدّ تعبير تيّار دي شاردان، يمثِّل الإلحاد في الغالب إيمانًا بالله لم يتمّ إرضاؤه.

ولنستعرض الآن بعض إمكانيّات تصحيح هذا الوضع.

---

(٣) S. FREUD, «L'avvenire di un'illusione», dans *Il disagio della civiltà e altri saggi*, Boringhieri, Torino, 1971, p. 158.

ردًّا على الفكرة القائلة بأنّ الله يفرض القانون الأخلاقيّ كسلسلة من المحظورات الجائرة التي تنزع الحرّيّة من الإنسان، نقول: إنّ القانون الأخلاقيّ، على عكس ذلك، يتلخّص في الحبّ، وهو أكثر حاجات الروح البشريّة عمقًا وأصالةً، وهو ما يدلّنا على طريق السعادة الدائمة.

وفي ما يختصّ بالفكرة القائلة بأنّ الله يحكم على البشر بالعذاب الأبديّ (أي جهنّم)، نقول: لنلاحظ أنّ الناس في جميع الأديان يؤمنون بأنّ الأعمال والخيارات الأخلاقيّة في هذه الحياة لها نتائج إيجابيّة أو سلبيّة تتناسب مع الذنب أو مع الاستحقاق. وهذا هو قانون التناسب بين الأسباب والمسبّبات. فالجحيم ليس عقابًا يفرضه قاضٍ غاضب، بل هو عقاب ذاتيّ يقوم به مَن رفض العدالة والحقيقة والحبّ بوعي وإصرار حتّى إنّه بلغ عتبة اللاعودة، إذ أصبحت رغبته في الشرّ وفي الانفصال عن الله ثابتةً راسخة.

وردًّا على فكرة أنّ الله يرسم المستقبل ويكبّل الإنسان بمصيره («ما كتبه الله مصيره الحدوث»)، نقول: ولكنّ الله يمكن أن يتوقّع للإنسان الاختيار الحرّ. فإنّ رؤية ما سيحدث أو توقّعه لا يعنيان نزع الحرّيّة.

وفي ما يختصّ بالفكرة القائلة بأنّ الله يفرض على الإنسان عدم التمرّد على ظلم الآخرين له، والقبول بالواقع وتحمّله بلا اعتراض، نقول: إنّ المسيح قاوم الظلم بحماسة، وبرّر الكتاب المقدّس اللجوء إلى النضال وحتّى إلى العنف في حالات الدفاع عن النفس التي لا لُبس فيها.

أمّا عن الفكرة القائلة بأنّ الله قاض لا يرحم، حكم بالتضحية البشريّة وبالتضحية بابنه، فنقول: «بقدر ما هذه الصورة منتشرة،

بقدر ما هي خاطئة»، على حَدِّ قول الكردينال راتْزِنْغِر[٤]. «كان الواقع أبسط من ذلك. فقد جاء المسيح إلى بني قومِه، ولم يستقبله هؤلاء، ولم يأتِ ليُصلَب، ولكنّه، إذ تعرَّض للخطر وهو مجرَّد من السلاح وسط الأشرار، عرف أنَّ حياته في خطر، وقَبِلَ بهذا الموت لكي لا يخون رسالته»[٥].

وحتّى الفكرة القائلة بأنّ الله يحبّ البشر ويستجيب لصلواتهم في ما يختصّ بالصحّة والمحصول والحماية من المصائب، فإنّها لا تتناسب مع حبّ الله الحقيقيّ للبشر. فقد زُوِّدَ هؤلاء بطاقات كافية للسيطرة على الطبيعة والتغلّب على نوائب الدهر (كالعلم والتقنية والمبادرة ورباطة الجأش عند المصاعب والخيرات التي تعوِّض الإنسان عن بلاياه). ومن الضروريّ أن تأخذ قوانين الطبيعة مجراها. وتساعد الصلاة خاصَّةً في التغلُّب على التجارب، والحصول على مغفرة الذنوب، وقهر ثبوط الهمّة والكسل، وإحياء التفاني والعدالة والحبّ، واكتشاف معنى الحياة.

فما هي فضيلة الإيمان هذه التي تجعلنا نلتزم بثقةٍ بالله وبكلامه كما نقله إلينا المسيح والكنيسة؟

تعتبر الكنيسة الكاثوليكيّة الإيمان **أمرًا خارقًا للطبيعة**: فمن بداية الحياة إلى نهايتها، يمثّل الإيمان نور الله الداخليّ الذي يسعى إلى الإنسان ويدعمه ويجعله مؤمنًا.

الإيمان حرٌّ، إذ ليس هناك أدلّة دامغة، بل هناك إشارات وعلامات يستهدي بها العقل، وهناك حَدْسٌ تستهدي به الروح.

---

(٤) J. RATZINGER, *Foi chrétienne hier et aujourd'hui*, Mame, Paris, 1976, p. 197.

(٥) J. DELUMEAU, *Ce que je crois*, cit. p. 47.

وكلّ إنسان حرٌّ في أن يُبرِزَ العلامات التي تدفعه إلى الإيمان أو الحالات الغامضة التي تدفعه إلى الشكّ. فضلًا عن ذلك، فإنّ كلّ إنسان حرٌّ في أن يمارس، بالدرجة التي يريدها، الفضائل الأخلاقيّة التي تسهِّل الحدس الروحيّ، ولا سيّما الثقة العميقة، والتواضع الفكريّ والمحبّة.

وأخيرًا، الإيمان قرار عاقل، لأنّ التصريح بالإيمان عمليّة جديرة بالذكاء البشريّ.

ولئن كان العقل بمفرده يمثّل سيّارة قديمةً تسعى للصعود إلى القمر من أجل الوصول إلى الله، فإنّ العقل مع الإنجيل والنعمة يمثّل سيّارة قديمة كذلك، ولكنّها تسعى إلى منصّة الإطلاق.

٣٨ - الباراسيكولوجيا والإيمان

مظاهر الإيمان التي لا تُصَدَّق

أن لا يجد الملحد واللامباليّ أسبابًا كافية لجعلهما يؤمنان، هذا أمر لا يستوجب الدهشة، إذ إنّهما ينظران إلى الأمور من الطرف الآخر.

ولكن حتّى قليل الإيمان الذي يدرس الأسباب ويقبل بها جوهريًّا، يبقى مرتبكًا وحائرًا أمام مضامين الإيمان التي تتجاوز بأشواطٍ تجارب هذا العالم الاعتياديّة والملموسة.

وتكمن الصعوبة الحقيقيّة في الإيمان بإله لا يُرى ولا يتكلّم، ولا جسد له - وبالتالي لا حقيقة له بحسب تجربتنا - ويرى الناس وأحداث العالم أجمع، حتّى أعمق أعماق الضمائر، ويستوعب كلّ صلاة، ويتلقّى رسائلنا ويستجيب لها باطنيًّا، ويعرف المستقبل الذي لا نعرفه، ويؤثّر في المادّة بخلقها أو تحويلها بدون أيّ تماس فيزيائيّ. وتبدو لنا حالات الظهور سحريّة وخياليّة، ومع ذلك فقد تمّ إثباتها في الكتاب المقدّس وفي حياة القدّيسين، ونتحدّث عنها حتّى في أيّامنا هذه، ولكن ما يجب أن ننزعه بالدرجة الأولى من عقول البشر المعاصرين المتأثّرين بالمادّيّة هو النفور الشديد من الإيمان بالآخرة.

«لم يرجع أحد من الآخرة»: أصبح هذا الشعار الماديّ «حقيقة لا جدال فيها». كما أنّ الدعابات العديدة المتعلّقة بالجنّة والأشباح تؤدّي إلى السخرية مِمَّنْ يؤمن بحالةِ ظهورٍ سُرْعان ما يكذّبها اللاهوتيّون، حتّى بدون أن يفحصوها. ويُعتقَد بأنّ غياب حالات الظهور الجادّة والمُوَثَّقة والقابلة للتدقيق يلقي بالكثير من المؤمنين في حالة إيمان إلزاميّ. فيجدون أنفسهم في موقف روحيّ يمكن أن يلخَّص في العبارة التالية: «هذا غير صحيح ولكنّي أؤمن به». ويتجلّى هذا الموقف في يأس «المؤمنين» العميق في أن يبلغوا، هم أو أحد الأعزّاء على قلوبهم، «السعادة الأبديّة».

إرتفاع الطلب على الظواهر غير الطبيعيّة

وفي الوقت الذي نلحظ فيه الشكّ بالإيمان وبالآخرة، يمكن أن نلحظ كذلك، في المجتمع الغربيّ الحالي، اهتمامًا بالغًا وإيمانًا غامضًا وعامًّا بنوع من الظواهر الغامضة التي يبدو أنّ لها علاقات واتّصالات بعالم آخر.

والعديد من المؤمنين بالمسيح ومن اللاهوتيّين ينظرون بعين الشفقة إلى عالم «الظواهر غير الطبيعيّة» على أنّه جانب من الجوانب الكثيرة التي تمثّل الفوضى الروحيّة التي يعيشها العالم الحالي. ويحدث كذلك أنّهم يمتنعون عن النظر إلى تلك الظواهر لمحاولة فهم شيء منها، أو حتّى إنّهم يفخرون بأنّهم يجهلونها ويريدون أن يبقوا على جهلهم لها. وأصل ذلك أنّهم يخلطون، تحت اسم البارابسيكولوجيا، بين ظواهر جادّة (يجهلون أنّها مُوَثَّقَة ومدروسة منذ قرنٍ حتّى في الجامعات)(١) وأَحَطّ أشكال الخداع والاستغلال

---

(١) M. RYZL, *La Parapsicologia*, Ed. Mediterranee, Roma, 1984; V. NESTLER, *La Telepatia*, 1984.

والوهم (كالباطنيّة والسحر والتنجيم وقراءة الكفّ واللجوء إلى الظواهر الخفيّة) واستحضار الأرواح، الذي يؤذي حتّى ولو كان حقيقيًّا.

ويمثّل تزييف البارابسيكولوجيا الجادّة نفايات الإيمان، والرغبة الروحيّة الأخيرة، والبديل عن الله بعد استبعاده، والدليل على أنّه كلّما قَلَّ الإيمان بالخالق، زاد الإيمان بالشعوذة.

وعلى العكس، فإذا ما عزلنا حالات التزييف، بقيت بعض الظواهر غير الطبيعيّة، الكثيرة العدد والمُوَثَّقَة، التي تقدِّم لإنسان العصر الحالي علامات تُشير إلى وجود الآخرة، والتي «إذ تدحض الرؤية المادّيّة إلى الحياة، تدعو إلى رفع الأعين إلى الأعلى»(٢).

والقيمة الخاصّة التي ننسبها إلى هذه الظواهر من حيث هي عنصرٌ مساعدٌ على الإيمان العاقل تكمن في أنّ الظواهر المذكورة قد جمعها ودرسها وقدَّمها للناس باحثون - وحتّى علماء حقيقيّون - لم تكن لهم أيّة صلة بالكنيسة، بل كانوا يردّون إليها انعدام الثقة الذي كان يسود نظرتها إليهم حتّى السنوات الأخيرة.

وشأن الكنيسة شأن ماركو پُولُو Marco Polo الذي عاد من الصين وروى أشياء لا تصدَّق، ثمّ جاء رَحّالة آخر لا يعرفه وروى، بعد عودته من الصين أيضًا، الأشياء نفسها.

وإذ توضَع البارابسيكولوجيا في إطار تجاربنا الأرضيّة، تبيّن لنا بالتحديد تلك الأحداث التي تبدو لنا في الإيمان أمورًا لا تُصَدَّق: كالأشخاص الذين يقدرون - بدون استخدام جسدهم، أي

---

(٢) P. GIOVETTI, *I fenomeni del paranormale*, Ed. Paoline, Cinisello Balsamo, 1990, IV de la couverture.

مثل الله والملائكة والقدّيسين - على معرفة أمور تجري بعيدًا عنهم (بُعد النظر الخارق)، ويرون داخل الضمائر (توارد الخواطر)، ويعرفون أحيانًا حتّى المستقبل قبل حدوثه (المعرفة السَّبَّاقة)، ويؤثّرون في المادّة ويحوّلونها بدون اتّصال فيزيائيّ بها (تحريك الأجسام عن بعد)، ويذهبون، بدون جسدهم، إلى أماكن بعيدة، ويرون ما يجري فيها، ويتراءون ويُظهرون أنفسهم ويتكلّمون ويقومون بأفعال، ثمّ يختفون (التواجد المزدوج).

إنّ حياة الإيمان استسلامٌ لقوىً شبيهة بالظواهر غير الطبيعيّة التي درستها البارابسيكولوجيا، مع أنّ هذه - وهي أضعف - صادرة بوضوح عن بعض أرواح البشر الذين يعيشون في هذا العالم. أمّا تلك فإنّها صادرة عن الله أو المسيح أو العذراء أو القدّيسين أو الملائكة أو الشياطين أو الموتى. فلئن كانت هذه القوى، المبنيّة على وقائع يمكن التحقّق منها، تُثْبَت واقعيًّا في حياتنا الحاضرة وعند أشخاص يشبهوننا، فلا نرى كيف يمكن أن ننكر وجودها عند الكائنات العليا التي تحدَّث عنها المسيح.

ولئن كانت البارابسيكولوجيا في طور التحوُّل إلى علم، فهذا بفضل آلاف التجارب المخبريّة التي تُجْرى منذ الثلاثينات في جامعة ديوك دو دورهام Duke de Durham (في كارولَيْنا الشماليّة)، والتي يقوم بها في جامعات أُخرى باحثو مدرسة جوزف بانكس راين Joseph Banks Rhine، الذين أثبتوا وجود توارد الخواطر وبُعد النظر الخارق والمعرفة السبّاقة وتحريك الأجسام عن بُعد كظواهر تتجاوز الإدراك الحسّيّ. واعترف بصحّة هذه التجارب والاستنتاجات العديدُ من العلماء وأساتذة الجامعات الذين حضروا مؤتمر البارابسيكولوجيا الدوليّ في أوتريخت Utrecht

(هولندا)، عام ١٩٥٣. أمّا اليوم، فإنّ الظواهر غير الطبيعيّة تُدرَّس في ٢٦٠ جامعة ومركز ذي مستوى جامعيّ.

وتعترف جميع تيّارات البارابسيكولوجيا ومدارسها بأنّ الشخص الذي يقوم بالظواهر المذكورة أعلاه يرى ويعرف ويتصرَّف بمعزل عن الحواسّ وعن الجهاز الدماغيّ. فمعرفته ورؤيته روحيّتان تمامًا، أي أنّهما منفصلتان عن الأعضاء والجسم والمكان والزمان. ففي هذه الحالات، تخرج الروح البشريَّة من الأُطُر المكانيّة والزمانيّة التي تحدّ جسدنا ومعارفنا الحسِّيَّة الدماغيّة الاعتياديّة، وتدخل في البُعد الروحيّ الذي تتوافق فيه وقائع الماضي والمستقبل، وكأنّها تحدث الآن، كما تتوافق فيه الأحداث الذي تجري في أماكن مختلفة وكأنّها تجري في المكان نفسه.

إذن، وبحجّة أولي، يستطيع الله أن يرى ما يجري في أماكن مختلفة، ويعرف ما يفكِّر فيه البشر. كما يعرف المستقبل والواقع وإن لم يكن يملك جسدًا ولا أعضاء حسِّيَّة. وأعتقد أنّي استطعت أن أبرهن في أحد كتبي[٣]، باللجوء إلى مدرسة هُورْنِل هارت Hornell Hart ورُوبِرت كرُوكال Robert Crookall، على أنّ الوجود المزدوج، إذا ما دُعم بالتحقّق الموضوعيّ السليم، يُعتبَر دليلًا على وجود حياة أسمى من الحياة الأرضيّة. فإن كانت الروح، في الحياة الحاليّة، تستطيع أن تنفصل عن الجسد وترى وتتصرَّف خارجًا عنه – كما هو مرجّح – فينبغي الاعتقاد بأنّها تستطيع فعل ذلك أيضًا عندما يتوقَّف الجسد عن العمل. ونجد الدليل على ذلك في حالات ظهور بعض القدّيسين الموتى وشفائهم بعض الأمراض الخطيرة فوريًّا[٤].

---

(٣) G. MARTINETTI, *Le prove dell'Aldilà. Tracce e indizi di una vita ultraterrena*, Rizzoli, Milano, 1990.

(٤) المرجع السابق، ص ٣٠ وما يليها.

ومن بين العلماء والباحثين الذين قاموا بدراسات جادّة واكتشافات في مجال البارابسيكولوجيا، تتميَّز الأسماء التالية:

- ويليام كرُوكس William Crookes (١٨٢٩-١٩١٩)، الفيزيائيّ الإنكليزيّ الشهير.
- ڤلاديمير بِشْتِيرِيف Vladimir Bechterev (١٨٥٧-١٩٢٧)، أستاذ علم النفس في لينينغراد.
- ويليام ج. كراوْفورد William J. Crawford (١٨٦٥-١٩٢٠)، أستاذ الفيزياء في جامعة بِلفاست.
- السير ويليام ف. بارِيت Sir William F. Barrett (١٨٤٤-١٩٢٥)، أستاذ الفيزياء في الانترناشيونال كوليج، في لندن.
- غوستاف جُولِيه Gustave Geley (١٨٦٥-١٩٢٤)، وهو طبيب ومدير معهد الميتافيزيقا الدوليّ في باريس.
- ويليام ماكِنْزِي William Mackenzie (١٨٧٧-١٩٧٠)، أستاذ الفلسفة في جامعة جنيف.
- جون بانكس راين John Banks Rhine (١٨٩٥-١٩٨٧)، أستاذ البارابسيكولوجيا في جامعة دورهام (الولايات المتّحدة).
- السير أوليڤر لُودج Sir Oliver Lodge (١٨٥١-١٩٤٠)، أستاذ الفيزياء في جامعة بيرمنغهام (بريطانيا العظمى).
- شارل رِيشِيه Charles Richet (١٨٩٥-١٩٣٥)، الحائز جائزة نوبل في الطبّ والأستاذ في جامعة السوربون.
- هانْس بِينْدِر Hans Bender، أستاذ البارابسيكولوجيا في جامعة فريبورغ (ألمانيا).
- رُونِيه سُودر René Sudre، وهو طبيب ومدير معهد الميتافيزيقا الدوليّ في باريس.
- صامويل سُول Samuel Soal (١٨٨٩-١٩٦٦؟)، أستاذ الرياضيّات

في جامعة لندن.

- ويليام تينهايف William Tenhaeff (١٨٩٤-١٩٨٠ تقريبًا)، أستاذ الباراسيكولوجيا في جامعة أوترخت (هولندا).
- ر. هـ. ثاولِس R.H. Thouless (١٨٩٤-١٩٧٥)، أستاذ علم النفس في جامعة كامبردج.
- لِيُونيد ڤاسِيلييف Leonid Vasilliev (١٨٩١-١٩٦٦)، أستاذ الطبّ النفسيّ في لينينغراد.
- تشارلز ت. تارت Charles T. Tart، أستاذ علم النفس في جامعة كاليفورنيا.
- روبرت كروكال Robert Crookall، أستاذ علم الحيوان في جامعة أبِردين (بريطانيا العظمى).
- أندرياس ريش Andreas Resch، أستاذ الباراسيكولوجيا في جامعة اللاتران البابَاويّة في رومة.

اللّاشعور الروحيّ

كان القرنُ العشرون قرنَ اكتشاف اللّاشعور. فثمّة دوافع ورغبات لاشعوريّة ذات طبيعة جنسيّة (فرويد) واجتماعيّة (أدلر) وشخصيّة تدفع إلى تحقيق الذات (يونغ) وجَماعيّة (النموذج المثاليّ الذي اقترحه يونغ).

واكتُشِف بعد ذلك أنّ الحاجة إلى الله وقِيَمه الأخلاقيّة تمثّل لاشعورًا ذا طبيعة روحيّة (فرانكل وإريكسن ورُولُّو ماي) يدعم الإيمان الدينيّ حتّى عندما لا يستطيع المرء أن يشرح مبرِّرات قناعاته(٥).

(٥) V.E. FRANKL, *Dio nell'Inconscio*; E.H. ERIKSON, *Gioventù e crisi di identità*, cit.; R. May, *Man's Search for himself*, cit.; Id., *Amour et Volonté*, cit.

وليُسْمَحْ لي هنا بأن أطرح بعض الفرضيّات التي لا تزال تحتاج إلى إثبات، والتي تشرح، في رأيي، الوقائع بدقّة مُذهلة. فأنا أعرف أنّ التوفيق بين اللاهوت والتحليل النفسيّ والبارابسيكولوجيا يستقبحه بعض الخبراء أو هواة المجالَين الأوّلَين الذين لا يعرفون المجال الثالث إلّا معرفة سطحيّة تقتصر على تشويهاته المتمثِّلة في الشعوذة واستحضار الأرواح. ولكن بعد أن درستُ خلال خمسة عشر عامًا تقريبًا تلك البارابسيكولوجيا التي تُشير إليها الأبحاث الجادّة، اقتنعت بأنّها ستُسهِم، مع غيرها من العلوم، في فتح طريق جديد أمام الإيمان العاقل.

إذا ما درسنا ظواهر البارابسيكولوجيا، تبيَّن لنا بوضوح وجود لاشعور يختصّ بالظواهر غير الطبيعيّة. وفي البارابسيكولوجيا العلميّة، يُطْلَق عليه اسم «ما تحت الوعي» (مِيِرز Myers وتِيريل Tyrrell)، أو «المخزن الكونيّ» (ويليام جيمْس William James)، أو «اللاشعور العالميّ» (إدوارد فون هارتمان Edward von Hartmann وغيره). ويبدو أنّ اللاشعور هذا هو الروح البشريّة نفسها، التي، إذ تعي نفسها، تُدرك أنّها مستقلّة عن المكان والزمان ومتّصلة بأرواح أُخرى، بشريَّة أو تفوق البشر. وما دامت القوى الدماغيّة (أي الحواسّ والعقل، إلخ) تعمل، تبقى الروح نائمة، ولكن عندما تتوقَّف هذه القوى عن العمل، كما في حالات التنويم المغناطيسيّ والرعشات، يتمكّن نشاط اللاشعور المتعلّق بالظواهر غير الطبيعيّة من ملامسة الوعي، ويُفْضي إلى ظواهر توارد الخواطر وبُعد النظر الخارق والمعرفة السبّاقة وغيرها[٦].

---

(٦) W. JAMES, *Human Immortality*, nouv. éd., New-York, 1977; F.W.H. MYERS, *Human Personality and its survival of bodily death*, nouv. éd., =New-York, 1954; G. TYRREL, *Science and psychical phaenomena*,

فيبدو أنّ اللاشعور الخاصّ بالظواهر غير الطبيعيّة يتمثّل ببساطة في الروح البشريّة، وبالتالي حتّى في اللاشعور الروحيّ الذي يمنح الإنسان الإيمان. ويبدو أنّ الفرق الوحيد بينهما يكمن في الغرض الذي تستهدفه الروح. وبالإيمان الذي ينمو في الظواهر الصوفيّة، يعرف الإنسانُ اللهَ واتّصالاته، في حين يلجأ إلى الاحساسات السَّبَّاقة التي تبلغ ذروتها في الظواهر غير الطبيعيّة ليعرف، بدون استخدام الحواسّ، أفكار الآخرين أو بعض أحداث هذا العالم البعيدة في المكان والزمان.

وندرك بذلك كيف أنّ الإيمان له لحظات مظلمة ولحظات أُخرى أكثر إشراقًا، وإن لم نقم بأيٍّ محاكمة عقليّة صريحة. وفي هذه اللحظات تحدث الاستنارات والهدايات والرؤيا الذهنيّة التي - شأنها شأن الظواهر غير الطبيعيّة - لا يمكننا أن نتوقّعها ولا أن نُحدثَها عندما نريد.

وهناك ظروف مواتية وغيرها معاكسة للإيمان وللقوى غير الطبيعيّة. فمن الأمور المواتية للاثنين الصمت والتأمُّل والابتعاد عن الحياة الصاخبة والحواسّ والغرائز.

ومثلما هناك أشخاص يتمتّعون بقوى غير طبيعيّة أكثر من غيرهم (ومع ذلك، ما من أحدٍ مجرَّدٍ كليًّا من هذه القوى، كما تبيِّن تجارب بانكس راين في جامعة دورهام)، هناك كذلك أشخاص

London, 1938; G. GELEY, *De l'inconscient au conscient*, Paris,= 1919; H. BENDER, *Telepatia, chiaroveggenza e telecinesi*, Roma, 1981. Cf la Psicologia Transpersonale di H. Maslow, R. Assagioli, R. Walsh, K. Wilber. Aa. Vv., *La parapsicologia e i suoi fenomeni*, Ed. Mediterranee, Roma, 1988; A.L. WIESINGER, *I fenomeni occulti alla luce della teologia*, trad. it., Milano, 1958. R. THOREL, *Caterina da Siena tra paranormale e soprannaturale*, dans *Nuovi studi cateriniani*, 1987, vol. 3,103-126.

يرون أنّ الإيمان أسهل بطبيعته، مع أنّ أقلّهم إيمانًا يملك نورًا خافتًا يمكن أن يقوّيه.

وإلى جانب ما يجري في اللاشعور المتعلّق بالظواهر غير الطبيعيّة، يمكن أن نحصل في الإيمان على أقصى درجة من المعرفة عن طريق الرؤيا الذهنيّة التي يصحبها توقُّفٌ في نشاط القوى الدماغيّة، التي تسمّى نشوةً في ما يختصّ بشؤون الله ورعشة في ما يختصّ بشؤون البشر.

ويصدر كلٌّ من الإيمان الشديد والقوى غير الطبيعيّة عن يقظة اللاشعور الروحيّ أو الروح. وهذا ما يفسّر الظاهرة المتمثّلة في أنّ عددًا كبيرًا من القدّيسين يملكون قوى غير طبيعيّة (كقراءة الأفكار، وبُعد النظر الخارق، والتنبُّؤ بالمستقبل، والتواجد المزدوج)، بالإضافة إلى الملكات الصوفيّة.

ولمّا كان الإيمان، ولا سيّما الملكات الصوفيّة، تمثّل اتّصالات بالله، فإنّها تستلزم نعمةً خاصّةً ودعوة من الله، وهذه الشروط لا تتوافر في الظواهر غير الطبيعيّة.

ويبدو أنّ الإيمان العفويّ ناتج عن إدراك بعض الأمور إدراكًا ضعيفًا وغامضًا ومختلطًا، تلك الأمور التي تُمَكِّنُنا الرؤيا الذهنيّة والصوفيّة من رؤيتها بوضوح ويقين مطلق. والأمر مشابه في مجال الظواهر غير الطبيعيّة، حيث يمثّل الإحساس السبّاق بالأحداث البعيدة أو المستقبليّة إدراكًا ضعيفًا وغامضًا لما يبيّنه توارد الخواطر الواضح أو المعرفة السبّاقة أو بُعد النظر الخارق تبيانًا لا يَدَع مجالًا للشكّ.

إنّ أكبر اختلاف بين اللاشعور الروحيّ القائم على الإيمان واللاشعور القائم على الظواهر غير الطبيعيّة يكمن خاصّةً في أنّ

الأوّل يسعى إلى الله ويقتضي بالتالي انفتاحًا عليه (أي تواضعًا وثقة) وسعيًا إلى الفضائل الأخلاقيّة التي لا يستلزمها الثاني، إذ إنّه موجَّه نحو الوقائع الأرضيّة.

وتشرح فرضيّتنا كذلك كيف أنّ الإيمان العفويّ (لا الإيمان العقلانيّ) يُفضي إلى الشعور بالاطمئنان والقلق في آن معًا. أمّا اللاشعور الروحيّ فيبلغ، عن طريق الحدس الإيمانيّ، جزءًا من نواة الحقيقة («أشعر بأنّه لا بدّ من وجود أحد أسمى منّا»، «ولديَّ انطباع بأنّ المسيحيّة دين صحيح»). وعندما يرى هذه النواة، يشعر بالطمأنينة. ولكن بعد ذلك، يتوقّف نشاط الحدس. وبما أنّ المرء لا يعرف أسباب إيمانه معرفةً مفصّلة، فإنّ الجزء العقلانيّ فيه، إذ يبقى وحيدًا، يواجه صعوبات ويعجز عن تبرير ما يؤمن به أمام نفسه وأمام الآخرين.

وينتج عن ذلك شعور بعدم الرضى وبالضياع بسبب التفريق بين قوّتين في الكيان البشريّ تسمحان، على ما يبدو، برؤية أشياء مختلفة ومتباينة تمامًا. وبذلك يكون المرء كمَن ينظر بعين واحدة فيرى أشياء معيّنة، وينظر بالعين الأخرى فيرى أشياء مختلفة تمامًا.

إذن يمنح الإيمان العقلانيّ سلامًا أعظم وشعورًا أعمق بالأمان، إذ يترك العينين الاثنتين مفتوحتين، ويجمع بين وجهتي لنظر، ويُتيح بذلك فرصة الرؤية الثلاثيّة الأبعاد.

مؤشّرٌ جادٌّ على الحياة بعد الموت

في الدماغ والجهاز العصبيّ البشريّ، يعمل النشاط النفسيّ والنشاط الجسديّ على نحوٍ متوازٍ، وتربطهما تبعيّة متبادلة. وعندما يُصاب الدماغ برضوض أو آفات، أو عندما يعاني شيخوخة الخلايا

وتصلُّب الشرايين، فإنّ الحواسّ والذاكرة والخيال تتأثّر ولا تعود قادرة على العمل بانتظام. وعندما نشفي الدماغ قدر الإمكان بالعلاجات المناسبة، فإنّ الملكات المذكورة أعلاه تعود إلى نشاطها الوظيفيّ.

ويستنتج المادّيّون من ذلك أنّه عندما يقضي الموت على الدماغ والجهاز العصبيّ، تزول الروح (أو الذكاء أو الفكر أو النفس، فلنسمِّها كما نشاء).

أمّا اليوم، وعلى ضوء تطوُّر درس الظواهر غير الطبيعيّة، فإنّ إثبات استقلال جزء من الروح - وهو اللاشعور الروحيّ - عن الجهاز الدماغيّ يصبح في متناول الجميع. كما أنّ الأسباب الفلسفيّة التي تدعم فكرة استقلال الروح وخلودها، والتي يتبنّاها العديد من الفلاسفة الروحانيّين المرموقين، المسيحيّين منهم وغير المسيحيّين، لا تزال صالحة. ولكنّ الظواهر التي أُثبِتَت من جوانب عدّة، والتي تقوم على توارد الخواطر وبُعد النظر الخارق والتواجد المزدوج، تقدِّم دليلًا تجريبيًّا جديدًا على أنّ الروح قادرة على الفهم والرؤية بمعزل عن الأعضاء الحسِّيَّة وعن الدماغ، ومن المرجَّح أنّها قادرة حتّى على النشاط خارج الجسد، وذلك في حالة التواجد المزدوج(٧).

ومن المنطقيّ أن يتوقَّف عمل الملكات المتعلّقة بنشاط الدماغ (كالحواسّ والخيال والذاكرة الدماغيّة والعقل) عندما يتوقَّف الدماغ عن العمل بسبب حدوث الموت الفيزيائيّ. ولكنّ نشاط الروح لا يتوقَّف بالسبب نفسه، إذ إنّ الروح ليست تابعة للدماغ. وفضلًا عن

---

(٧) B. WOLMAN, *L'universo della parapsicologia*, trad. it., Milano, 1979.

ذلك، عندما تعمل القوى الدماغيّة، تنام الروح بالضرورة ولا تعود تدرك إلّا إحساساتٍ سبّاقة وبصيصَ نور وحدسًا دينيًّا وأخلاقيًّا واجتماعيًّا وفلسفيًّا وجماليًّا غامضًا. ولا تستعيد الروح شيئًا من قوّتها إلّا عندما تنخفض الأنشطة الدماغيّة. وعندما تتوقّف هذه الأنشطة عن العمل، أي في حالة النشوة والحالات المشابهة، تصبح الروح واعية وترى وتعرف وتنشِّط، وكلّ هذا بمعزل عن الحواسّ والدماغ.

وسواءٌ في الظواهر الصوفيّة أم في الظواهر غير الطبيعيّة، يمكن أن نلحظ أمرًا ثابتًا، وهو التالي: **تزداد الملكات الخارجة عن الحواسّ نشاطًا ووعيًا كلّما ضعف نشاط الملكات الحسّيَّة أو توقّف.**

وينتج عن ذلك أنّه، عندما يتوقّف نهائيًّا نشاط الدماغ وإمكانيّة عمل الملكات الدماغيّة بسبب الموت، الذي يمثّل الانتقال إلى حياة الروح الفعليّة، تَجِدُ الملكاتُ الروحيّة (التي تصبح من الظواهر غير الطبيعيّة) ظروفًا مواتية لممارسة نشاطها الطبيعيّ بدون أيّ عوائق(٨).

ولو لم تكن الباراسيكولوجيا العلميّة موجودة، لاحتاج المرء إلى إيمان عظيم للاعتقاد بأنّ الروح تبقى حيّة بدون جسد. فمع الباراسيكولوجيا يصبح من الأسهل أن نؤمن بالحياة خارج الجسد.

---

(٨) Aa. Vv., *Parapsicologia e sopravvivenza*, par P. Giodetti, Ed. Mediterranee, Roma, 1984; MARTINETTI, *La vita fuori del corpo*, Elle Di Ci, Leumann (Torino), 1989. Cf aussi J. VERNETTE, *Occultismo, magia, sortilegio*, trad, it., Elle Di Ci, Leumann, 1990; Id., *Reincarnazione, risurrezione, comunicare con l'Aldilà*, trad. it., ibid., 1991.

والإيمان ضروريّ كذلك، ولكن من أجل أن نتبيَّن الهدف الرائع الذي يُبلَغ خارج الجسد.

٢٦ - الظواهر الوسيطيّة والإيمان

فرضيّة استحضار الأرواح والفرضيّة النفسيّة

تمثّل الظواهر الوسيطيّة (استحضار الأرواح عن طريق وسيط)، الواسعة الانتشار اليوم، تأكيدًا جوهريًّا جديدًا يدعو إلى الإيمان. فلا شكّ أنّها تصديق أو شهادة قادمة من شاطئ مجهول، أي من عالم الآخرة اللامرئيّ.

وإنّ معظم الأشخاص الذين يسعون إلى التواصل الوسيطيّ لهم دوافعهم. ولعلّ هذه الدوافع تتمثّل في الألم وعدم القدرة على القبول بفقدان شخص عزيز، أو في الفضول الذي يدفع إلى الاتّصال بشيء غامض لا تفسير له، أو حتّى - مَن يعلم؟ - بـ «الأرواح».

وأكثر الطرق شيوعًا هي «لعبة صحن الفنجان» و«الكتابة الآليّة». وفي الحالتين من الممكن الحصول على رسائل غامضة تَنِمُّ عن توارد خواطر أو معرفة سبّاقة. وثمّة حالة أقلّ شيوعًا من هاتين الحالتين، وهي «الوساطة الكبيرة» التي تظهر فيها روح أو عدّة أرواح تسيطر على جسد الوسيط وتتصرّف من خلاله.

وفي هذه الحالات، يتكلّم الوسيط بصوت غير صوته، ويكتب بخطّ يطابق - وهذا أمرٌ يمكن التحقّق منه - خطّ الميت الذي يُعتقد بأنّه يتّصل به. كما يرسم ويلوّن بطريقة رسّامي عصورٍ ماضية،

ويعزف على آلات موسيقيّة لا يعرف العزف عليها في حالة اليقظة، ويتكلّم بلغات أجنبيّة لا يعرفها. ويمكن أن يُحدِث الميت المزعوم ضجيجًا أو أصواتًا، أو يتكلّم دون أن يُرى من مكان فارغ، أو يُوجِد أشياء أو يمرّرها عبر الجدران، أو قد يظهر بصورة مرئيّة.

وهناك تيّاران من الفرضيّات التي يقترحها المتخصّصون من أجل تفسير هذه الظواهر: أوّلهما التيّار **النفسيّ**، الذي ينسبها إلى القدرات غير الطبيعيّة التي يملكها الوسيط والأشخاص الحاضرون في الجلسة، وثانيهما تيّار **استحضار الأرواح**، الذي يعتبرها صادرة عن أرواح الموتى، ولا سيّما في الحالات التي يتعذّر فيها على النظريّة النفسيّة تفسير هذه الظواهر.

ويتبنّى معظم علماء النفس التيّار الأوّل، إذ إنّهم يلتزمون بالمبدأ العلميّ القائم على شرح الظواهر أيًّا كانت بالرجوع إلى أسباب هذا العالم الطبيعيّة.

ومن بين الأقلّيّة التي تَبنَّت، في بعض الحالات، فرضيّة استحضار الأرواح، نجد أيضًا شخصيّات مرموقة مثل تينهايف Tenhaeff وثاولِس Thouless ودُوكاسّ، بالإضافة إلى أسماء أخرى مشهورة من القرن الماضي والنصف الأوّل من القرن الحالي.

وعلى كلّ حال، يمكننا أن نلاحظ أنّ كلًّا من الفرضيّتين، النفسيّة والاستحضاريّة، يؤكّد أساسيًّا ما يمثّل في نظر الإنسان المعاصر الصعوبة الكبرى ونواة الإيمان: وهو وجود العالم اللامرئيّ. ويرى بعضهم أنّ الروح البشريّة قادرة على المعرفة بمعزل عن الحواسّ، وعلى الخروج عن أبعاد المكان والزمان التي تمثّل حدود المادّة. ويرى غيرهم أنّ أرواح الموتى تملك قدرات شبيهة بتلك، بل تتجاوزها، كما أنّها قادرة على الاتّصال بروحنا.

أخطار بالغة يتعرَّض لها مَن يسعى إلى الظواهر الوسيطيّة

في الصوفيّة المسيحيّة، يمثّل السعي إلى الظواهر الصوفيّة (الرؤى والمعجزات والتواجد المزدوج، إلخ) تعارضًا مع الروحانيّة الحقيقيّة، إذ لا يمكن أن نقبل بتلك الظواهر إلّا إذا حدثت عفويًا وأخضعناها للمراقبة الشديدة والطويلة من أجل تفادي خطر الوهم.

ومَن يسعى إلى هذه الظواهر الوسيطيّة بدافع الفضول، أو رغبةً منه في القيام بتجارب جديدة، أو في تهدئة الاضطراب الناتج عن فقدان شخص عزيز، يتعرَّض لأخطار جسيمة. أوّل هذه الأخطار هو الوهم، ففي معظم الجلسات الوسيطيّة، ليست الرسائل المزعومة سوى انعكاسات لروح الوسيط التي تلتقط محتوى ذكريات المشاركين في الجلسة.

ويتمثَّل الخطر الكبير الثاني في الانقسام النفسيّ الذي تظهر فيه الشخصيّات الثانويّة المزعومة، بالإضافة إلى فقدان الاتّصال بالواقع والتبعيّة لـ «غزو» بعض الأرواح غير المرغوب فيها[١].

وكتب رُونيه غونُون René Guenon يقول: «هناك أمور لا يمكن أن نلمسها إلّا وتؤذينا، عندما لا تكون هناك التوجيهات التعليميَّة الضروريّة لحمايتنا من الضلال؛ ومهما كرّرنا هذا الكلام، سنبقى بحاجة إلى تكراره، لا سيّما وأنّ الضلال في هذا المجال (مجال الظواهر الوسيطيّة) هو أكثر النتائج شيوعًا وضررًا على القوى التي تقوم عليها التجربة. وخير دليل على ذلك هو عدد الناس الذين يفقدون عقلهم من جرّاء ذلك»[٢].

---

(١) E. POMPAS, *Vivere. E poi?* Rizzoli, Milano, 1989, pp. 95, 97.

(٢) R. GUENON, *L'erreur spirite*, Ed. Didier et Richard, Paris -=

ومن أجل إجراء اتّصال حقيقيّ وعميق بشخص عزيز انتقل إلى البعد الآخر، من الأنفع بكثير أن يعمّق المرء حياته الروحيّة. فروح كلّ إنسان متّحد بالله ترتبط ارتباطًا وثيقًا بسائر الأرواح المنتمية إليه، وحتّى في نظرنا نحن المسيحيّين الذين لا يؤمنون بوحدة الوجود. وهناك في الأسرة التي ننتمي إليها اتّحاد يسمّى بـ «اتّحاد القدّيسين»، وهو دفق مستمرّ من الأفكار والمشاعر والفضائل والقِيَم والرسائل السرّيّة التي تنتقل خاصّةً بين الأرواح المتشابهة والتي تربطها علاقة صداقة خاصّة في الحياة الدنيا. ويقوى هذا الاتّحاد وذاك الدفق كلّما زاد تأمّلنا وصلاتنا القلبيّة وتطوّرت حياتنا الروحيّة. يقول المسيح: «أنا الكرمة وأنتم الأغصان، أُثبُتوا فيَّ وأنا أثبتُ فيكم». وتعطينا هذه الظواهر وغيرها فكرةً عن الطريقة الغامضة، ولكن الحقيقة، للاتّصال بأمواتنا عن طريق الله.

وتحذِّرنا الكنيسة من خطر تجاوز هذا الاتّحاد الحميم والسعي، من خلال الجلسات الوسيطيّة، إلى المعارف التي تكشفها لنا بعض الأرواح المزعومة عن الآخرة والله والتقمُّص. وغالبًا ما تكون هذه المعلومات من آراء الوسيط. ولكن حتّى إذا قبلنا بأنّه، في بعض الحالات، كما هو مُرجَّح، هناك اتّصال مع روح، فكيف يمكننا التثبُّت من أنّ الأمر ليس خدعة تنقل إلينا أنباء صحيحة وقابلة للإثبات، من أجل إبعادنا عن طريق المسيح وإدخالنا في مجالات لا يمكن السيطرة عليها؟

وهناك أُناس يتّخذون الاتّصالات الوسيطيّة دينًا لهم، مع أنّهم لا يؤمنون كثيرًا بالمسيح الذي يقدِّم العديد من ضمانات المصداقيّة. وشأن هؤلاء شأن إنسان يضع قناعًا على عينيه، ويُدخِل إلى بيته

Grenoble, 1930, p. 84; E. POMPAS, *op. cit*, p. 98.=

أُناسًا لا يعرفهم، ويضع حياته بين أيديهم، ويتركهم يقودونه، فلا عجب عندئذ أن يندم هؤلاء ندمًا شديدًا على سذاجتهم غير المعقولة.

٢٧ - المعجزات

أين الحدّ الفاصل بين المعجزة والبارابسيكولوجيا؟

نعلم أنّ في «الدعوات الوطنيّة» التي تقيمها جماعات كاثوليكيّة تابعة لجمعيّة «التجديد في الروح» تحدث عشراتٌ من حالات الشفاء المفاجئ، ولا سيّما أثناء الصلاة العفويّة التي يديرها الأب إيميليان تارديف Emilien Tardif. وعندما سأل أحدُ صحفيّي **إيل جيورناليه** ***Il Giornale*** الأب تارديف (في ١١ أيّار (مايو) ١٩٨٨) عن كيفيّة حدوث المعجزات في اجتماعات الصلاة، أجاب قائلًا: «هذه ليست معجزات، فلو شُفِيَتْ أمراضٌ يعتبرها العلم غير قابلة للشفاء، لكانت هذه من المعجزات. بل ما يحدث في معظم الحالات يُعتَبَر شفاءً».

ويكتب اللاهوتيّ فرانكو أردُوسُّو Franco Ardusso قائلًا: إنّ في حالات المرض **العضال** الذي يُشفى منه **على الفور**، «يكتفي العلم بالتصريح هل هذا الحدث هو قابل للتفسير على الأقلّ من خلال المعارف العلميّة التخصّصيّة» (أي هل المرض فعلًا غير قابل للشفاء، وهل قد شُفِيَ منه حقًّا). «أمّا الكنيسة فهي التي تبتّ في أمر المعجزة، بعد أن تسمع رأي العلماء وتلاحظ وجود **الإشارة الدينيّة** التي يضمّها الحدث العجيب»[١].

---

(١) F. ARDUSSO, «Miracoli e guarigioni, quale confine?», dans *Jésus*, octobre 1988, p. 49.

ولكن ما الذي يمكن أن يصرِّح به العلم عن يقين؟ أليس من حقّنا أن نفترض وجود قوانين طبيعيّة لم يكتشفها العلم بعد أو تحتاج إلى إعادة نظر؟ ويُجيب أردوسُّو قائلًا: «تفسّر جدّيّة هذه المسألة الحذر البالغ الذي يُحكَم به على الوقائع، في لورد، من أجل الاعتراف بالمعجزات». وبالطريقة نفسها تعالج مبرِّرات تطويب القدّيسين. «ومع ذلك، يبدو أنّ الطبّ - وإن كان يسير في درب الاكتشافات المستمرّة - يعترف بسهولة بأنّ هناك حدًّا لا يمكنه أن يتجاوزه. وعلى حدّ قول الطبيب ب. داليو P. Daglio[٢] (وهو من مدينة تُورينو)، يتمثّل هذا الحدّ في «استحالة إعادة بنى الخلايا والنُّسُج إلى حالتها الطبيعيّة بعد أن تكون قد بلغت حَدَّ اللاعودة». ويتابع الطبيب نفسه قائلًا: «الأمراض التي يُشفى منها حالات المعجزات المعترَف بها هي دائمًا من الأمراض التي لا يُشفى منها من البداية أو التي بلغت حَدَّ اللاعودة، أي حَدَّ المرض العُضال. وكان بعض المرضى قد بلغوا نهاية الحياة، إذ لم يكن يبقى لهم سوى بضعة ساعات يعيشونها».

وفي كتاب عن المعجزات صدر حديثًا، يلفت رُونيه لاتُورِيل الأنظار إلى ما يلي: «في الواقع، لا نعطي طبيعة المعجزة الحقيقيّة حقَّها إلّا إذا اعتبرناها «حدثًا خارقًا» و«إشارةً» في آن معًا». كما يقول: «المعجزة حدثٌ غريب له «مغزاه»، فهو إشارة تدلّ على حبّ الله المتجلّي في رحمته وغفرانه».

إنّها إشارة ترمي إلى تثبيت العقيدة الدينيّة التي تؤدّي بالإنسان إلى الخلاص. ويقول لاتوريل أيضًا: «المعجزة «أسمى» من الطبيعة

---

(٢) P. DAGLIO, *La medicina di fronte al miracolo*, Alzani, Pinerolo 1977, p. 12.

أكثر ممّا هي «معارضة» للطبيعة: إنّها عملٌ حكيمٌ، ولكن على صعيد الله»[٣].

إنّ حالات الشفاء الفوريّ من أمراض عضويّة خطيرة (أي ليست وظيفيّة ولا من منشأ عصبيّ) ولا شفاء لها لا تنتمي - لا في رأيي ولا في رأي أعظم الخبراء - إلى مجال البارابسيكولوجيا. فهي لا تحدث في الأوساط المدنيّة، بل في الأوساط الدينيّة فقط. وهناك ما يبرِّر فعلًا اعتبارها أحداثًا تتجاوز قوانين الطبيعة تجاوزًا واضحًا. لذلك فمن المعقول أن تُنسب إلى الله، الذي يرمي من خلالها إلى تقديم أساس خارجيّ وموضوعيّ يرتكز عليه الإيمان الدينيّ.

أمّا جيوڤانّي بلانْدِينُو G. Blandino، وهو خبير معروف في المسائل العلميّة واللاهوتيّة، فيقول: «المعجزة حدث قابل للمراقبة ويختلف تمامًا عن ظواهر التجربة العاديّة (الدنيويّة)، ولا يحدث إلّا في الإطار الدينيّ. ومن المشروع أن نعتبر المعجزة استثناءً لقوانين الطبيعة، يحدث نتيجةً لتدخُّل الله الذي يرمي بالدرجة الأُولى إلى دعوة الإنسان إلى الخلاص بالمسيح... فقبل كلّ شيء، إن كان الله موجودًا، وإن كان حكيمًا وحرًّا ومحبًّا، فلا تناقض ولا مانع في أن يتدخَّل أحيانًا - فضلًا عن تسييره العالم على نحو طبيعيّ - تدخُّلًا عجيبًا ومباشرًا في الأحداث، لأنّه بالتحديد يحبّ مخلوقاته.

«يحدّد العلم التجريبيّ القوانين الطبيعيّة استنادًا إلى الاحتمالات والتقريب، ولكن بما أنّه ليس هناك حجّة كافية لإنكار وجود الله، فإنّ العلم عاجز عن إيجاد حجّة كافية لإنكار

---

(٣) R. LATOURELLE, *Miracles de Jésus et Théologie du miracle*, Bellarmin-Cerf, Montréal-Paris, 1986, pp. 28 et 361.

احتمال تدخُّل الله في الأحداث من أجل تغييرها. وسيكون هناك دائمًا علماء ماديّون يُنكرون هذا الأمر... ولكن إذا قبلوا بفحص الوقائع بعناية، فسيجدون أنفسهم في موقف حرج»(٤).

وينوّه المؤلِّف بأنّه في حالة المعجزات يحدث انفصال تامّ عن الظواهر التي نجدها في التجربة العاديّة، وبأنّه إذا اعتبرناها نتيجة لتصادف عوامل نجهلها، فلا بدّ أن نكون قد لاحظنا، عبر التاريخ، التطوّرات التدريجيّة التي تطرأ على هذه الظواهر، ولكن لم يحصل أيّ شيء من هذا. ثمّ يُشير إلى أنّ الإيحاء قد يكون له أثر بالغ في الأمراض الوظيفيّة ذات المنشأ العصبيّ، ولكنّه لا يستطيع مطلقًا أن يُرَقِّمَ على الفور النُّسُج التي أُتلِفَتْ إتلافًا نهائيًّا من جَرّاء مرضٍ عضويّ خطير.

ويختم المؤلِّف دراسته قائلًا: «لا تزال المعجزات تحدث في الكنيسة حتّى في يومنا هذا. وهذا أمر بالغ الأهمِّيَّة لأنّ للمعجزات اليوم دورًا توثيقيًّا لم يكن لها قبل ألفَي عام. ويرجع السبب في ذلك إلى تقدُّم المعرفة العلميّة، أو إلى أنّنا نعرف تمامًا قدرات الأطبّاء والعلماء في عصرنا الحالي... وتمثِّل المعجزات المعاصرة ضمانة تكفل صحّة المعجزات الإنجيليّة».

إليكم بعض الأمثلة المأخوذة من محفوظات محاضر تطويب القدّيسين الحديثي العهد:

أ - القدّيس مكسيمليان كُولْبِه: فرانتشِيسكُو لوتْشِياني رانِييه Francesco Luciani Ranier، عمره ٦٦ سنة، محتضر بسبب غنغرينة في الساق اليمنى ناتجة عن التهاب شريانيّ باطنيّ أدّى

(٤) G. BLANDINO, «Miracolo e leggi della natura», in *Civ. Catt.*, 1982, II, pp. 224sq.

إلى انسداد في مواضع متعدِّدة. تمّ شفاؤه الكامل فورًا في ٥ آب (أغسطس) عام ١٩٥٠ في مشفى بورتو س. جيورجيو (أنْكُونا)، وكان شاهدًا على ذلك ثمانيةُ أطبّاء منهم البروفسور فروغوني Frugoni(٥).

ب - القدّيس غسپار ديل بُوفالو Saint Gaspar del Bufalo: أورسولا بونو Orsola Bono، أرملة بُونتِيكُورفُو Pontecorvo، البالغة من العمر ٥٥ عامًا، شُفِيَت فورًا شفاءً كاملًا من ورم صدريّ خبيث، مع زوال الورم الصلب الذي كان موجودًا في الصدر. وحدث ذلك بعد ظهور القدّيس الميت عليها والتحدُّث معها، في سيدزي (لاتينا) ليلة ٢٣-٢٤ أيّار (مايو) عام ١٩٣٤. وشهد على ذلك ١١ طبيبًا(٦).

ج - القدّيس أنطونيو م. پُوتشي Pucci: كارلا پوتشي إِن كُوپِيسْتِي Carla Pucci in Cupisti، ٦٠ عامًا، شُفِيَت فورًا وتمامًا في فياريجيو، في ٢٥ نيسان (أبريل) عام ١٩٥٣، من تَشَوُّهٍ مفصليّ في الورك الأيمن كان يمنعها من المشي. الشهود: ٦ أطبّاء من بينهم البروفسور ڤالْدُوني Valdoni(٧).

د - القدّيس أنطونيو م. پُوتْشِي: خُوسِيه بارّيينتُس غُوميث José Barrientos Gomez، ١٦ عامًا، دهسته شاحنة وزنها طنّان، وأدّى ذلك إلى إصابات بالغة في الصدر والحوض. وبعد أن كان محتضرًا، شُفِيَ تمامًا ليلة ١٤-١٥ آذار (مارس) عام ١٩٥٣، في مشفى كُويهايكه Coihaique (تشيلي). وشهد أربعة

---

(٥) Congreg. Cause dei Santi, Positio super miraculis S. Max. Kolbe, F. 13.

(٦) Positio s.m. S. Gaspare Del Bufalo, E. 4.

(٧) Positio s.m. Sant' Antonio M. Pucci, F. 16.

أشخاص على ذلك، منهم طبيبان(٨).

هـ - القدّيس جُون أُوجِيلفِي Saint John Ogilvie: جون فاغان John Fagan، ٥١ عامًا، شُفِيَ فورًا وتمامًا في ٦ آذار (مارس) عام ١٩٦٧، في غلاسغو (سكوتلاندا)، من ورم خبيث وعضال في المعدة والأمعاء. وشهد على ذلك عدد من الأطبّاء(٩).

و - من بين حالات الشفاء الكثيرة الأخرى، ومنهم حتّى أطفال في الأشهر الأُولى من العمر، أذكر حالةً واحدة حدثت بشفاعة البابا يوحنّا الثالث والعشرين. جرى ذلك في ٢٥ آذار (مارس) عام ١٩٦٦ - وكان البابا متوفّيًا منذ ثلاث سنوات - مع راهبة لا تزال (عام ١٩٩٠) تعمل في مشفى بِينِيفِنْتُو Benevento المدنيّ. كانت الأخت كاترينا كاپيتاني C. Capitani مريضة ومشارفة على الموت في مشفى البحريّة العسكريّ في نابولي. وكانت مصابة بالتهاب مَعِديّ نزفيّ مصحوب بقروح ودوالٍ، يُضافُ إلى ذلك التهاب الصِّفاق وبَضْعُ الصُّلْبَة واضطرابات أُخرى رادفة. وظهر عليها البابا يوحنّا الثالث والعشرون، وتكلَّم معها، ومنذ تلك اللحظة شُفِيَتْ الأخت كاترينا شفاءً تامًّا. وأكَّد الأطبّاء المعالجون، ومنهم رئيس الأطبّاء، البروفسور جيوسِيبِّه زَنِّيني Giuseppe Zannini، والبروفسورات وبِيليه Bile وجِيسُونِّي Gisonni وڤينجياني Vingiani وأرغُو Argo، أكَّدوا أنّ هذا الشفاء الفوريّ يتجاوز بأشواط جميع الفرضيّات المتعلِّقة بالإيحاء أو بالحركة الطبيعيّة(١٠).

---

(٨) المرجع نفسه.

(٩) *Acta Apostolicae Sedis*, Nov. 1975, p. 359.

(١٠) Revue missionnaire *Il De Jacobis*, Naples, décembre 1966, «Un=

ز - الطوباويّة دِينا بِيلانْجِيه Dina Bélanger، المُطوَّبة عام ١٩٩٣:
جُود شِياسُّون Jude Chiasson، وَلد عمره سبعة أشهر، شُفِيَ في ٤ أيلول (سبتمبر) ١٩٣٩، في لامِيك Laméque (كندا)، من انتفاخ مائيّ خطير في الرأس لا أمل في شفائه.

المعجزات كشعاعات بعيدة في الليل. وهي كافية، في نظر مَن يبحث عن الحقيقة، لتبيِّن له الدرب.

ساي بابا Sai Baba ومعجزاته ومعجزات المسيح

كتب أحد القرّاء إلى مجلّة فامِيليا كريستيانا *Famiglia Cristiana* يقول: «حضرت منذ مدّة برنامجًا تلفزيونيًّا عن ساي بابا، الزعيم الروحيّ الهنديّ المعروف الذي يُجري المعجزات... فما رأي الكنيسة في ذلك وما المعنى الذي تنسبه إلى هذه المعجزات، علمًا بأنّ معجزات المسيح ساعدت في إثبات ألوهيّته؟ لعلّنا أمام مسيح مزيَّف يجري - كما هو مذكور في الإنجيل - معجزات كبيرة ليزرع الفوضى بين المختارين»[١١].

ويُجيب اللاهوتيّ پيِيتْرُو رُوسّانُو Pietro Rossano على هذا السؤال، فيبدأ بنبذة تاريخيّة عن ساي بابا، الذي وُلد عام ١٩٢٦ في قرية بوتابارتي، بالقرب من بِنْغالُور، في جنوب الهند، وسُمّي ساتِيا نارايانا. وفي الرابعة عشرة من عمره، بدأ يقوم بأشياء مُذهلة كأن يكثِّر السكّر المُصَفّى والأزهار، وصرَّح بأنّه يحمل بالتقمّص روح ساي بابا، وهو رجل تقيّ متجوّل وموهوب، توفّي عام ١٩١٨. ويُجِلُّهُ أتباعه ويصغون إليه على أنّه صورة حيّة عن الإله، أمّا هو

---

miracle du Pape Jean»., *Osservatore Romano*, édit. fr., no 13,30 = mars 1993, p. 7.

(١١) *Famiglia Cristiana*, 31/1/1990, 14.

فيُسمّي نفسه ساي بابا.

بحسب الديانة الهندوسيّة، تدبُّ في العالم كلّه قوّةٌ خارقة، وهي قوّة براهمان، أي الله، الذي تُعَدُّ الأرواحُ البشريَّة جزءًا منه. براهمان هو الواقع الحقيقيّ الوحيد والثابت والدائم، أمّا ما يظهر لحواسّنا فهو لعبة وهميّة وخَدّاعة. ونحمل جميعًا في باطننا شرارة من براهمان، وهي «الأتمان»، أي الروح، ولكن بعض الأشخاص يمثّلون برهمان بالتناسخ، أي أنّه صورة عنه أو تجسيد مرئيّ له.

ويؤكّد ساي بابا قائلًا: «أنا الله، بل أنتم الله أيضًا. والفرق أنّكم لستم مُدركين ذلك. وجوهريًّا ليس هناك بيني وبينكم أيّ اختلاف». ويُعَلِّمُ ساي بابا أنّ الجذور الخمسة الكبرى التي تمثّل انسجام العالم مع البشريَّة مهدَّدة في وقتنا الحاضر، وأنّه يجب اللجوء إلى الله للحفاظ على هذا الانسجام. وتلك الجذور هي: «ساتيا» (الحقيقة) و«دْهارما» (الاستقامة) و«شانتي» (السلام) و«بْرِيما» (الحبّ) و«أهِيما» (اللاعنف).

وكما رأينا، تُعتبر الأرواح البشريّة في الديانة الهندوسيّة شرارات من الله، ويمكن أن يُفَسَّرَ ذلك، من وجهة النظر المسيحيّة، بمعنى أنّ جميع الذين يحبّون الله ينزعون إلى أن يؤلّفوا معه كُلًّا واحدًا، وأنّ الله موجود في جميع البشر وفي كلّ شيء. والمسيح نفسه قد قال إنّ الذين يُوجَّه إليهم كلام الله يمكن أن يُعتَبَروا آلهةً كذلك (يو ١٠/ ٣٤).

وفي ما يختصّ بالمعجزات، يجب أن نميّز بين الظواهر الخارقة، أي الأمور العجيبة، والمعجزات بالمعنى الدقيق. فبحسب تعاليم التوراة والإنجيل، ليس الأمر العجيب أو الظاهرة الخارقة من الأمور المحصورة بالله والمسيح...

ونجد في الكتاب المقدَّس: «وصنع كذلك السحرة بسحرهم (ما صنعه موسى)» (خر ٨/ ١٤). «فسيظهر مُسَحاءُ دجَّالون وأنبياء كذّابون، يأتون بآياتٍ عظيمةٍ وأعاجيبَ» (متّى ٢٤/ ٢٤). ونجد كذلك أنّ الشيطان سيتحوَّل إلى ملاك نور (٢ قور ١١/ ١٤). ومع ذلك، فهذا لا يعني أنّ الأمور العجيبة غير المسيحيّة هي دائمًا من صنع الشيطان، إذ قد تكون ظواهر غير طبيعيّة.

ولئن كانت الأمور العجيبة تحدث حتّى خارج المسيحيّة، فأين القوّة الداعمة أو المساعدة التي يُعتقد بأنّ المعجزات تقدّمها للبشر؟

وإجابتنا عن ذلك هي أنّ كلّ حدث غير طبيعيّ أو عجيب يبيِّن أمرًا هامًّا لإيمان الإنسان المعاصر: وهو وجود قوّة ذكيّة تنشط في الأعلى وخارج إطار الفيزياء والكيمياء، والمكان والزمان. ويمثّل هذا الأمر دحضًا بالوقائع للمادّيّة التي يستند إليها انعدام الإيمان في عصرنا الحالي.

وغالبًا ما تتمّ الأمور العجيبة عن طريق روح كائن بشريّ يعيش في عالمنا هذا (وسيط أو زعيم روحيّ أو قدّيس). وقد تقوم بذلك أحيانًا روحٌ خيِّرَة قادمة من خارج الأرض (ملاك أو ميت من الصالحين) أو روحٌ شرّيرة خارجيّة كذلك (شيطان أو ميت من أعداء الله). وأخيرًا، هناك بعض الوقائع التي لا تحدث مطلقًا في وسط غير دينيّ أو غير طبيعيّ، كحالات الشفاء الفوريّ من أمراض عضويّة وحالات القيامة الحقيقيّة من بين الموتى. لذلك يمكن أن نرجِّحَ كثيرًا انتماء هذه الأحداث إلى الروح الإلهيّة.

إنّها المعجزات بالمعنى الدقيق

إذن فكلّ حدث عجيب - إذا ما أبعدنا جميع حالات الغشّ والشعوذة - يمثّل دائمًا مساعدة أوّليّة على الإيمان.

ومن أجل أن نحدِّد، بعد ذلك، أيًّا من الفئات الأربع قد قام بالظاهرة العجيبة، يجب أن نفحص الظروف المرافقة وأن نحدِّد مَن هو المقصود بالظاهرة والهدف منها وتأثيرها على الشهود. وباختصار يمكننا أن نقول ما يلي: عندما تكون الأهداف غير دينيّة، فنحن أمام ظاهرة غير طبيعيّة يقوم بها كائن بشريّ حيّ، وليس بالضرورة قريبًا من الله. أمّا عندما تكمن الأهداف في زيادة حبّ الله والثقة به وطاعته، فمن المُرجَّح أن نكون أمام ظاهرة غير طبيعيّة صادرة عن قدّيس أو زعيم روحيّ حيّ أو روح خيِّرة قادمة من خارج الأرض. وأمّا إن كانت الأهداف تقوم على إبعادنا عن الله، فيكون الأمر من فعل كائن بشريّ حيّ أو روح معادية لله وقادمة من خارج الأرض. ولا تتمّ المعجزة الحقيقيّة والأصيلة بالمعنى اللاهوتيّ إلّا إذا كانت الأهداف دينيّة وإذا حدث شفاء أو بعثٌ كما ذكرنا آنفًا.

وعلى العموم، يجب أن نعتبر معجزات ساي بابا التي تنتمي إلى ديانة غير مسيحيّة كوقائع غير طبيعيّة عندما تؤدّي إلى أحداث تحصل كذلك في الجلسات الوسيطيّة أو في ظواهر الوسطاء الفطريّة. ويمكن بالمقابل أن تُعتبر ذات منشأ إلهيّ إذا أدّت إلى شفاء المرض. فيمكن الاعتقاد بأنّ الله يتدخّل لتثبيت تعليم الزعيم الروحيّ الذي يبشِّر الناس بوجود الله وطيبته وعدالته، ويعلّمهم قيمة الصلاة، والسلوك الأخلاقيّ الحسن، والجزاء في الآخرة، وجميع هذه حقائق يشترك بها غير المسيحيّين مع المؤمنين بالمسيح.

وأقلّ ما يمكن أن نقوله هنا هو أنّ أكثر الظواهر شيوعًا عند

ساي بابا لا نجدها عند كبار القدّيسين ولا عند المسيح. وبالمقابل، نجدها بكثرة عند ممارسي ألعاب الخفّة والإيحاء كظواهر خادعة يعتبرها الناس ظواهر حقيقيّة، ويُطلق عليها اسم «المستحضرات» في جلسات استحضار الأرواح. فساي بابا يقلب يده اليمنى فيظهر فورًا «الفيبهوتي»، المتمثّل في بعض الرماد المعطّر، أو في ساعة أو ميداليّة أو خاتم، وكلّها أشياء يقدّمها لمساعديه كإشارة تدلّ على حمايته إيّاهم. في رأينا، يجب أن تُصنّف هذه الوقائع مع الظواهر غير الطبيعيّة.

ويروي الشهود أيضًا بعض حالات الشفاء، ولكن حتّى الآن لم يتمّ إثباتها بالأدلّة المتينة التي تمّ بها إثبات معجزات لورد أو المعجزات التي أفضت إلى تطويب القدّيسين. وإن تُقَدَّمُ تلك الدلائل، وإن يبرْهَن علميًّا على أنّ المرض كان عُضالًا وأنّ الشفاء كان فوريًّا، فيبدو لي أنّه يمكن اعتبار تلك الحالات معجزات حقيقيّة قام بها الله من أجل تأكيد صحّة العناصر المشتركة بين الأديان[١٢].

ويؤكّد ساي بابا أنّه لم يأتِ ليبشّر بدين جديد، بل يقول: «الله واحد، ولكن يمكننا أن نعبده بطرق عدّة، وأن تتّخذ صلاتنا أشكالًا كثيرة، وأن نطيعه باتّباع أديان مختلفة». ولا يعني هذا أنّه لا فرق في اختيار هذا الدين أو ذاك، وأنّه لا يوجد دين يضع الحبّ في المركز ويبيّن طبيعة الله ورغباته على نحو أفضل. هذا يعني فقط أنّ بعض الحقائق الجوهريّة مشتركة بين جميع الأديان الكبرى، وأنّه من الأساسيّ أن يؤمن الإنسان المعاصر على الأقلّ بهذه الحقائق.

---

(١٢) Centre d'Etudes Parapsychologiques, Bologne. Actes de la 6e Journée parapsychologique bolognaise, 1-2 octobre 1988; G. ROSATI et A. CHIARI, *Sai Baba, fenomeni e dottrina*, pp. 68ss.

وتتميَّز المعجزة المسيحيّة عن غيرها بنوعيّة الظواهر المتمثِّلة في شفاء الأمراض العضويّة الخطيرة شفاءً فوريًّا، وبأهدافها وتأثيرها في الناس، أي تنوير الإنسان الذي تجري فيه المعجزة والسموّ به روحيًّا، ومساعدة الآخرين على الإيمان. وتحدث المعجزات من أجل هداية عدد كبير من الناس وجعلهم يعيشون على هدى الله. إذن، من أجل تحديد نوع الروح التي تكمن وراء حدث عجيب معيَّن، يمكننا أن نطبِّق الحكمة التي أعطاها المسيح من أجل تمييز الأنبياء ومعجزاتهم: «من ثمارهم تعرفونهم. أيُجْنى من الشوك عنبٌ أو من العلّيق تين؟ كذلك كلّ شجرة طيِّبة تثمر ثمارًا طيِّبة، والشجرة الخبيثة تثمر ثمارًا خبيثة. فليس للشجرة الطيِّبة أن تثمر ثمارًا خبيثة، ولا للشجرة الخبيثة أن تثمر ثمارًا طيِّبة» (متّى ٧/١٦-١٨).

يدعو ساي بابا إلى محبّة الله والقريب، وهذا رائع وصحيح، ولكنّ المسيح كان أوّل مَن دعا إلى ذلك، وجعل منه مركز كلّ شيء، وعاشه حتّى ضحّى بذاته من أجله. كما أعطى الكثير من القدّيسين الذين حملوا هذه الرسالة إلى العالم، ومنحهم المساعدة الإلهيّة من أجل أن يعيشوا تلك الرسالة.

لذلك فإنّ المسيحيّ الذي يكتشف ساي بابا كمعجزة يشبه ذلك البحّار الذي طاف العالم بحثًا عن جزيرة الكنز. وبعد أن اكتشفها، تبيَّن له أنّها الجزيرة التي وُلِدَ فيها وانطلق منها.

٣٨ - المرأة والإيمان

المرأة هي الجسر بين الإنسان والله

للأنوثة مهمّة روحيّة خاصّة صادرة عن طبيعتها نفسها. ومن الصحيح أنّ الكثيرين يرون اليوم أنّ الفروق النفسيّة بين الرجل والمرأة ترجع أسبابها إلى عوامل ثقافيّة فقط، وأنّها بالتالي سوف تزول عندما تتحقّق المساواة الاجتماعيّة التامّة بين الجنسين.

ولكن لا يصحُّ هذا الكلام، إذا ما فكَّرنا في أنّ الأمومة، إذ تمنح الأمّ الشابّة الدافعَ إلى الاهتمام بطفلها والرغبة في ذلك، تزوّدها كذلك بالصفات التي تلزمها للقيام بهذه المهمّة والتي تمثّل الروح الأنثويّة.

وبالتالي، ينبغي لنا أن نقول إنّ بعض الفروق النفسيّة فقط تنشأ عن الدور الذي أوكِلَ إلى المرأة عبر التاريخ، في ظلّ سيطرة الرجل، ولا سيّما ما يُزعَم من أنّها أدنى من الرجل في إدارة الأعمال وتنظيمها، وفي السياسة والعلم والتقنية والفنّ. وهناك بالمقابل فروق صادرة عن الطبيعة والله. وإذ يوجّه الله الشابّة إلى الأمومة وتربية الأطفال، يجعل فيها ميلًا إلى النعومة والرقّة والجمال العذب والعطف والحنان والحبّ، في حين يوجّه أبا الغد إلى الشجاعة والعقلانيّة والتنظيم وتذليل الصعاب، وغير ذلك من

الصفات اللازمة للعمل خارج البيت.

الحضارة الحاليّة هي في طور الانحطاط السريع لأنّها خاضعة للعوامل الثقافيّة الذَكَريّة: كالتقنولوجيا والعقلانيّة والسعي المفرط إلى الرفاهية الاقتصاديّة والحبّ الجنسيّ. أمّا المرأة، فعندما لا تكون مصابة بعدوى العقليّة الشائعة، فإنّها تقوم، بفضل حَدْسها وتفضيلها الحبَّ العميق والمستقرّ والأُخوَّة والإيمان الدينيّ، بمهمّة لا غنى عنها من أجل مساعدة الرجل في الارتقاء إلى القِيَم العُليا.

ويمكن القول إنّ المرأة الحقيقيّة جنسٌ في طريقه إلى الانقراض. ولكن في الأماكن التي لا تزال موجودة فيها، فإنّها تمثّل الجسر الذي يربط بين رجال بيئتها والله.

إنّ الرأي العامّ الحالي، الذي نشأ عن الثقافة الذَكَريّة الماضية، يمارس ضغطًا نفسيًّا على المرأة حتّى تحقّق ما يفوق المساواة في الحقوق، وهي المساواة الروحيّة مع الرجل. والهدف من ذلك أن تسعى إلى الجنس أكثر منها إلى الحبّ، وإلى العمل والعلم أكثر منها إلى الإنجاب وتربية الأطفال، وإلى العقلانيّة أكثر منها إلى الإيمان، وإلى النضال الأُنثويّ وروح الصراع أكثر منها إلى تأثير القلب، والمساواة في الفكر وفي الوظائف الاجتماعيّة أكثر منها إلى المساواة في الكرامة وإلى التكامل في المهامّ الإنسانيّة، والكهنوت الخارجيّ والمنظّم أكثر منها إلى الكهنوت الباطنيّ الذي تملكه هي دون الرجل.

وإنَّ تنامي انخراط المرأة في ميادين الفلسفة والصحافة والحقوق وعلم الاجتماع والسياسة وحتّى في علم اللاهوت سيكون له أثر إيجابيّ في تطوُّر ثقافتنا المتوازن الذي لا يزال حَكْرًا على الرجال، إن مارست المرأة موهبتها الطبيعيّة بدلًا من أن تقلّد الرجل.

فقد وهب لها الخالق كهنوتًا طبيعيًا، أكثر باطنيَّة وفعاليّة من كهنوت الكهنة. فبدون النساء القادرات على أن يحببن ويكسبن حبّ الرجل العميق كزوجات أو أمّهات أو قياديّات أو صديقات، وعلى أن يَعِظْنَ بقلوبهنّ، فإنّ معنى الوجود والإيمان يزولان، ويزول معهما حتّى رجال الدين.

المرأة هي حقًّا بطبيعتها الجسر المقدَّس الذي يصلنا بالله: لا عندما تترك الشاطئ الإلهيّ وتلتحق كُلّيًا بشاطئ الرجل وتحاول تقليده، ولا عندما تتجنب الرجل فحسب، بل لا سيّما عندما تحييه باطنيًا بالحبّ الإلهيّ(١).

هل الإيمان امرأة؟

يبدو الكتاب المقدَّس، للوهلة الأولى، رُجوليًّا: فإبراهيم وموسى والأنبياء وداود والمسيح والرسل هم من الرجال. ويبدو أنّ النساء لا قيمة لهنّ. فحوّاء تُعتبَر أصل الخطيئة التي ارتكبها الرجل وأصل جميع الشرور. وحُذِّرَ الرجل من مصدر الغواية هذا، الذي يتمثَّل بالمرأة.

ولكن إذا ما قرأنا الكتاب المقدَّس بمزيد من الإمعان، تبيَّن لنا أنّ الموضوع أعقد من ذلك وأكثر تأرجحًا. فثمّة صفحات رائعة تمتدح المرأة التي تخشى الربّ، وتبيِّن بعض الوجوه النسائيّة العظيمة التي تُنقذ شعب الله، أمثال: دبورة وأستير ويهوديت، ولا سيّما مريم، التي يبيِّن الكتاب المقدَّس عظمتها ويوليها مهمّة فريدة، أرقى بكثير من مهامّ الملوك العظام والكهنة والأنبياء والرسل.

---

(١) P. EVDOKIMOV, *La femme et le salut du monde*, Casterman, Tournai, 1958, p. 128.

وفضلًا عن ذلك يجب ألّا ننسى أنّ الوحي الإلهيّ لا يُبرز إلّا الخطوط العريضة في الحياة البشريّة، ولا يمسّ ثقافات الشعوب وعقليّات عصورهم، وأوّلها شعوب الكتاب المقدَّس وعصره. فقد كانت الثقافة اليهوديّة في ذلك الزمان رجوليّة، أو من الأفضل أن نسمّيها أبويّة. فأصل اليهود قبائل من الرعاة، ويُشير علماء السلالات البشريّة الحديثون إلى أنّ الشعوب التي أصلها قبائل من الصيّادين والرعاة لها تقاليد أبويّة (أي أنّ السلطة تكمن في الأب وفي الرجل)، وأنّ الشعوب التي أصلها من المزارعين تمثِّل على العموم مجتمعات أموميّة (أي أنّ السلطة في يد الأمّ والمرأة).

وما يهمّنا أن ننبِّه إليه هنا هو أنّ الحبّ بين الرجل والمرأة، كما كان يُنظَر إليه في بيئة الثقافة الأبويّة اليهوديّة، كان يُعتبَر في الكتاب المقدَّس رمزًا للعلاقات الوثيقة والحتميّة التي يرغب الله في أن يُقيمها بينه وبين شعبه وبينه وبين كلّ كائن بشريّ يقبل بحبّه. ويرى الكتاب المقدَّس في طبيعة المرأة، ولا سيّما الزوجة اليهوديّة القديمة، صورةً تمثِّل طبيعة البشر على العموم، أي طبيعة كلّ شخص، سَواءٌ أكان رجلًا أم امرأة.

يعتبر التيّار الإنسانيّ الملحد المعاصر أنّ تبعيّة الإنسان لله إهانة لكرامته وحرِّيّته، إلّا أنّه ينسى أنّ ما يطلبه منه الخالق ليس تبعيّة العبد والخادم، بل تبعيّة الابن. وفضلًا عن ذلك، تعني وصايا هذا الأب ونصائحه طريقًا لا يمكن أن يعرفه الإنسان، وهو طريق الألوهيّة، وتُعْطى بدافع محبّة الأب ورغبته في تحقيق سعادة ابنه الأرضيّة والسماويّة. ثمّ إنّ الله يطلب منه طاعة الزوجة اليهوديّة القديمة، التي، إذ تخضع لزوج مثل الله، تعلم أنّه، هو أيضًا، يحبّها محبّة كلّيّة ومخلصة ولا يعيش إلّا من أجلها ومن أجل أن يقودها إلى نهاية عظيمة.

وبحسب الكتاب المقدّس، الهدف الذي يعيش الكائن البشريّ من أجله مؤقّتًا في هذا العالم الصعب، هو أن يقبل قبولًا حرًّا بسموّ الله على البشر، وأن يختار، حتّى ولو اضطُرَّ إلى التضحية، أن يعيش هذا الأمر على أنّه تابع أو ابن أو صديق أو خاصّةً زوجة خاضعة مطيعة.

«فكما أنّ شابًّا يتزوّج بِكرًا، كذلك إلٰهكِ (بنّاؤك) يتزوّجُكِ» (أش ٦٢/٥). يمثّل الحبّ بين الرجل والمرأة التشبيه الأكثر استعمالًا لشرح العلاقة بين الكائن البشريّ والله. فهو أكمل أنواع الحبّ وأكثر تنزُّهًا وحرّيَّةً. وهو حوارٌ، وشفّافيّةٌ متبادلة، وميلٌ إلى الشخص الآخر، وتواضع، واتّحاد، وتضحية من أجل مساعدة الآخر وإنقاذه، وإخلاص متبادل للأبد، ومديح، وفرح، وتأهُّب، وثقة، ومشاركة في كلّ شيء.

في الله تكثر جميع الثروات التي يحلم بأن يجدها كاملةً في الحبّ البشريّ. والله قادر على أن يبثّ هذه الثروات بالتدريج في زوجة الغد، وذلك بالحوار وبالحبّ.

وليس هذا الفرح صاخبًا أو لاهبًا، بل هو هادئ. وليس فيه صعود ولا هبوط، بل هو مستقرّ. كما أنّه لا يقوم على الجسد، بل على الكيان، ولا على الحواسّ، بل على الشخص، ولا على العاطفيّة، بل على الحبّ.

هل المرأة أكثر انجذابًا إلى الحبّ الإلهيّ؟

يبدو أنّ المرأة أَميَل من الرجل إلى هذا النوع من الحبّ الذي يقتضي تواضعًا وثقة وإيمانًا وطاعة وقدرة على التَقَبُّل وعلى بذل الذات، بل أكثر من ذلك إذا وضعنا في اعتبارنا حبّ الأزواج.

ولا نريد من كلامنا هذا أن نقول إنّ المرأة تتميّز في هذا الأمر عن الرجل تميُّزًا مطلقًا. فما يُمَكِّنُ الرجلَ والمرأةَ من إقامة علاقة المودّة مع الله لا يكمن في انتمائهما إلى هذا الجنس أو ذاك، بل في هبة الروح القدس التي تُمنح لكلّ منهما على حَدٍّ سواء.

ومع ذلك، فعلى الصعيد النفسيّ يمكننا أن نتساءل ألا تتمتّع طبيعة المرأة ببعض الميول والإمكانات التي ينبغي للمرأة أن تمارسها، إمّا من أجل فائدتها، أو من أجل دعم مسيرة الرجل في سعيه الدينيّ.

وتبيِّن جميع استقصاءات علم الاجتماع الدينيّ أنّ المرأة تؤمن بالله أكثر من الرجل. فهي تُمارس الدين وتصلّي وتولي أهمِّيَّة للدين والصلاة والإحسان، وتشارك في مجموعات دينيّة، وتبحث عن معنى الحياة المسيحيّ أكثر ممّا يبحث عنه الرجل.

أمّا الرجل فيؤْثِر في الغالب بعض القِيَم، كالاستقامة والعمل والالتزام السياسيّ والفضائل الطبيعيّة والنفوذ الذاتيّ والمكانة الاقتصاديّة. وتولي المرأة المزيد من الأهمِّيَّة لبعض الفضائل، كمساعدة المعذَّبين والحبّ الروحيّ بجميع أشكاله.

وخلافًا للرجل المؤمن، تجد المرأة المؤمنة في النزعات العميقة التي تتميَّز بها طبيعتها الأُنثويّة ميلًا وجدانيًّا قويًّا إلى الزواج الروحيّ بالله. فإنّ الجنس يُسيطر على جميع ملكات المرأة. ولئن كان الميل إلى الحبّ العاطفيّ والرومانسيّ يغلب في نفسيّتها، فإنّ الجانب الروحيّ فيها، الذي تحرِّكه النعمة، يتوق إلى حبّ أعمق يربطها بكائن الجمال والعظمة والحبّ اللانهائيّ، وإن كان هذا الحبّ يتلَوَّن بالحنان والعاطفة.

«تتفانى المرأة في الحبّ وتسعى إلى أسمى الأشياء، فكم سيُرضي هذا الأمرُ الله! وكم سيحبّ الله صمتها وهي تفتح ذراعيها لِمَن هو آتٍ! فمريم الناصرة هي أعظم جميع النساء وجميع الرجال. وهي مثلٌ أعلى لجميعهم ولجميعهنّ»(٢).

كتب اللاهوتيّ الروسيّ پ. إيفدُوكِيمُوف ما يلي: «إنّ مبدأ البشريَّة الدينيّ يتمثّل في المرأة». وكان قد كتب سابقًا يقول: «الروح الأُنثويّة هي الأقرب إلى أصول التكوين. ويجعل الكتاب المقدَّس المرأة في مركز انفتاح الطبيعة البشريّة الروحيّ». ويصف المؤلِّف في صفحتين كيان المرأة ورسالتها، ويذكر أنّ «العنصر الدينيّ يتوافق توافقًا خاصًّا مع الروحانيّة الأُنثويّة»، بحسب الكتاب المقدَّس. ويختم دراسته قائلًا: «تكمن رسالة المرأة في رعاية عالم الرجال من حيث هي أمٌّ، وتطهيره من حيث هي عذراء، وذلك بمنحه روحًا، أي روحها هي»(٣).

التكامل بين الرجل والمرأة

«تتمثَّل الغريزة الأساسيّة عند المرأة كأُنثى في بذل الذات. أمّا تلك الغريزة عند الرجل كذَكَر فتتمثَّل في إثبات الذات. فالأُولى تريد الحبّ، والثاني يريد العدالة. وتنصبّ مشاعر المرأة في الشخص كفرد، أمّا مشاعر الرجل فَيَتَّسِمُ بقدر أكبر من الشموليَّة (السياسة) والموضوعيّة (العلوم).

ويكمن مجال الذكاء الذَكَريّ في الفكر المجرَّد والعلميّ. أمّا

---

(٢) C. CARRETTO, *J'ai cherché et j'ai trouvé*, cit. p. 69.

(٣) P. EVDOKIMOV, *La femme et le salut du monde*, cit., p. 148, 152, 181.

المرأة فتسعى إلى جوهر الأشياء بالحَدْس. ويقوم عالم المرأة على الفهم والإحساس والتعاطف والتقارب. وقد كُوِّنت المرأة بيولوجيًّا لتصبح أمًّا ونفسيًّا لتتحلّى بنزعة الأمومة. أمّا الرجل فقد كُوِّن بحيث يُؤْثِرُ التنظيمَ والتقنية، وبحيث يصمد أمام الصعاب ويذلّلها، ويحمي المرأة والولد ويؤمِّن لهما معيشتهما.

وحتّى في المجال الدينيّ، خُلِقَ الرجل والمرأة ليكون كلّ منهما للآخر. فالمرأة أكثر استعدادًا للوصول إلى الكمال الخارق غير الفاعل، الذي تُعتبَر النعمة عنصره الأساسيّ. أمّا الرجل فإنّه، على عكس ذلك، أقوى من المرأة في ما يختصّ بالسعي إلى الكمال الأخلاقيّ الطبيعيّ الفاعل الذي يقوم على السيطرة العقلانيّة التامّة على جميع الأفعال والمشاعر.

إذن فكمال الطبيعة البشريّة يكمن في الدمج بين القوّة العقلانيّة والعاطفة الفطريّة. فبدون الرجل، تقع المرأة في الإفراط العاطفيّ، وبدون المرأة، يتجمّد الرجل في الجفاف والمغالاة في الاعتماد على التقنية. وقد أشار كيركغارد إل ذلك في يوميّاته، إذ قال: «إنّ بروز الرجل فكريًّا يؤدّي فورًا إلى أنانيّة بالغة. ويمكن القول إنّ تكوين المرأة يتوافق مع الخدمة الدينيّة أكثر من تكوين الرجل، لأنّ طبيعة المرأة مبنيّة على بذل الذات. فإذا اجتمع فكر الرجل الذَّكَريّ البارز مع خضوع المرأة، فعندئذ تتحقّق النزعة الدينيّة الحقيقيّة»(٤).

الاتّحاد العاطفيّ بين الرجل المرأة

إنّ صورة الله في الكتاب المقدّس لا تذكَّر بصورة الرجل من حيث هو ذكر ولا بصورة المرأة من حيث هي أُنثى، بل بالرجل

---

(٤) S. KIERKEGAARD, *Diario*, Morcelliana, Brescia, 1951, p. 288. Cf R. PIRET, *Psicologia differenziale dei sessi*, Roma, 1973.

والمرأة اللذَين يؤلِّفان كيانًا واحدًا بالحبّ الروحيّ والعميق...
وهذا ما يُتيح فرصة الاتّحاد والتواصل بين المصالح والميول: «على صورة الله خلقَه، ذكرًا وأُنثى خَلَقَهم» (تك ١/ ٢٧).

ولهذا السبب، يمكننا القول إنّه مثلما مُنِحَ الزواج الروحيّ بالله للرجل والمرأة على حَدٍّ سواء، وكذلك فإنّ الاستعداد الفطريّ لهذا الاتّحاد لا يُوهَب للمرأة من حيث هي أُنثى، بل للرجل والمرأة اللذَين يتكاملان في الحبّ الروحيّ. ولا يتحقَّق هذا التكامل في الحبّ الزوجيّ بالضرورة، إذ يمكن أن يتحقَّق كذلك في المحبّة بين الأمّ والابن، والأخت والأخ، والصديقة والصديق، والقدّيسة والتقيّ، ولا سيّما في العلاقة الأموميّة البنويّة بين مريم العذراء ومَن يلجأ إليها لجوءًا تامًّا.

وإذ كانت مريم ممتلئة بالنعمة في الحياة الأرضيّة - وهذا يعني أنّها كانت ممتلئة بحبّ الله - عاشت في هذا العالم حُبَّ الله الروحيّ الذي تمّ وصفه في التوراة من خلال **نشيد الأناشيد**، وعاشته على وجه أفضل بالمجد. فهي الزوجة الفائقة الجمال. وعند الرجل التقيّ الذي يتوجَّه إليها، يتحقَّق بالتدريج التَوَحُّد العاطفيّ بها، فيستمدّ منها اهتماماتها وخياراتها وروحها ومشاعرها وشيئًا من وحدتها الروحيّة مع الله.

وغالبًا ما يبلغ الرجل السعادة وعمق حبّ المسيح والآب من خلال التوحُّد العاطفيّ مع امرأة متديِّنة، امرأة قدّيسة، أو مع المرأة الممتلئة بالنعمة. وهذا أمرٌ يلقي الضوء على مسألة كهنوت المرأة التي هي قيد المناقشة.

وهذا يعني أنّ المرأة قد حَظِيَت بكهنوت باطنيّ وفطريّ يفوق كهنوت الرجل - وبدأت بممارسته، إن كانت تحبّ الربّ حبًّا

شديدًا - وهذا الكهنوت هو الحبّ، الذي يمثّل روح الكنيسة، وهو مكمّل للكهنوت التنظيميّ والمؤسّسي المتمثّل في الكاهن وفي المؤمن الملتزم الذي يؤلّف جسده في بعض جوانبه.

وكانت مريم العذراء تمثّل دائمًا في نظر قدّيسي الكنيسة «المرأة المُثلى»، وينطبق الشيء نفسه على العلاقة بالله الذي أصبح ابنها. وكتب الكردينال سوننّس Suenens ما يلي: «لئن كان المسيح قد استطاع أن يقول: «مَن يراني يرى أبي»، فإنّ مريم العذراء يمكنها أن تقول قياسًا إلى ذلك: «مَن يراني يرى ابني». وبذلك لا تعيش مريم بذاتها، بل المسيح، أو قُلِ الله، يعيش فيها. والفرق بين تحوّلها إلى الله وتحوّل القدّيس بولس وسائر القدّيسين يفوق الفرق في الارتفاع بين السماء والأرض»[٥].

وكلّما كانت المرأة تتحلّى بالصفات الأُنثويّة الإيجابيّة (كالنعومة والرقّة والجمال العذب والعاطفة والشفقة وبذل الذات وحسّ الأمومة والحدس)، زاد انجذاب الرجل إليها. وكلّما زاد حُبُّها الله وقوي زواجها الروحيّ به، زادت قدرتها على إثارة الحبّ لدى الرجل الذي يحبّها ويتّحد بها عاطفيًّا. وبحسب الأناجيل، تبلغ الروحانيّة المسيحيّة في مريم العذراء ذروتها، سَواءً في الأنوثة أم في حبّ الله. وينتج عن ذلك أنّ العذراء تمثّل الوساطة الروحيّة الأقوى والأكثر فعاليّة بين المسيح والبشر. ويرى بعض اللاهوتيّين في مريم العذراء مثلًا يُحْتَذى، ولا يرون فيها وسيطة. ولكن لما كانت جميع النساء المسيحيّات الصالحة والطاهرات، ولا سيّما الأمّهات مِنْهُنَّ، وسيطات لدى الله، ولمّا كان جميع المسيحيّين وسطاء بالصلاة والتبشير، فإذا أردنا أن نرضيهم، توجَّب علينا أن نقول إنّ جميع

---

(٥) L.J. SUENENS, *Qui est celle-ci?* Fayard, Paris, 1951, p. 85.

المؤمنين وسطاء ووسيطات، ما عدا مريم العذراء.

ويؤكّد لنا الإنجيل والقدّيسون أنّها ممتلئةٌ نعمةً، أي أنّها ممتلئة بحبّ الله. لذلك فإنّ تكريمها الحقيقيّ عند الكاثوليك والأرثوذكس لا يقوم على الاهتداء بعبادةٍ موجّهةٍ إلى امرأة، بل، بالعكس، على الاهتداء بامرأة متوجّهة نحو العبادة.

الكهنوت يناسب المرأة

وجّه أحد القائمين على التعليم الدينيّ إلى الأطفال السؤال التالي، بعد أن شرح لهم ما فعله الله في قصّة التكوين التوراتيّة: «لماذا برأيكم خلق الله المرأة بعد الرجل؟» فرفعت إحدى الطفلات يدها وقالت: «في رأيي، بعد أن خلق الله الرجل، فكّر في نفسه قائلًا: «إذا حاولتُ مرّةً ثانية، فقد أنجح في ذلك أكثر منّي في المرّة الأولى». وهكذا خلق المرأة».

وإن كنّا لا نؤكّد أنّ المرأة أنجحُ خلقًا من الرجل، فإنّنا نرى أنّ دورها أساسيّ في جعل البشريّة تحقّق هدف الحياة الأوّل.

وتُناقَش اليوم كثيرًا قضيّة حقّ المرأة في ممارسة وظيفة الكهنوت كالرجل. ولعلّه من الأفضل في الوقت الحالي أن نكتشف ونبرز الكهنوت **الخاصّ** بالمرأة الذي لم يُدرَس حتّى الآن إلّا قليلًا. ولكي نفتح باب الله، يلزمنا مفتاحان مختلفان. وليس من المهمّ أن نعرف هل يتوجّب على بنات حوّاء أن تستعمل كِلا المفتاحين، بل المهمّ أن نعرف أيًّا منهما أنسب لها: مفتاح القدّيس بطرس أم مفتاح الأمومة الروحيّة.

وما ذكرناه سابقًا، عن أنّ طبقة النساء أكثر ميلًا من طبقة الرجال إلى الحبّ العميق، ليس فكرة شائعة ومجرّدة من أيّ أساس

علميّ. فجميع علماء النفس العظام، وحتّى أحدثهم عهدًا، يعتبرون أنّ وجود فروق في الشخصيّة بين الرجل والمرأة أمرٌ مفروغ منه، إذ نجد قدرًا أكبر من العدوانيّة عند الأوّل، وعاطفةً أقوى عند الثانية. ولا تُعْزى هذه الفروق إلى أسباب ثقافيّة فحسب، بل إلى عوامل بيولوجيّة أيضًا تكمن في النفس وفي الروح.

يميل الرجل إلى الفعّاليّة، والمرأة إلى الحبّ

تذكُر الدراسات النفسيّة المتعلّقة بالخصائص الأُنثويّة بتلك المرأة التي تطلق عليها هيلين دُويتش Hélène Deutsch وغيرها من علماء النفس اسم «النموذج الأُنثويّ»، والتي تمثّل معظم النساء، كما يظهر «النموذج الذَكَريّ» عند معظم الرجال. وتجد عالمة النفس تأكيدًا لهذه الفروق الأساسيّة في المعطيات الفيزيولوجيّة التي تبيّن أنّ هناك هورمونات خاصّة تسيطر عند المرأة، وهي هورمونات «الإستروجين»، وأخرى تسيطر عند الرجل، وهي هورمونات «الأندروجين».

إذن من الثابت الآن أنّ لِكُلٍّ من الجنسين صفات نفسيّة خاصّة به. ويطلق يونغ اسم «أَنِيما» anima على مجموع الخصائص الأُنثويّة، واسم «أَنِيمُوس» animus على خصائص الرجل. وتُعَدُّ الصفات الخاصّة بكلّ جنس من الجنسين من معطيات الطبيعة، حتّى ولو تمّ تحديدها لاحقًا بفعل العوامل الثقافيّة.

ومن بين المحاولات الكثيرة الرامية إلى درس الفروق بين الجنسين درسًا منهجيًّا (هـ. دويتش H. Deutsch وم. ڤايرتينغ M. Vaerting وج. هـ. سِوارد G.H. Seward وأ.هـ. ماسْلُو A.H. Maslow وس. فرويد ور. پِيريه R. Piret وآن أنستازي Anne

Anastasi وكارِن هُورني Karen Horney وجانّ كرِيسّانْج Jeanne Cressanges وسيبيلّا أَلِيرامُو Sibilla Aleramo...)، نرى أنّ المحاولة الغنيّة بالأبعاد هي تلك التي تقيس الفروق بين النموذجين الجنسيّين بالرجوع إلى مِعْيارَي قِيَم مختلفين ومتكاملين، وهما: معيار «الفعّاليّة» ومعيار «العاطفيّة»، اللذين يمثّلهما في إطار الأسرة الأبُ والأمّ(٦).

لِنُلْقِ نظرة سريعة على خصائص الجنسين من خلال البحث الجيّد التوثيق الذي قام به روجيه بيره، من جامعة لييج (بلجيكا):

علم نفس الفروق الجنسيّة

ثمّة أمر تضعه المرأة الأنثويّة في مركز أفكارها وحياتها، وهو أن تحبّ وأن تكون محبوبة. أمّا الرجل فيضع هذا الأمر في مصاف العديد من الاهتمامات الأُخرى، ولا يضعه مطلقًا في المرتبة الأولى. ويمثّل هذا الأمر في نظر المرأة عنصر وجودها الجوهريّ، ولا سيّما في سنّ الشباب. والأمر الذي يُثير اهتمام المرأة في الحبّ

---

(٦) H. DEUTSCH, *Psychologie de la femme dans l'adolescence*, trad, it. Torino 1957; Id., *Psychologie de la femme adulte et mère*, trad. it. Torino, 1957; A. Anastasi, *Differential Psychology*. New-York, 1958, trad. it. Firenze, 1969; A. SCHEINFELD, *Sex Differences in mental and Behaviour Traits*, Genet. Psych. 1968,77; E. MACCOBY, *The Development of Sexes Differences*, Stanford, Calif., 1966.. R. PIRET, *Psychologie différentielle des sexes*, trad. it.., Roma, 1971; K. HORNEY, *Feminine Psychology*, trad. it. Armando, Roma, 1973; Esther HARDING *I misteri della donna*, trad. it. Astrolabio. Roma, 1973; Pina CAVALLO, *Analisi psychologica della condizione femminile*, Guida, Napoli, 1978; Sibilla ALERAMO, *La donna e il femminismo*, Ed. Riuniti, Roma, 1978; Jeanne CRESSANGES, *Ce que les femmes n'avaient jamais dit*, trad. it. *Ció che le donne non hanno mai detto*, Rizzoli, Milano, 1985.

أكثر من غيره هو الجانب الشعوريّ والعاطفيّ، أمّا ما يغلب في الرجل فهو الحاجة الجسديّة(٧).

وتبدي المرأة «لطفًا اجتماعيًّا» أكثر ممّا يبديه الرجل، إذ إنّ معظم النساء يهتممن بالعلاقات الإنسانيّة. أمّا الرجال فإنّهم أكثر ميلًا إلى الدرس والاهتمامات المتعلّقة بالأنشطة الجسديّة، كالعلم والتقنية والعمل. وتؤلّف النساء مجموعات قائمة على الاستلطاف. أمّا الرجال فيبنون علاقاتهم على المصالح المشتركة. النساء أقلّ عدوانيّة من الرجال بكثير. لذلك فإنّ عدد النساء المسجونات بسبب جرائم السرقة وتزييف العملات وجرائم القتل أقلّ بكثير من عدد الرجال(٨).

وفي الأديان التي تلتحم بالسياسة والحرب والقوميّة التحامًا متينًا، يزداد التزام الرجال بالدين. وحتّى في الدين المسيحيّ، فالرجال هم الذين يقومون عادةً بالعمل المنظّم، مع أنّ هذا النشاط ليس مُحَرَّمًا على النساء. أمّا في ما يختصّ بحبّ الله والخضوع لإرادته والإيمان والصلاة والإحسان وعمق القناعات الدينيّة، فإنّ النساء يتفوّقن على الرجال. ويبدو أنّ حساسيّتهنّ وانفتاحهنّ الاجتماعيّ وميلهن إلى الحنان تجعلهنّ أفضل من الرجال(٩).

وحتّى تَدَيُّن المرأة يختلف عن تديُّن الرجل، فالأوّل قائم على الصلاة والإيمان أكثر من الثاني. ويركّز الرجل على جهد الإنسان والقيام بواجبه وإرضاء ضميره(١٠).

---

(٧) الكتاب المذكور، ص ١٢٣ وما يليها

(٨) المرجع نفسه، ص ١٤٩ وما يليها.

(٩) المرجع نفسه، ص ١١٧ وما يليها.

(١٠) المرجع نفسه.

تكمن عبقريّة المرأة في القلب

ويصوِّر الأستاذ ف.ك. أَرْنُولْد F.X. Arnold، رئيس جامعة توبِنغن، نفسيّة المرأة تصويرًا بالغ الدقّة. وسوف أستعرض بعض النتائج المهمّة التي استخلصها المؤلِّف(١١).

ومن الخطأ أن نقول إنّ المرأة غير فاعلة. فبينما يتوجَّه اهتمام الرجل إلى العالم الخارجيّ ليطبعه بطابعه، يتوجَّه اهتمام المرأة في الغالب إلى مشاعرها الخاصّة وإلى مشاعر غيرها من الأفراد(١٢).

ويختلف الجنسان كذلك في مثالهما الأخلاقيّة والدينيّة. وحتّى هنا يشعر الرجل بالحاجة إلى العمل وإثبات الذات. أمّا المرأة فعندها مَيْلٌ أوضح إلى الاهتمام بالآخرين. المَيْل الأساسيّ عند المرأة الأنثويّة هو الحبّ كَبَذْلٍ للذات، كما أنّ المَيْل الأساسيّ عند الرجل الذَكَريّ هو إثبات الذات(١٣).

محور دوران المرأة هو القلب والروح والعاطفة. فالمرأة تملك مخزونًا من الحبّ أكبر من مخزون الرجل، وطاقةً عاطفيّة أقوى. أمّا الرجل فهو، على العكس، مُتَمَركز على العقل.

«وبطبيعة الحال، حدود هذا التصنيف مطّاطة، إذ ثمّة أفراد يشذّون عن القاعدة في كِلا الطرفين. ويبقى من الصحيح أنّ عالم المرأة يقوم في معظم الحالات على التفهُّم والشعور والاحترام والتعاطف والاستلطاف. أمّا الرجل فيبرهن في الغالب على أنّه خُلِقَ للتنظيم والتقنية وتذليل الصعاب، ولحماية المرأة والولد

---

(١١) F.X. ARNOLD, *La femme dans l'Eglise*, Paris, 1955, pp. 48-63.

(١٢) المرجع نفسه، ص ٤٩.

(١٣) المرجع نفسه، ص ٥١ وما يليها.

وتأمين معيشتهما»(١٤).

دراسات امرأة عن الفروق بين الرجال والنساء

شهد كتاب عالمة النفس كارول جِيلّيغان Carol Gilligan صوت آخر(١٥) انتشارًا واسعًا وترحيبًا كبيرًا. وتعرض المؤلِّفة فيه نتائج أبحاثها عن طلّاب جامعة هارفرد، تلك الأبحاث التي يُستخلَص منها أنّ عند الرجل والمرأة مفهومين مختلفين ومتكاملين عن الأخلاق وعن نضوج الشخصيّة. نعرض في ما يلي ملخّصًا توضيحيًّا عن هذه النتائج:

الرجل	المرأة
يتزامن **النضج** مع استقلال الفكر، ومع قدرة المرء على اتّخاذ القرارات بمفرده، ومع العمل المستقلّ والمربح. ويُركِّز الرجل على عزلة الفرد، وعلى تنوُّع الأشخاص والفروق التي تميِّزهم، وعلى أولويّة تحقيق الذات وإثباتها بتنمية الطاقات الخاصّة بالفرد.	يكمن **النضوج** في الانفتاح على الغير، وفي إقامة علاقات عميقة مع الآخرين. وتركِّز المرأة على التبادل في العلاقات والتبعيّة بين الأفراد، وعلى ترابط الأشخاص والتشابه في ما بينهم، وعلى أولويّة العلاقة بالآخرين، وعلى معرفة المرء بالتعاون وتحسين العلاقات الإنسانيّة.

---

(١٤) المرجع نفسه، ص ٥٦.

(١٥) C. GILLIGAN, *In a different Voice: Psychological Theory and Women's Development*, Harvard University Press, 1982, trad. it. Feltrinelli, Milano, 1987.

الأخلاق القائمة على الحقوق وعلى عدم التدخُّل في الشؤون الخاصّة	أخلاق المسؤوليّة المشتركة
مساواة في الحقوق للجميع، وعلاقات مع سائر الخاضعين لقوانين العدالة وقواعدها ومبادئها، وحقّ كلّ فرد في أن يفعل ما يشاء شرط أن لا ينتهك حقوق الآخرين.	واجب المرء في (وحاجته إلى) مساعدة الآخرين، ولا سيّما أولئك الذين يواجهون بعض الصعوبات، وأهمِّيَّة العلاقات العاطفيّة العميقة، وعلاقات خاضعة للحبّ الشامل، واتّحاد بحاجات البشر وأفكارهم وأذواقهم.

التكامل بين الاثنين	
وعي للذات كفرد له أفكاره ورغباته، وتنمية الأنا من حيث هي مختلفة عن أنا الآخرين.	وعي للذات كجزء من جماعة البشر التي لها أفكار ورغبات مشتركة في بعضها، وتنمية الأنا من حيث هي جزء من الـ «نحن».

القِيَم الذَكَريّة والقِيَم الأنثويّة في شخصيّة المسيح

من المثير للاهتمام أن نعرف كيف جمع المسيح في حياته البشريّة بين القِيَم الذَكَريّة والقِيَم الأنثويّة. وإذ لم يكن له أبٌ، بل أمٌّ فقط، فيمكن الاعتقاد بأنّه اتّحد بأمّه منذ الطفولة اتّحادًا عاطفيًّا.

ويظهر المسيح نفسيًّا شخصيَّة كاملة، إذ تبرز فيه الصفات الرجوليّة: كوضوح الهدف والتصميم على السعي إليه، والوعي للذات والتصميم القويّ. والحيويّة في العمل، وجِبلَة الرئيس والمرشد، واستنكار الانحطاط الأخلاقيّ الذي يؤذي الآخرين ومحاربته بشجاعة، وإيلاء الأهمّيَّة للعدالة والأفعال والثواب والعقاب والسيطرة على النفس.

ومن جهة أخرى، تكتسي القِيَم الأنثويّة عند المسيح أهمّيّة بالغة، بل وتمثِّل أصالة الدين المسيحيّ التي تميّزه عن اليهوديّة وعن سائر الأديان. وتتمثَّل هذه القِيَم في الثقة بالله، وفي التواضع والانفتاح على الله بالإيمان، وفي العفّة والخروج من الذات من أجل اعتبار الآخرين كالإخوة، وفي اللاعنف والرقّة، أي باختصار في الحبّ(١٦).

لم يجعل الله نفسه رجلًا، بل بشريَّة

إن حركة الدفاع عن المرأة، بتبنّيها المفهوم الذَكَريّ، تطالب بكهنوت المرأة البطرسيّ من حيث هو مساواة في الحقوق مع الرجل. وعلى عكس ذلك، تبقى المرأة ذات الإيمان الأنثويّ ضمن اختصاصها، وتعمّق الكهنوت المريميّ، وترى في الحبّ العالميّ ذي المنشأ الأنثويّ خلاص العالم.

وليس من المهين أن «تقتصر» على إبراز قِيَمِ نصف البشريّة الذي تنوِّره السماء أكثر من النصف الثاني.

---

(١٦) F. ALT, *Jesus der erste neue Mann*, Piper, München, 1989.

فضائل الإنجيل «الفقيرة»

الفضائل التي لها الأولويّة، بحسب تعاليم المسيح ومثاله، من أجل الوصول إلى الله، رمز المحبّة، هي التالية:

- الإيمان أو قابليّة التَّلَقّي: الله هو الذي يهب نفسه ويؤثّر فينا، إذا آمنّا بحبّه وفتحنا قلوبنا له.
- وحُبُّنا الله حبًّا جذريًّا بِتنزُّهِنا عن الأشياء ووهبِهِ أنفسَنا.
- وحبّ القريب القائم على الشفقة والمساعدة والأخوّة والرقّة والعفو.
- والخضوع لله والقبول بإرادته التي تقودنا إلى الحياة الإلهيّة حتّى في نوائب الدهر.
- والفقر من حيث هو تنزّه عن أمور الدنيا من أجل تكريس القلب لمحبّة الجميع محبّةً عميقة.
- والتواضع، أي اعتراف المرء بطبيعته كمخلوق، وبضعفه وخطيئته.
- والثقة بحبّ الله، والصلاة المتكرّرة، والابتعاد عن الجوانب الجسديّة في الحبّ وتفضيل الجوانب الروحيّة.

وكما نلاحظ، فإنّ هذه الفضائل «فقيرة»، أي أنّها تعترف بعجز الإنسان عن الوصول إلى الله بقواه الخاصّة، وتشجّعه على اللجوء إلى الخالق لطلب المساعدة. ويولي المسيح هذه الفضائل أهمّيّة أكبر من الأهمّيّة التي يوليها للفضائل «الطبيعيّة» التي ترتكز ارتكازًا أساسيًّا على التفكير الشخصيّ والسيطرة على الذات وقوّة التصميم. وهذه الفضائل ضروريّة في حدّ ذاتها ومتمّمة للأُولى.

ولنلاحظ أنّ الفضائل «الفقيرة»، الخارقة والقابلة للتَّلَقّي، التي يُطلَب وجودها في الرجل وفي المرأة من أجل الدخول في الحياة

الإلهيّة، تشبه المشاعر والاستعدادات التي تتحلّى بها المرأة العاشقة تجاه مَن تحبّ. وتمثّل هذه الأمور معطيات طبيعيّة عند المرأة. فالثدي الذي يستقبل الطفل هو الجذر البيولوجيّ الذي تتغذّى به المشاعر التي تمنح الإنسان قابليّة التَّلَقّي الروحيّ. ويجعل هذا العطاء المرأة صورةً لله من حيث هو حُبٌّ قائم على التضحية.

وبدون الرجل، لا يمكن للمرأة أن تستمرّ في الحياة، فهي بحاجة إلى حبّه الفاعل الذي يحميها ويوحي إليها بالعطاء وبذل الذات. ولكنّ الرجل بالمقابل يحتاج إلى المرأة لكي يتّحد عاطفيًّا بذلك العطاء وذلك البذل اللذَين يُمَكِّنان الاثنين من ولوج سرّ الاتّحاد الإلهيّ. وكلّ ذلك يتحقّق على نحوٍ رائع حتّى بدون الحبّ الجسديّ.

الكهنوت المريميّ يناسب المرأة

ويختم أرنولد دراسته قائلًا: «أن تحمل الخلاصَ إلى العالم امرأةٌ، عذراء وأمٌّ في آنٍ معًا، فهذا أمر يمثّل رمزًا عميقًا. وتقع المرأة المتمثّلة في شخص أمّ المسيح على نقيض أسطورة إنسان العصور الحديثة القائمة على العلمانيّة، الذي يعتقد بأنّه قادر على أن يكون مُخَلِّصَ نفسه، وعلى انتظار مُسَحَاءِ البشر، والذي يقود العالم إلى الدمار بسبب رغبته الجنونيّة في تأكيد استقلال الطبيعة البشريّة».

«لقد بيَّنت عذراء البشارة للناس في جميع العصور، وبأوضح ما يمكن، أنّه يستحيل على أيِّ مخلوق، مهما بلغ من الطهارة، أن يحمل الخلاص إلى البشريّة. وأَظْهرت بجلاء أنّ ما هو خَلّاقٌ فعلًا لا يمكن أن ينشأ إلّا في السماء، ولا يمكن أن يأتينا إلّا من

هناك»[١٧].

ويتمثَّل أسمى أشكال الأنوثة في بذل الذات بلا حدود، وفي الانفتاح على روح الله. وتقوم رسالة المرأة على أن تبيِّن للرجل، وحتّى لرجل الكنيسة، أنّه إن لم يُحِبَّ بعمقٍ، فكلّ نشاطه الاقتصاديّ والتنظيميّ يتحوَّل إلى أسوأ أنواع الأمراض القلبيّة.

ونجد في كتابات هانس أُورس فُون بَلْتَزار ما يلي: «في الوقت الحالي، تتراجع هذه الحماسة الخصبة، لأنّ المبدأ المَريميّ قد أُزيح من مكانه. وثمّة أمر آخر لا يساعد على تحسين ظروف المرأة، وهو أنّها انساقت مع تيّار تحويل الكنيسة الديمقراطيّ، وأخذت تطرق بإلحاح باب المراتب الكهنوتيّة، فأصبحت كمَن يهرب من المطر فيحتمي تحت المِزْراب».

«فقدت كنيسة ما بعد المَجمَع وجهها الصوفيّ، فأضحت كنيسةَ الحوار الدائم والمنظّمات والاستشارات والمؤتمرات والمجامع واللجان والأكاديميّات والأحزاب، وتكتّلات التأثير في الرأي العامّ، والوظائف والبُنى وإعادة البناء، والتجارب الاجتماعيّة والإحصاءات. وبذلك أصبحت الكنيسة، أكثر منها في أيِّ وقت، كنيسة البشر، أي كيانًا بدون جنس، حيث تحتلّ المرأة مكانة مرموقة، لا سيّما وأنّها مستعدّة لأن تصبح شبيهة بالرجل»[١٨].

لقد رأينا الطريق الكونيّ الذي يقود إلى الله، خالق الكون، والذي يترك الإنسان، مع ذلك، باردًا إزاء الخالق الذي لا ينظر إليه عن كثب. ثمّ استطلعنا الطريق الإنسانيّ الذي نكتشف فيه أنّ

---

(١٧) المرجع نفسه.

(١٨) H.U. VON BALTHASAR, *Klarstellungen*, trad. it. *Punti fermi*. Ruscono, Milano, 1972, p. 128.

الإيمان يمنح الحياةَ معنًى ويلبّي أعمق حاجات الروح، ولكنّ هذا الطريق يترك مجالًا للشكّ بأنّ ذلك الإيمان قد يكون عبارةً عن إسقاطات صادرة عن الإنسان. أمّا الطريق الثالث الذي يؤدّي إلى الله، فهو ما يطلق عليه بَلْتَزار اسم **الطريق الجماليّ** الذي يمسّ جوهر المسيحيّة ذاته. ويتمثّل هذا الجوهر في اكتشاف الإنسان المسيحيّ **حُبًّا يتجاوز جميع الحاجات الروحيّة الدنيويّة** ويُولِّد لدى مَن يتأمّل فيه حالةً من النشوة ويتجلّى فيه جمال أخلاقيّ لا يمكن أن يكون إلّا إلهيًّا. وهذا الطريق هو أقصر الطرق إلى الإيمان، والمرأة أقدر من الرجل على تحسّسه وتذوّقه لكي تتيح للرجل بالتالي فرصة اكتشافه.

ليس صدد الأمر في تساوي الحقوق، بل في خصوصيّة المهامّ

في المناقشات المتعلّقة بكهنوت المرأة، لسنا بصدد الثقافة الذَكَريّة أو المساواة في الحقوق كما تُظْهِرُ الدعاية الشائعة، بل المقصود هو سِرُّ الله والخلاص الذي يمنحه عن طريق الكنيسة. فالذكورة والأنوثة يحملان دلالات وقِيَمًا متكاملة حتّى في ما يختصّ بالوحي، ويُفْهَمان على ضوء المبدأ البطرسيّ والمبدأ المريميّ، كما بيَّن البابا يوحنّا بولس الثاني، إذ تحدَّث بالتحديد عن مهمّة المرأة الخاصّة (إرجع إلى *Mulieris dignitate*، ٢٧) قائلًا: «هذا الجانب **المريميّ** أساسيّ ومميَّز في الكنيسة، شأنه شأن الجانب **الرسوليّ والبطرسيّ** الذي يتّحد به اتّحادًا عميقًا... إنّ البُعد المريميّ يسبق البعد البطرسيّ، ويرتبط به ارتباطًا وثيقًا ويكمّله».

وإذ يستشهد البابا بفُون بلتسار، يؤكّد تفضيل مريم، وبالتالي تفضيل المرأة والأنوثة على المبدأ البطرسيّ، وبالتالي على الرجل

والرجولة. «مريم هي «ملكة الرسل»، وإن لم نطالب لها بالسلطات الرسوليّة. فهي تملك شيئًا آخر يفوق ما يملكه غيرها بكثير» (*Mulieris dignitate*، رقم ٢٧، الملاحظة ٥٥).

وهذا الشيء المختلف والفائق يشرحه لنا اللاهوتيّ السويسريّ العظيم إذ يطرق موضوع المرأة، لا من جهة النظر الاجتماعيّة والثقافيّة، بل من وجهة النظر اللاهوتيّة المحض، فيقول: «الكنيسة أنثويّة إلى أبعد الحدود، قبل أن تكتسب طابعها الذَكَريّ المتمِّم من خلال التنظيم الكهنوتيّ».

ويجب أن نعترف بأنّ الأهمِّيّة المفرطة التي أولي إيّاها كهنوت الرجل التنظيميّ عند الكاثوليك، وبأنّ قلّة الأهمِّيّة التي أولي إيّاها كهنوت مريم عند البروتستانت، قد أضعفتا وأظلمتا المبدأ المريميّ الذي تمثِّله المرأة المؤمنة والذي ينبغي أن يخدمه الكاهن الرجل.

ولعلّ أحد تفسيرات حركات الغليان والمطالبة التي ينتمي إليها العديد من النساء يتمثَّل في أنّ الكهنوت التنظيميّ قد اعتُبِرَ خلال قرون امتيازًا وشرفًا وخدمةً لله وللناس تمتاز عن غيرها من الخدمات في أنّها تُخلِّص وتُطَهِّرُ النفوس بالتعاون مع المسيح.

وفي الواقع، ليست الأمور كذلك. فالقدّاس وإدارة الأسرار يمكن أن يُشَبَّها بعمليّة توزيع الماء: فالكاهن هو الوعاء الذي يتلقّى الماء من النبع ويقدِّمه لمَن يريد أن يشرب. فإن كان هذا الوعاء مصنوعًا من الذهب أو من البلاستيك، فهذا لا يغيِّر شيئًا في أمر إرواء العطش. وبذلك، حتّى ولو كان الكاهن ضعيفًا بعض الشيء في إيمانه وقيامه بواجباته، يُحدِث اللهُ بالأسرار تأثيرات عجيبة في الإنسان تتمثَّل في التحوُّل الروحيّ الذي يتناسب مع مَن يتلقّاه.

ويبدو أنّ أسمى أشكال الوساطة عند الله، وبالتالي أسمى أشكال الكهنوت، هو - على عكس ذلك - التبشير بكلام الله، لأنّ هذا الكلام يزداد فعّاليّة كلّما شعر به الشخص الذي يفسِّره وعاشه بعمق.

وإنّنا نشهد اليوم دخول المرأة تدريجيًّا في كهنوت كلام الله، وفي الجمعيّات والحركات الكهنوتيّة، وفي المؤتمرات، وفي مختلف المدارس، بما في ذلك مدارس اللاهوت. فجوهر المسيحيّة هو الحبّ الصادر عن الله والذي ينتقل قبل كلّ شيء بالمثال وبالكلام. ولا تمثِّل الأسرار المسيحيّة وطقوسها الدينيّة سوى غلافٍ خارجيّ، ضروريّ ولكنّه لا يقارَن في أهمِّيَّته بقوّة التحويل التي يتمتَّع بها كلام الله الذي يؤثِّر في الناس حتّى خارج إطار الطقوس الدينيّة.

الكنيسة شركة تصنع أجهزة الاتّصال بالله. وتنتمي فيها ميولُ المرأة إلى قطاع المشروعات والإنتاج. أمّا ميول الرجال فإنّها تتناسب أكثر مع الإدارة والدعاية والتسويق. ومن غير المرجّح أن تستفيد الكنيسة من إلغاء هذه التخصّصات.

٢٩ - الإيمان التجريبيّ

حقيقيّ في الداخل وفي الخارج

وقع أحد علماء الآثار في سرداب مهدَّم يمتدّ إلى أعماق الأرض، وموجود في أحد معابد حضارة المايا كان قد اكتشفه لتوّه. وعلى أثر سقوطه، جُرِحَ وكاد أن يتغطّى كامل جسمه بالتراب والحطام، ووجد نفسه في متاهة مظلمة من الأروِقَة، وبعد أن تاه لوقت من الزمان، توصَّل بفضل معرفته معابد المايا وذلك المكان إلى بئر خالية من الماء لمح فوقها بصيص ضوء خافت. وظلّ خلال أيّام كاملة يحاول أن يخرج من البئر بشتّى الوسائل، ولكنّ جهوده راحت سدىً. وكان يعلم أنّ المكان لا يسكنه الناس ولا يمرّ به أحد، فأصابه اليأس ولم يعد يعرف إلى أيّ حيلة يلجأ من أجل الخروج. وعندئذ بدا له أنّه سمع أصواتًا آتيةً من الفتحة العُليا. ولم يعرف هل تلك الأصوات صادرة عن بعض الحيوانات أو بعض البشر أو عن الريح. فصرخ مستغيثًا، ولم يسمع في البداية أيّ جواب، ثمّ تهيّأ له أنّه سمع صوتًا يردِّد، مرّتين أو ثلاث، كلمات بلغة غير معروفة. إذن كان هناك أحدٌ ما في الأعلى.

واستمرّ في الصراخ، فرأى فجأةً حبلًا يتدلّى من الفتحة وفي طرفه علبة. وعندما وصل الحبل إلى قعر السرداب، فتح الرجل العلبة، فوجد فيها ثمارًا ناضجة. وبعد أن أكل منها وسدَّ رمقه بعض

الشيء، عاد إلى الصراخ، فسمع على الفور استجابة، فتعلّق بالحبل وشعر بنفسه يرتفع ويُسْحَبُ إلى النور شيئًا فشيئًا.

ترمز متاهة الأروِقَة والأصوات إلى البحث عن الله بالحدس وبالعقل؛ ويمثّل الحبل الذي يسحب إلى الأعلى الإيمان التجريبيّ، الذي يُفضي إلى السلام والفرح والعدالة والحبّ، ويغيّر الحياة.

إنّ مَن ينتظر اللحظة التي يظنّ فيها أنّه قد حَلَّ جميع المشكلات ووجد الردّ على جميع الاعتراضات واستوضح جميع النقاط الغامضة هو كَمَنْ ينتظر أن يستوضح جميع أسرار الحياة لكي يعيش. وأفضل طريقة لتسيير عجلة الإيمان، التي صَدِئَتْ من انعدام الحركة، هي أن نبدأ بالبحث التجريبيّ، وهو طريقة بسيطة تشبه الطريقة المستخدمة في الأبحاث العلميّة. وتقوم على اعتبار الفرضيّة صحيحة والقيام بالتحقّق من النتائج. وهذه النتائج هي التي تُقْنِعُ أكثر من أيِّ شيء آخر.

وبعبارة أخرى، تُقنعنا هذه الطريقة بتقديم الدليل، إذ إنّنا نتّجه نحو الله، ونطلب نوره، ونسعى إلى سماع استجابته الباطنيَّة، ونتّصل بأولئك الذين قد يستطيعون مساعدتنا. إقبل بالمسيح على أنّه مخلّصك؛ وافتح قلبك له وتأمّل في كلامه. فعندما تكون السلعة جيّدة النوعيّة، تصبح التجربة أكثر فعّاليّة من جميع كلام أولئك الذين يريدون بيع هذه السلعة.

وعندما تكتشف بالتجربة أنّ الله يحبّك ويستجيب إليك، تتغيَّر الأمور تمامًا، وتبدو لك الحجج أوضح من السابق.

وإذا قمت بالتجربة، فسوف ترى أنّها ناضجة. فشأنك شأن مَن يقف على صخرة وسط الماء، ويتردّد ويخاف لأنّه لم يسبح في ذلك الماء قَطُّ. فإذا أردت تعلُّم السباحة، فاجعل أحدهم يدفعك إلى

الماء دفعة قويّة وينتهي الأمر. ولكن إن بقيت خارج الماء، فلن تتعلّم السباحة أبدًا.

الإغراءات الحاليّة الداعية إلى تقليل الإيمان

فإذا قبِلتُ بالمسيح كَسَيِّدٍ لي ثمّ جرّبت تأثيره فِيَّ وشُفيتُ روحيًّا، يكون هذا أعجب تأكيد لحقيقة الإنجيل. ولكن إن كنتُ أملك حِسًّا نقديًّا طبيعيًّا، فإنّ قبولي هذا سوف يسبقهُ ويصحبه ويتبعه تأكيدات قائمة على العقل كتلك التي ذكرناها، والتي تقوم على وقائع خارجة عنّي.

واليوم يَحذو الكثير من المؤمنين حَذْوَ بعض اللاهوتيّين، إذ يخشون الوقائع، سَواءٌ أكانت علميّةً أم تاريخيّة، ويكتفون بالإيمان التجريبيّ (الذي لا يُعَدُّ تجريبيًا، حتّى في نظر فاتري الإيمان)، ويصرّحون بأنّ الإيمان العقلانيّ صعب ولا فائدة له. ولكنّ تعاليم المسيح لا تقول ذلك. فبحسب سلطة الكنيسة الكاثوليكيّة، يمكّننا العقل من أن نعرف أنّ الله موجود وأنّ وَحْيَه قد نزل في الكتاب المقدَّس ومن خلال المسيح. فإنّ القبول بتعاليم المسيح، بعد تلك الملاحظة، يُعَدُّ إيمانًا عاقلًا[١]. فيفيد الكتاب المقدَّس بأنّ الإنسان يستطيع بذكائه أن يعرف الله من حيث هو موجود حتّى خارج حاجاته الروحيّة[٢]، وبأنّ المعجزات والتنبّؤات التي تتحقّق وحالات

---

(١) غريغوريوس السادس عشر عام ١٨٣٤ (دِنْتسِنْغِر Denzinger ١٦٢٢-١٦٢٧)، بيّوس التاسع عام ١٨٤٦ (دِنْتسِنْغِر ١٦٣٦-١٦٣٧) المجمع الفاتيكانيّ الأوّل عام ١٨٦٩ (د. ١٧٩٥-١٧٩٧)، بيّوس العاشر عام ١٩٠٧ (د. ٢٩٧٢ وما يليه)، بيّوس الثاني عشر في رسالته الجامعة الجنس البشريّ عام ١٩٥٠ (ودِنْتسِنْغِر هو مؤلّف المجموع الرسميّ الحاوي وثائق المجامع والأحبار).

(٢) راجع: روم ١/ ٢٠ وما يليها وحكمة ١٣/ ١-٩.

الظهور التي تُراقَب بموضوعيّة تمثّل إشارات يرسلها الله لدعم الإيمان القائم على العقل(٣).

لذلك يتكامل الإيمان العقلانيّ والإيمان التجريبيّ كجناحَي طائر. والإنجيل كالحبّ البشريّ العميق والدائم، فهو ليس صحيحًا لأنّه جميل ويغيّر الحياة، بل إنّه جميل ويغيّر الحياة لأنّه صحيح.

---

(٣) قضاة ٦/٣٦-٤٠ ومتّى ٦/٩ ويوحنّا ٣/٢ و٢/٥-١٠ و٦/٢، ٦، ١٤ و١٠/٢٥ ورسل ٢/٤٣ و٥/١٢، إلخ.

الخاتمة

الجزيرة الغامضة والجزيرة العَبَثيَّة

يقول سارتر إنّ العبث هو مفتاح الوجود البشريّ: «إنّ كلمة العبث تولد في طرف ريشتي: . . . أدركت أنّي وجدت مفتاح وجودي، مفتاح غثياني وحياتي»(١).

في نظر سارتر، لا يقدِّم العالم أيّ أثر لله. ففي مسرحيّة **الشيطان والله**، يصرخ غوتز Götz، رئيس الفلّاحين وبطل المسرحيّة، قائلًا: «كنت أتوسَّل وأستجدي، ولكن لم أَلْقَ أيّة استجابة. . . ترى هذا الفراغ فوق رؤوسنا: إنّه الله»(٢).

ويشعر الإنسان المعاصر بأنّه مسافر نجا من الغرق وألقي في جزيرة مجهولة، فاعتقد بأنّه وحيد فيها ومضطرّ إلى تدبُّر أمره بنفسه، ومتمتّع بحرِّيَّة عبثيّة تحت سماءٍ خالية.

أمّا كلوديل فإنّه، على العكس، يرى الوجود البشريّ كالجزيرة الغامضة التي تخيّلها جُول ڤِيرن Jules Verne، إذ يقول: «يجد بعض الناجين من الغرق أنفسهم ملقين في جزيرة مجهولة يعتقدون بأنّهم

---

(١) J.P. SARTRE, *La Nausée*, Gallimard, Paris, 1938, pp. 181-192.

(٢) J. P. SARTRE, *Le diable et le bon Dieu*, Paris, 1951, p. 267.

وحيدون فيها ومضطرّون إلى تدبُّر أمرهم بأنفسهم. وفي اللحظات الحرجة، يأتيهم الغوث ولا يعرفون من أين. ويجدون نارًا مشعلة وصندوقًا مليئًا بأدوات الطبخ ملقى على الرمل، وحبلًا تَدَلّى من أعلى الصخور... ويمكننا بالطبع أن نجد تفسيرًا لكلّ هذه الأشياء، إلّا أنّ أصحاب أغلظ العقول في المجموعة يكتفون بالتمتّع بهذه الإغاثات دون أن يهتمّوا بمَن يهب لهم إيّاها. أمّا المهندس سَيْرُوس سمِيث Cyrus Smith فلا يرى الأمور بالطريقة نفسها، إذ نراه يتعلّق بسلُّم من حبال حاملًا بيده فانوسًا، ويتدلّى إلى أعماق بئر، ويراقب الماء الأسود اللون الذي تخرج منه، على نحو متقطّع، أصوات غريبة وحركات تُثير الشكوك»[٣].

وحتّى أنا يبدو لي أنّ هناك ما يكفي من الآثار على الرمل، وأنّ هناك آثارًا أخرى مبعثرة بين الأجمات، ولا يستطيع أن يجدها إلّا مَن يبحث عنها كالمهندس سميث. وكان غوتز على الأرجح يبحث عن آثار على الصخور حيث كان يعلم أنّه لن يجدها. ونستنتج هذا من صرخته الأخيرة: «الله غير موجود! فيا للسعادة، ويا لدموع الفرح! هليلوليا! لم يعد هناك سماء! ولا جحيم! لم يعد هناك سوى الأرض!»[٤].

إن كانت الأمور هكذا، يمكننا أن نقول إنّ الإلحاد هو البحث عن عَبَثِ الحياة، أمّا الإيمان فهو البحث عن معنى الحياة.

بيد أنّ معظم الناس ليسوا من الملحدين ولا من المؤمنين. فالناس لا يلتزمون بموقف ولا يقومون بالبحث، بل يكتفون بالبحث

---

(٣) J. RIVIERE, *A la trace de Dieu*, préf. de Paul Claudel, cit. dans C. MOELLER, *Letteratura moderna e Cristianesimo*, Vita e Pensiero, Milano, 1967, 1,2.

(٤) المرجع نفسه.

عن الملذّات الآنية الصغيرة، التي هي كفقّاعات الصابون أو الأحلام التي سرعان ما تتلاشى، ويؤخِّرون دائمًا يقظتهم كالطفل النائم الذي يسمع رنين المنبّه بصعوبة، ولا يريد أن يفتح عينيه الملصوقتين.

الحبّ وحده أو الإحساس الفطريّ بالحبّ هو الذي يدفع المرء إلى اليقظة وإلى البحث عن تلك الآثار. ويشرح فروسّار هذا الأمر قائلًا: «إنّ النهج العاديّ الذي ينهجه المرء في إيمانه تعترضه صعوبة بدائيّة لا يُسعِف العقل البارد في تخطّيها. ويقضي هذا النهج بأن نحبّ قبل أن نعرف؛ أمّا مَن يعتمد على عقله فحسب، فإنّه يريد، على عكس ذلك، أن يعرف قبل أن يحبّ، مع أنّه يسلك سلوكًا معاكسًا تمامًا عندما يهوى إنسانًا آخر»(٥).

يَعْرِفُ الحبُّ الأمورَ بالحَدْسِ قبل أن يتبيّنها بوضوح عن طريق العقل. «مَن قال إنّ الحبّ أعمى: هو الوحيد الذي يتمتّع برؤية جيّدة، ويكتشف مواطن جمال حيث لا يرى غيره شيئًا. الأعمى هو الهوى»(٦).

أشرت في محاولتي إلى مكان وجود بعض الآثار على الرمال، كالمسامير وقطع القماش والكلام المنقوش على جذوع الأشجار. ومَن يريد أن يجد القبطان نِيمُو Nemo يجب عليه أن يذهب إلى المكان نفسه، وسيجد هناك آثارًا أخرى غير تلك التي أشرت إليها. ومن المؤكّد أنّ هذه ليست أدلّة قاطعة، بل هي عددٌ من الإشارات والتحقّقات التي تضاف إلى عناصر استقصاء ما، والتي إذا تجاوز عددها حدًّا مَعَيّنًا فلا يمكن أن تُعْزَى إلى الصدفة.

---

(٥) A. FROSSARD, *Dieu existe, je l'ai rencontré*, cit., p. 76.

(٦) المرجع نفسه، ص ٣٣.

أمّا الظاهرة التي برزت في السنوات الخمسين الأخيرة، والتي تمثّلت في تكاثر الأبحاث الناقدة المتعلّقة بالإيمان والأبحاث المرموقة التي جاءت ردًّا على الأولى وبيّنت بوضوح وفعّاليّة صحّة الإيمان، فإنّها تُعَدُّ بمثابة اكتشاف.

ويمسّ هذا الاكتشاف جذور الكيان وأساس الحياة البشريّة وجوهرها ومعناها، وبالتالي فهو يفوق بأهمّيّته النظريّة والعمليّة الاكتشافات المتعلّقة بالذرّة واللاشعور واختراع التلفزيون والحاسوب والمكّوك الفضائيّ التي أحدثت في قرننا هذا ثورة عالميّة.

وهذا الإيمان المسيحيّ الذي لا يزال يمثّل في نظر بعض الناس قرارًا إراديًّا، أي «رغبةً في الإيمان» لا تستند إلى أساس موضوعيّ، بل تنشأ عن حاجة نفسيّة فحسب، يتبيّن أنّه غنيّ بالإشارات والتحقّقات الموضوعيّة التي تمكّننا من الإيمان بالله استنادًا إلى العقل، ممّا يتناسب مع طبيعة الإنسان العقلانيّة.

ويلزمنا أيضًا الحدس والصلاة ومقارنة الحياة بالقِيَم الأخلاقيّة، والرؤية الباطنيّة الشاملة التي تتجاوز العقلانيّة، كما نحتاج إلى مَعَانٍ. ولكن في هذا العصر الذي تكثر فيه المعطيات التقنيّة والعلميّة التي تُعَسِّرُ مسيرة المؤمن نحو أمور ما فوق الطبيعة، نجد معطيات أخرى ملموسة وقابلة للإثبات تُقَدِّمُ للمؤمن لتُمهِّد له السبيل إلى القِيَم السماويّة.

ولئن كان الإيمان العقلانيّ، الذي اشتهر به القدّيس توما المَيّال إلى اللمس باليد، ينتشر عند ضعيفي الإيمان، فإنّه لم يكن يساعد على بلوغ أهدافٍ أسمى في الحياة الآخرة فحسب، بل كان يُسهم أيضًا في تحسين نوعيّة هذه الحياة.

ويضع هذا الإيمان سدًّا أمام فيض الفساد وتفتّت الأسرة، لأنّ أزمة القِيَم الحاليّة تقوم على الحكم المسبق القائل بأنّ السعادة الأبديّة التي يتحدّث عنها رجال الدين «أسطورةٌ مُوَاسية» وسحابةُ أملٍ وهميّ تحمل ألوان قوس قزح.

ويُقيم هذا الإيمان جسرًا على نهر الوحدة البشريّة. ويمكننا أن نسعَد بأنّه ينبغي لنا، في نضالنا ضدّ الشرّ، ألّا نرى أنفسنا كمجموعة من البكتريات على كرة مبلّلة تائهة في ذَنَبِ سديم من النجوم، كما ينبغي لنا ألّا نعتبر أنّ الكون يخلو من ذكاء يوجّهه، وأنّه مجرّد من المعنى والغاية، ومن أيّ مصدر للطيبة الأبديّة يدعم الطيبة التي نصبو إليها (هاري إيمِرسن فُورْسْدِيك Harry Emerson Forsdick).

الإيمان العقلانيّ بابٌ يمكن أن يطرقه الجميع. فليدخل القارئ ويجرِّب. فَرُبَّ نموذج من البضاعة يُقنع أكثر من أيّ كلامٍ يقوله البائع.

وتبيِّن التجربة الواقعيّة أنّ شخصًا واحدًا يملك إيمانًا عقلانيًّا أقوى من تسعة وتسعين شخصًا يملكون آراءً فحسب، وأنّ الله قادر على أن يجعلنا، نحن الأشواك اليابسة، نُنبِت بالإيمان ورودًا نضرةً ومخمليّة.

تبدأ الشيخوخة في اللحظة التي تُدرك فيها أنّ ما مِنْ شيءٍ رائعٍ ينتظرك خلف المنعطف. ويحدث هذا الأمر مبكّرًا عند بعض الأشخاص، ولكنّه لا يحدث أبدًا عند مَنْ وجد الإيمان العقلانيّ.